

الاستشراق

كما يراه المفكرون العرب



تحرير

د. محيي الدين الحجار

دكتور في القانون

دكتور في الدراسات الشرقية



الاستشراق

كما يراه المفكرون العرب

سلسلة دراسات استشراقية (1)

اسم الكتاب: الإستشراق كما يراه المفكرون العرب

تحــــريــــر: د. محيي الدين الحجار

عدد الصفحات: 240 صفحة

قياس الطبعة: 17 × 24 سم

تصميم وإخراج فني: محمد جابر

النـــاشـر: كنز ناشرون ش. م. م.

الطبعة الأولى - 2022

ISBN: 978-9953-987-59-0





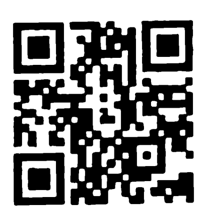
لبنان - بيروت - فردان

هاتف : 009613040478

009611800656

Email: info@kanzpublishers.co

www.kanzpublishers.co



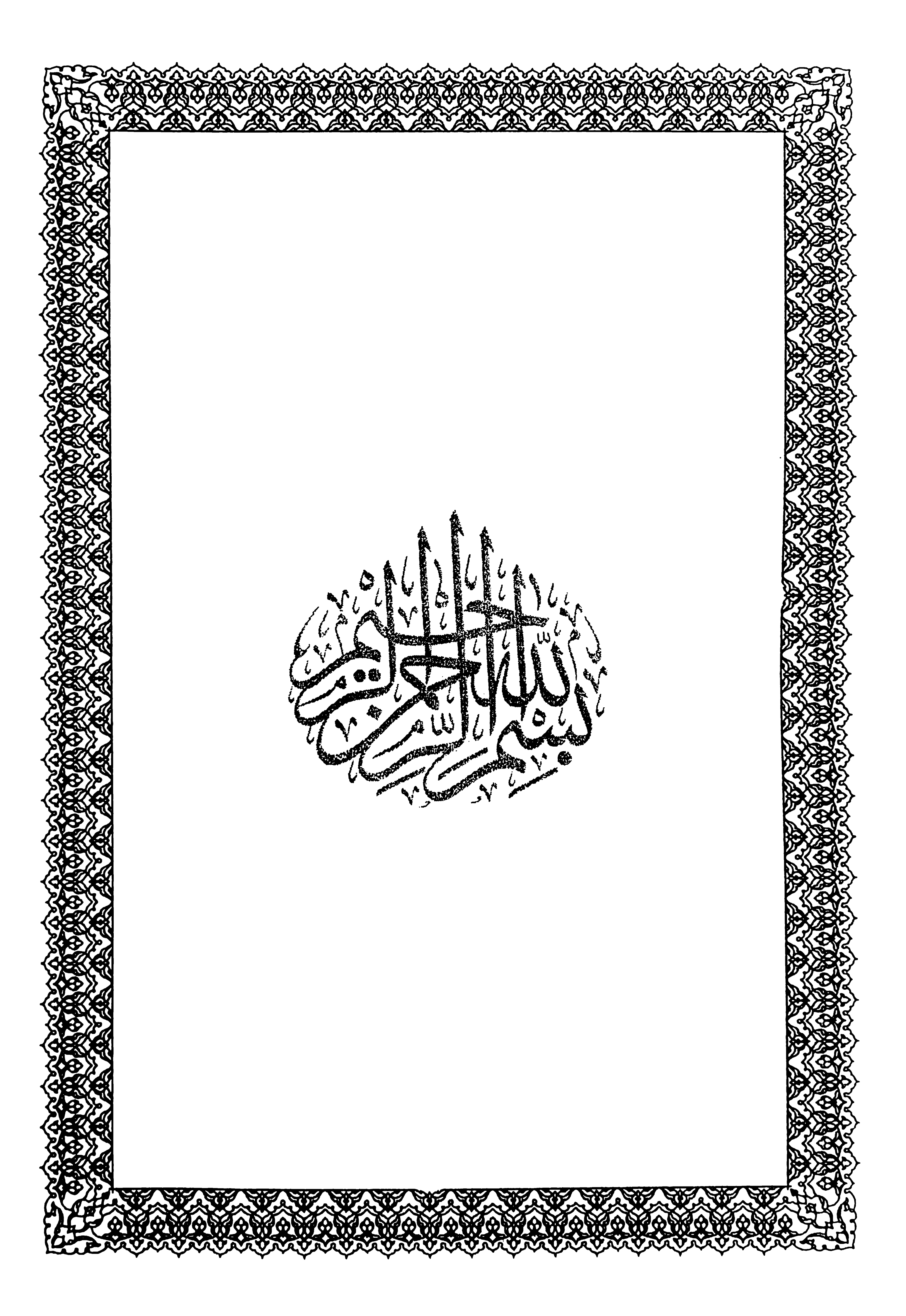
الاستشراق

كما يراه المفكرون العرب

تحرير

د. محيي الدين عدنان الحجار
دكتور في القانون
دكتور في الدراسات الشرقية




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

شغل الاستشراق والمستشرقون حيّزاً مهمّاً في النتاج الثقافي العربي في القرنين الأخيرين، إذ يرجع التواصل بين المفكرين العرب والمستشرقين إلى نشأة الاستشراق المعاصر. وأوّل الإصدارات العربيّة في هذا الباب كانت منحصرةً في معالجة المسائل التي يثيرها الاستشراق والردّ عليها. ثمّ تطوّر التواصل بين الجانبين وظهرت الكتابات التي تعنى بدراسة الاستشراق كفكرٍ وكتراثٍ علميّ والردّ عليه ونقد أسسه وتاريخه... وأخذت هذه الإصدارات المتخصصة كافّة أشكال النتاج العلمي، فصدرت الكتب وحُرّرت المقالات في هذا الشأن. والمقصود بالعرب مجمل الكتّاب المسلمين الذين ساهموا في هذا الباب باللغة العربية، أكانوا عرباً أم تركاً أم فُرساً أم هنوداً أم غير ذلك من القوميّات المسلمة، فيشمل ذلك على سبيل المثال «أبو الحسن الندوي» العالم المسلم الهندي الذي نشر كتاباً مهمّاً عن الاستشراق باللغة العربية.

وقد وقفنا منذ مدّة على كتاب صادر في روما تحت عنوان **المستشرقون، نصوص عربية حول الاستشراق**، حرّره جمعٌ من المستشرقين الناطقين بالفرنسيّة، يجمع طائفةً من المقالات العربيّة حول الاستشراق، مع ترجمتها إلى اللغة

الفرنسيّة[1]. فراقت لنا الفكرة نظراً لصعوبة الوصول إلى المقالات المنشورة في المجلات الأدبية الصادرة في مطلع القرن المنصرم، وضرورة الاطلاع على مواقف أعلام المفكرين العرب في هذا الباب، دون مزجها بتحليلات المؤلّفين والباحثين. وقد صنّف الكتاب مواقف المفكّرين العرب تجاه الاستشراق في ثلاثة مواقف عامة:

• الاستشراق هو أداة فسادٍ وإفساد، رعاه الغرب تحت ستار البحث العلمي لاستهداف الإسلام والثقافة العربيّة ودعم التبشير وتوطيد الاستعمار.

• الاستشراق تراثٌ علميّ ذو فضائل عديدة وخدمات جليلة للثقافة العربيّة والعلوم الإسلاميّة. قام المستشرقون بنشر الكتب التراثية الضخمة والاعتكاف على تحقيقها أحياناً طيلة عمرهم. لذا يغتفر لهم ما وقعوا فيه من الخطأ، فهم ليسوا عرباً ولا مسلمين، ويستحقّون التقدير على هذه المجهودات والاقتداء بهم في هذه الإنجازات.

• الاستشراق علمٌ كغيره من العلوم، له آفاقه وحدوده. قام العديد من أعلامه بنشر صورة سلبيّة تجاه الإسلام والمسلمين والعرب في المجتمعات الغربيّة. ولكن يلزمنا الآن الاستفادة من هذا التراث العلمي، والمساهمة فيه، بل وأخذه على عاتقنا لتصحيح مساره، عبر اتّخاذ موقف نقدي إيجابي.

ولا يخفى أنّ هذا العرض قاصرٌ على بعض مواقف المفكرين العرب أو بالأحرى المواقف الأكثر تطرّفاً، وتحديداً النقيضين: مناهضي ومناصري الاستشراق، دون المرور على الموقف الأغلبي الذي يتوقّف في الاستشراق ويمعن فيه عين النقد والتمحيص، فيقبل ما يراه صحيحاً ويرفض ما دون ذلك. كما أنّا وجدنا العمل مشوباً بنقصٍ من نوعٍ آخر، فهو لم يطرق مواقف أبرز

(1) M. Borrmans, A. Ferré, M.-Th. Hirsch, A. Lane, M. Lagarde, J. Mahfouz, H. Moussalli : *Al-Mustašriqūn, Textes arabe sur l'Orientalisme*, Roma : PISAI, 1992.

المفكرين العرب الذين اشتُهروا بالكتابة في هذا الموضوع، وبالتواصل مع المستشرقين أو الأعلام المشهورين الذين انتشرت مواقفهم عن المستشرقين بين القرّاء والباحثين العرب. وهذه المواقف أكثر تعبيراً عن الموقف العام أو المجمل من المسألة. أمّا الموقف الدّاعي إلى التفاعل الإيجابي مع الاستشراق ودخول الباحثين العرب والمسلمين إليه من باب البحث العلمي والمساهمة الأكاديميّة فهو موقف فردي رائد في بابه.

لذا عقدنا العزم على إصدار كتابٍ مماثلٍ، يتجاوز المآخذ السابقة ويقدّم للقرّاء العرب مواقف أبرز المفكرين والكتّاب العرب من الاستشراق، بشكلٍ يشمل أبرز هذه المواقف وأدلّتها. فبلغ مجمل ما وقفنا عليه من مقالات أزيد من ثلاثمئة مقال منشور في المجلات الأدبيّة والفكرية العربيّة[1]. وقمنا بهيكلة كتابنا هذا بناءً على المواقف الرئيسة المعتمدة لدى المفكرين العرب. فرجعنا إلى أصل المقالات التي جمعها الكتاب الفرنسي، لأنّنا لاحظنا بعض السقط في العبارات، وهو في الغالب غير مؤثّر[2]. وأضفنا مقالاتٍ منتقاة بعناية، لمراعاتنا الاعتماد على أبرز المفكرين العرب وأشدّهم تأثيراً مع التركيز على من تواصل منهم مع المستشرقين وتحاور معهم أو درس في بلادهم ومؤسّساتهم الفكريّة والعلميّة. فأضفنا مقالات لـ«شكيب أرسلان» الذي عاش في أوروبا دهراً وتواصل مع جمعٍ من أعلام الاستشراق فيها، و«عمر فرّوخ»، الذي درس في ألمانيا في كليّة الدراسات الشرقيّة ودخل عالم الاستشراق وأكثر من الكتابة والتصنيف في هذا الباب، و«مصطفى السباعي»، الذي سافر إلى أوروبا خصيصاً للقاء أبرز أعلام الاستشراق والتواصل معهم وأكثر من

(1) نظراً لضخامة التراث العربي المنشور حول الاستشراق، اكتفينا بعرض ثبت بالمصادر التي اعتمدنا عليها في عملنا، دون إدراج مجمل ما وقفنا عليه ولا المراجع التي أشارت إليها المقالات المنتخبة.

(2) حافظنا في عملنا هذا على الإطار الشكلي العام للكتاب الأول، فتمّ وضع الأسماء بين مزدوجين والعناوين بالخط الغامق.

الكتابة في هذا الباب. ولكن هذا الانتقاء لا يمكنه أن يكون شاملاً، فبعض أبرز مناهضي الاستشراق وأكثر من ردّ على نظرياته ومخرجاته لم يكتب فيه نصوصاً خاصّة وعلى رأسهم «محمود شاكر» و«محمد محمد حسين»، وكذلك الحال بخصوص أنصار الاستشراق كـ«طه حسين» و«محمد كرد علي» و«أحمد تيمور» وغيرهم ممن لم يفردوا للاستشراق كتاباتٍ خاصّة. ولعلّ أشدّ قولٍ لمناهضي الاستشراق يلخّص فيه موقفه من الاستشراق والمستشرقين بشكلٍ عامٍ هو ما كتبه «أحمد فارس الشدياق» في كتابه **الساق على الساق فيما هو الفارياق** حيث يقول:

> إنّ هؤلاء الأساتيذ (المستشرقين) لم يأخذوا العلم عن شيوخه، وإنّما تطفّلوا عليه تطفّلاً، وتوثّبوا فيه توثّباً. ومن تخرّج فيه بشيءٍ، فإنّما تخرّج على القسُس، ثمّ أدخل رأسه في أضغاث أحلامٍ، أو أدخل أضغاث أحلامٍ في رأسه، وتوهّم أنّه يعرف شيئاً وهو يجهله. وكلٌّ منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء، فما اشتبه عليه منها رقعه من عنده بما شاء، وما كان بين الشبهة واليقين حدس فيه وخمّن، فرجّح منه المرجوح وفضّل المفضول.

فهذا نقلٌ لنقدٍ شديد للاستشراق، معزول عن إطاره العام، ولا يندرج في عمل خاصّ بالاستشراق ليعطي صورةً متكاملةً عن موقف الكاتب من الاستشراق وأسباب نقده هذا وحدوده، رغم أنّه يعرض لأبرز الأسباب الداعمة له. وهنا تبرز أهميّة عملنا هذا في تقديم مقالاتٍ ونصوصٍ متكاملةٍ في الاستشراق بدلاً عن النقول المُستلّة من الكتابات العامّة. وقد حاولنا في هذا الكتاب جمع المواد العلميّة بشكلٍ يتوافق مع الهيكل العام الذي يغطّي مجمل محلّ الدراسة، أي مواقف المفكرين العرب من الاستشراق. وتعدّدت أشكال النصوص المنتقاة

لتشمل: المقال، ومختصر كتاب، والقراءة النقديّة في كتاب، والفصل المستلّ من كتاب.

وتقاسم المفكرون العرب الموقف تجاه الاستشراق بين مؤيّد ومناصر. وبين الموقفين المتناقضين يظهر موقف متوسّط يأخذ من الاستشراق ما يراه مناسباً ويردّ ما يعتبره فاسداً. وهذا الموقف سار عليه أغلب المفكرين والأدباء العرب، ولكنه في الحقيقة مزيج واسع من المواقف حسب التشدّد أو التساهل تجاه الاستشراق. فقد يصل عند البعض إلى اعتبار أغلب التراث الاستشراقي فاسداً ويصنّف أهله ضمن الباحثين الحاقدين أو غير المنصفين، فلا يختلف كثيراً عن الموقف الذي يردّ الاستشراق بالكلّية سوى بالمناداة إلى الإنصاف وعدم شمول جميع المستشرقين بذات الأحكام. وهذا موقفٌ منتشرٌ بين المفكرين العرب، ومن أنصاره ودعاته الدكتور «مصطفى السباعي» مؤلف كتاب **الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم** والشيخ «أبو الحسن الندوي» في كتابه **الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين**[1]. وربما من أكثر المواقف توسطاً واعتدالاً هو موقف الدكتور «عمر فرّوخ» في آخر ما كتبه عن الاستشراق، مع الإشارة إلى أنّ موقفه قد مرّ بعدّة مراحل، وتطوّر من نقدٍ شديدٍ للاستشراق ومعاداةٍ له إلى نظرةٍ أكثر توسّطاً[2]، وهذا الموقف الأخير هو ما عرضناه له في كتابنا هذا.

وختاماً، فالمواقف الداعية للتفاعل بين المفكرين العرب والمستشرقين كثيرة، وقد تكون مندرجة ضمن تصوّر عام ومقترح منهجي للمساهمة في تطوير بناء معرفي مشترك، كما هو حال مقترحات الدكتور «عبد النبي اصطيف»، وقد

(1) «أبو الحسن الندوي»: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986.

(2) حول موقف الدكتور «عمر فروخ» من الاستشراق، يراجع: «ميشال جحا»: «عمر فروخ والاستشراق»، الاجتهاد، العدد 25، السنة السادسة، ص131-151.

تكون - كما هو الغالب - عبارة عن مواقف مقتضبة وتصريحات قصيرة حول التعاون العلمي والتواصل الفكري، ضمن كتاباتٍ عامّة. وهذا الموقف الداعي إلى التواصل والاستمداد المتبادل للعلوم والمعارف والمناهج بين الشرق والغرب متفرّع عن الموقف المتوسّط تجاه الاستشراق، حيث نرى فيما نقلناه من مقالات لأنصار هذا الموقف الوسطي بعض الدعوات للاستفادة والتبادل العلمي.

بشكلٍ عام، لا يمكن الفصل بين المواقف المختلفة تجاه الاستشراق بحاجزٍ ثابتٍ منيع، وهذه الأقوال المجملة تحوي العديد من الأقوال المتفاوتة فيما بينها كما أشرنا. لذا يمكن اعتبار هذا الكتاب مساهمةً في إدراك الموقف العام للمفكرين العرب تجاه الاستشراق، وخطوة يمكن البناء عليها في تطوير دراسة هذا الموقف وتحريك الرأي العام العربي نحو التفاعل الإيجابي مع هذا التراث العلمي القادم من الغرب، فلا المستشرق شرِّيرٌ بطبيعته ولا سيّءُ النيّة في الأصل، ولا الباحث العربي متعصّب ورافض لكلّ ما يأتيه من الغرب.

د. محيي الدين الحجار

باريس 2022

الفصل الأول

المواقف المتضادّة:
هل ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم؟

يبرز من مجمل مواقف المفكرين العرب تجاه الاستشراق موقفان متضادّان، ينزلان من المسألة منزلة النقيض، فيغاليان في معاداة الاستشراق ونصرته. فالأوّل يجعل الاستشراق شرّاً مطلقاً، لا خير يرجى منه وفوائده غارقة في بحر مضارّه وسيّئاته. بينما يجعله الثاني خيراً عميماً، على بعض هنّاتٍ يسيرةٍ لا تضرّ بمجمل نتاجه الفكري.

وقد برز هذان التيّاران بشكلٍ جليٍّ في مطلع القرن المنصرم على خلفيّة تسمية بعضهم كأعضاء في المجمع اللغوي في القاهرة عام 1351هـ/1932م. فحصل تراشق صحفي بين أنصار المذهبين، انغمس فيه العديد من المفكرين المصريين والمستشرقين. وقد اندلعت شرارة هذا الموضوع في الصحافة الأدبيّة المصريّة بمقال نشره وقتها الدكتور «حسين الهواري» في العدد الثاني من مجلة **المعرفة** لعام 1932، عرض فيها لمخاطر الاستشراق على الشرق وعلى الفكر العربي والمصري تحديداً. فانبرى للرد عليه الدكاترة «زكي مبارك» في مقال نشره في مجلّة **البلاغ** من نفس العام. وتوالت المقالات، واشترك في هذا

النقاش «محمد حسين هيكل»، وإدارة تحرير **مجلة المعرفة** أي: «عبد العزيز الإسلامبولي» كلّ منهم بمقال واحد. كما اطّلع المستشرق «مارجليوث» على هذا النقاش وساهم من جهته بمقال نشر في **مجلة المعرفة** أيضاً ردّ عليه د. «حسين الهواري» لاحقاً في نفس المجلّة.

لذا عمدت **مجلّة الهلال** إلى دعوة كلٍّ من الدكتور «حسين الهواري» والدكتور «زكي مبارك» للمشاركة في ملف خاصّ بالموضوع يحوي مقالاً لكل منهما يلخّص موقفه من المسألة. واستمرّ النقاش في هذا الموضوع في الصحافة الأدبيّة المصريّة - وفق ما اطّلعنا عليه - إلى عام 1936.

وهذا مجموع المقالات التي تناهى إليها علمنا والصادرة في ثنايا هذا النقاش. ونشير إلى أنّنا لم نصل إلى بعضها، ولكن علمنا بها من الردود عليها:

- «حسين الهراوي»: «نحن والمستشرقون الأنانيّة القوميّة وتحرير الفكر»، **المعرفة**، العدد 2، فبراير 1932ـ ص177-180.
- «زكي مبارك»، **البلاغ**، 1932[1].
- «محمد حسين هيكل»: **جريدة السياسة**، 1932[2].
- «حسين الهراوي»: «نحن والمستشرقون رد على الدكتور مبارك»، **المعرفة**، العدد 3، مارس 1932، ص302-304.
- «زكي مبارك»: «فضل المستشرقين على اللغة العربية»، **المعرفة**، العدد 4، أبريل 1932، ص415-416.
- «حسين الهراوي»: «المستشرقون وضررهم على الإسلام والشرق» **المعرفة**، العدد 6، يونيو 1932، ص720.

---

(1) لم نستطع الوقوف على هذا المقال، ولكن أشارت إليه المقالات الأخرى الصادرة في خضمّ هذا النقاش الحامي الوطيس.

(2) لم نستطع الوقوف على هذا المقال.

- «عبد العزيز الإسلامبولي»: «نحن والمستشرقون أيضاً، رد صاحب المعرفة على الدكتور «حسين الهراوي»، **المعرفة**، العدد 6، يونيو 1932، ص723-726.
- «مرغليوث»، **المعرفة**، 1933[1].
- «حسين الهراوي»: «المستشرقون وضررهم على الإسلام، بيني وبين «مرغليوث»»، **المعرفة**، عدد10، أكتوبر 1933، ص1223-1225.
- «حسين الهراوي» و«زكي مبارك»: «هل ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم؟»، **الهلال**، العدد 42، 1934، ص562-579.
- «حسين الهواري»: «المستشرقون والإسلام» المنار، 1936، العدد 4، ص249.

ومن المؤسف أنّنا لم نستطع الوصول إلى بعض هذه المقالات المنشورة في بعض المجلات المصرية الصادرة مطلع القرن المنصرم، وهي محفوظة في موجودات دار الكتب المصريّة. وهنا نستذكر أهميّة أعمال المستشرقين في حفظ التراث العربي وبذله للباحثين. فلو كانت هذه المجلات في مكتبات الجامعات الغربيّة لما عجزنا عن الوقوف عليها، ولكن الاطّلاع على موجودات دار الكتب المصرية في غالب الأحيان أصعب من ردّ الشخب في الضرع.

(1) لم نستطع الوقوف على هذا المقال.

هل ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم؟

قامت حركة في الأيام الأخيرة حول بحوث المستشرقين عن العرب والإسلام بمناسبة اختيار بعضهم أعضاء في المجمع اللغوي الجديد. وفي هذا المقال رأيان متعارضان؛ أحدهما للدكتور «حسين الهراوي»، وهو يقول بأن ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم، وحضرته هو الذي أثار هذه المسألة في الصحافة والمجامع، وثانيهما الدكتور «زكي مبارك»، وهو يقول العكس.

ضررهم أكثر من نفعهم

بقلم: الدكتور «حسين الهراوي»

إذا قلّبت أيَّ كتاب اجتماعي أو عمراني باللغة الأجنبية يتكلم عن مصر أو الشرق أو الإسلام وجدت أشياء كثيرة لا يقرُّها عقل ولا يستسيغها منطق وليست من الحقيقة في شيء.

ويلفت نظرك خاصة ما يوصف به الدين الإسلامي من الصفات التي لا تنبو فقط عن الذوق السليم والحقيقة، بل إن الكُتَّاب الأوروبيين يصورون الإسلام بصورة بشعة غريبة لا تكاد تقرؤها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ.

فإذا كنت شرقياً صميماً أوّلت ما يكتب في تلك الكتب الاجتماعية بأنه جهل من المؤلفين بأحوال الشرق وعاداته. وإذا كنت مسلماً أسفتَ كثيراً أن يوصف الإسلام بصورة بشعة بعيدة عن الواقع.

هذه هي الآراء التي كنت أظنّها، وأنا أعالج الكتب الاجتماعية أو العمرانية، وهي تتلخّص في أنّ الأوروبيين لا يعرفون شيئاً عن حقيقة الشرق بصفةٍ عامّةٍ وعن الإسلام بصفةٍ خاصّةٍ.

فليس حقيقياً ما ذكره «مارشال» في كتابه الزواج أن الأم في مصر لا يباح لها أن ترى وجه ابنتها بعد سنّ الرابعة عشرة من أثر الحجاب في الإسلام.

وليس صحيحاً ما جاء في هذا الكتاب أيضاً من أنّ الفتاة الريفيّة المصريّة يباح لها أن تعري جسمها كله أمام الرجال أمّا وجهها فلا يراه إنسان. وليس صحيحاً أنّ الإسلام، بضربه الحجاب وبإباحته تعدّد الزوجات، كان ضربة قاضية أصابت المدنيّة منذ وجود هذا الإسلام، كما جاء في كتاب نسيت عن الزواج والوراثة. وليس صحيحاً أنّ سيدنا محمداً ﷺ كان رجلاً نسائياً محضاً كما

جاء في هذا الكتاب. فأوّل ما نلاحظه في تلك الآراء أنّها مجرد تشنيع خالٍ من الحقّ ومن العدل، ويتفشّى فيها سوء النية بصفةٍ جليّةٍ واضحةٍ لا تقبل تأويلاً أو تعليلاً. ومن محاسن الكتب الإفرنجية أنّها تكتب المصادر التي اعتمدت عليها في إبداء آرائها، وتشير إلى المراجع التي استقت منها تلك المعلومات. وكنت أتتبع تلك المصادر فأجدها راجعةً إلى بيئةٍ واحدةٍ هي جماعة المستشرقين.

في الأدب الإفرنجي الحيّ، كتبٌ قيّمةٌ جداً تبحث في التّاريخ العام والخاص. وتاريخ الأمم والنّهضات العلميّة. وهذه الكتب محترمةٌ عند الأوروبيين. فكنت أطالع هذه الكتب فأجد فرقاً كبيراً عندما تكتب عن التّاريخ القديم أو الحديث بلباقةٍ ودقّةٍ علميّة، كوصف مصر القديمة وآثارها، وسوريا وتاريخها، والعراق وماضيها. ولكنها إذا تكلمت عن الجزء الإسلامي، أو عن حياة سيّدنا محمدٍ ﷺ أجد تخريفاً ظاهراً وكذباً واضحاً وتشنيعاً كبيراً. فالنبي العربي العظيم يوصف بأنه مؤسسُ دين حربي لا صلة بينه وبين الفضيلة. بل أكثر من ذلك، قرأت في فصل من **تاريخ العالم العام** أنّ سيّدنا محمّداً ﷺ هو ابن عبد الله، وعبد الله يطلق على الوالد المجهول وربما كانت هذه التسمية من هذا القبيل. وبحثت عن اسم الكاتب فإذا هو مستشرق إنجليزي معروف وهو أستاذ في جامعة أكسفورد هو «مرجوليوث» والرجل زار مصر ومعروف فيها.

وكنت أقلب كتاب **دائرة المعارف الإسلامية** فأجد استقصاءً تاريخيّاً للصّغيرة والكبيرة من التاريخ الإسلامي. أمّا فيما يختص بالنّبي الكريم فكنت أرى طعناً جارحاً وكلاماً أقل ما يوصف به أنّه من قبيل قلّة الذوق في المعاملات الإنسانية العادية. وهؤلاء الكتّاب كلّهم من المستشرقين.

ثم وقع في يدي كتاب تقرير من لجنة العمل المغربي، فرأيت هذا التقرير يتتبع السياسة الاستعمارية، ويصف طرق مقاومة الإسلام والتقارير السرية التي يرسلها المستشرقون في البلاد المستعمرة إلى حكوماتهم لمقاومة الإسلام،

لأنه روح تتنافى مع الاستعمار، وأنّ أوّل واجب في هذا السبيل هو التّقليل من أهميّة اللغة العربية وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحليّة في شمالي إفريقيا واللّغات العاميَّة، حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن التغلّب على عواطفهم. فكان هذا التقرير تفسيراً لكلّ ما سردته لك من الأكاذيب التي تتردد في الكتب الإفرنجية. وفي زيارتي لأوروبا كان الحديث بيني وبين الناس يجرُّنا إلى البحث في الإسلام، فعلمت من ذلك أن الأوروبيين يُربَّون على كراهية الإسلام واحتقار الشعوب الإسلامية حتى لا يعطفوا عليها أو يختلطوا بها.

نترك هذه المقدمات جانباً ونبحث في ناحية أخرى عن المستشرقين:

فالمستشرقون جماعة من مدرِّسي اللغات الشرقية في جامعات أوروبا. وهؤلاء الطلبة الذين يتلقون تلك العلوم ليسوا مغرمين بسواد عيون الشرق، وليسوا مولهين حبًّا بجمال اللغات الشرقية، ولكنهم جماعة من الأجانب الشبان يربون أنفسهم تربية استعمارية ليعملوا في المستعمرات. وكان لا بدَّ لهذه الجامعات أن تعلمهم على أسلوب يضمن لها قومية هؤلاء الطلبة وتحذرهم من العطف على الشرق أو الميل للإسلام. ولا أستطيع أن أفهم من مهنة كهذه أن يكون الأستاذ منصفاً للشرق أو داعية للإسلام، بل بالعكس يجب أن يقوم بالدور المطلوب منه سواء كان في الكلية مع الطلبة أم خارجاً عنها في مؤلفاته!

إذا ألف مستشرقٌ كتاباً أو كتيّباً أو نشرةً ظهرت هذه النشرة بثلاث لغات حية في وقت واحد: الألمانية والإنجليزية والفرنسية، مع أن طابع هذه الكتب يتكلف نفقات باهظة قد تستنزف ثروة المستشرق نفسه. وترى في مقدمة كل كتاب من كتب المستشرقين أسماء زملاء له في البلدان الأخرى يقومون بالترجمة والطبع والنشر والمراجعة، وفي كل عام ينعقد لهؤلاء المستشرقين مؤتمر ليتفقوا فيه على خطة العام الجديد.

وأنا أعرف مواضع دسائس المستشرقين، فهم يتكلمون في التاريخ الإسلامي بروح المؤرِّخ. أما عن سيدنا محمد ﷺ وعن الإسلام وعن القرآن فهم يتكلمون بروح المنفِّر، الذي يخيف الناس من الإسلام وبروح المتحامل الذي يكيل الدسائس والشتائم من غير وزن.

وكنت أعلم أن المستشرقين ينقصهم في مباحثهم عن الإسلام الروح العلمية، وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم، وهي أنهم يفرضون فَرَضاً، ثم يلتمسون أسبابه فإذا وجدوا في القرآن آيات تتناسب في معانيها مع فرضهم اقتبسوها، وإذا وجدوا آيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها وقالوا: إنها غير موجودة في القرآن، فيخرج القارئ من كلامهم وهو يتّهم الإسلام بالتلفيق كما يتهمونه.

ولذلك لم أتوان أن أناقش «فنسنك» رئيس تحرير **دائرة المعارف الإسلامية** هذا الحساب وأن أظهر مساوئه، لأنه كرئيس تحرير لهذه الدائرة يعتبر له قيمة، ولا بأس أن نناقشه في ميدان العلم مناقشة علميّة واضحةً، وأن نظهر أنّ طريقة المستشرقين في البحث طريقة شعوذةٍ فلا يَحترِمُ آراءَهم بعد اليوم أوروبيٌّ ولا شرقيٌّ. وإذا ما خلعنا عنهم تلك الزخارف البراقة من الوهم الذي أحاطوا به أنفسهم، فقد أظهرنا حقيقتهم للناس، هم قومٌ ضعافٌ في العلم، لهم في الإسلام مآرب سيئة.

ولـ«فنسنك» مبحثان في **دائرة المعارف الإسلامية** هما أنموذج لشعوذة المستشرقين، أولهما عن «إبراهيم»، وثانيهما في كلمة «الكعبة». ونحن نقتصر هنا على ما كتبه عن «إبراهيم»، فقد كتب ما يأتي:

كان «إسبرنجر» أول من لاحظ أنّ شخصيّة «إبراهيم» كما في القرآن مرّت بأطوار قبل أن تصبح في النهاية مؤسسة الكعبة. وجاء «سنوك

هرجرونيه» بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى، فقال: إن «إبراهيم» في أقدم ما نزل من الوحي (في الذاريات آية 24 وما بعدها – الحجر آية 50 – الصافات آية 81 وما بعدها – الأنعام آية 74 وما بعدها – مريم آية 42 وما بعدها إلخ) هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل ولم تذكر لـ«إسماعيل» صلة، وإلى جانب هذا يشار إلى أن الله لم يرسل للعرب نذيراً (السجدة آية2- سبأ آية 43- يس آية5) ولم يذكر قط أنّ «إبراهيم» هو واضع البيت ولا أنه أول المسلمين.

أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك، فـ«إبراهيم» يُدعى حنيفاً مسلماً، وهو واضع ملّة «إبراهيم»، رفع مع «إسماعيل» قواعد البيت المحرم (البقرة آية 88 وما بعدها- آل عمران آية 60 وما بعدها) إلخ.

«وسر هذا الاختلاف أن «محمداً» كان قد اعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء، فلم يكن بُدٌّ من أن يلتمس غيرهم ناصراً، هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب «إبراهيم». وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية «إبراهيم»، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام. ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح «إبراهيم» أيضاً المشيد لبيت هذه المدينة المقدس».

يتراءى لك عند قراءة هذه القطعة أنّ «فنسنك» باحث عميق يستقصي آيات القرآن واحدة واحدة. ويخيل إليك أن الرجل صادق في أقواله، وأنه يعتمد على المستندات من الآيات التي أحصاها واحدة واحدة.

ولكن لم يغب عنّا مواضع الضعف في قوله. لأنه كالممثل الذي على المسرح يكثر من الأشخاص الذين لا يتكلمون حتى يوهم الناظر أن الرواية قوية، ولكنه ما صنع هذا في الحقيقة إلا ليستر ضعفها. ولذلك لم يخدعنا هذا المظهر البراق،

لا سيما وأننا نعلم تماماً أغراض المستشرقين، فلا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، فنحن قبل كل شيء نؤمن بصحة القرآن، إذن فماذا يقصد الرجل؟ يريد أن يقول: إنّ رسالة «محمد» عليه السلام مفتعلة وأن هذه الآيات كلها مظاهر براقة، إذن فلنتمش معه في البحث.

فقد أنكر أن الآيات المكية فيها إشارة إلى أن إبراهيم هو واضع البيت وأنه لا يوجد إشارة أو ذكر لصلة إسماعيل به.

أمّا الآيات المكية التي فيها ذكر البيت وأن «إسماعيل» هو ابن «إبراهيم» فهي موجودة في سورة «إبراهيم» في الآية 37 وما بعدها: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾. فهذه آيات مكية لا نعرف لماذا حذفها «فنسنك». ولكن النظرية التي شرحناها لك تضيء لك الموضوع. فإنه يفرض الفرض ويتلمس الدليل فإذا وجد ما يهدم نظريته حذفه. وهذا يدل على عدم الأمانة في العلم، لا سيما في موضوع دقيق يهم عقيدةً يدين بها نحو ثلثمائة مليون مسلم. ولا يمكن أن نلتمس لـ«فنسنك» في هذا حسن النية. لأن هناك قواميس للقرآن وإذا بحث عن كلمة «إبراهيم» فإنه يعثر على هذه الآية.

ويقول «فنسنك»: إن الآيات المدنية هي التي اختصّت بذكر ملة «إبراهيم». ولكن هذا غير حقيقي. فالآية 160 من الأنعام مكية وهي: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. والآية 122 من سورة النحل مكية، وهي: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

و«يهوذا» الذي تنسب له اليهودية هو من أحفاد أحفاد «إبراهيم» فليس معقولاً أن يوصف دين «إبراهيم» باليهودية التي أتت بعده بمئات السنين.

ومن هذا يتبين لك أغراض المستشرقين وأنهم ليسوا من العلم ولا من الأمانة بشيء كما يتصورهم الناس. وأنهم ممن لا يوثق بهم في البحث العلمي.

نفعهم أكثر من ضررهم

بقلم: الدكتور «زكي مبارك»

أسارع فأقرّر أني قبلت هذا العنوان كما اقترحه «الهلال»، وإلا فمن البداهة أن الاستشراق عمل واقع، وأن المستشرقين طائفة من العلماء الجادّين يجب الاتصال بهم، والتّعاون معهم، ولسنا من الدّاعين إلى قطع الأواصر الأدبية والعلمية التي يطّرد نموها بين الممالك والشعوب.

قالوا: إنّ المستشرقين طلائع المستعمرين، وهذا صحيح، ولكن هل الاستعمار في ذاته جريمة؟ وكيف وهو شريعة حيوانية؟ والشرائع الحيوانية أبقى على الزمان! وليس يكفي في دفع الاستعمار أن تبغض أهله وأن تقاطعهم على الطريقة الفطرية التي تقف عند فصم العلائق وكف التحيات إلى أن يفصل القتال. لا، فهناك وسائل سلمية لدفع الاستعمار: هي أن تعرف أهله وتقف على أسرارهم في العلوم والفنون والآداب، وتفهم من أين يطمعون فيك وكيف يتيسر لك أن تصدهم عنك. فإن عرضت لك هذه الفرصة ثم وليتها جانب زهدك، فأنت آثم في حق نفسك وفي حق وطنك، ثم لا تكون زهادتك في الوقوف على ما لديهم، وكف بعض أطماعهم إلا مغرية بأن يتواصلوا عليك ويمدوا لك في غفلتك قانصات الأشراك!

على أن المستشرقين لا يستطيعون أن يقضوا أعمارهم جميعاً وهم أدوات استعمارية، فإن بداية الاستشراق أن يرغب الشاب الأوروبي في عمل يعيش منه في المستعمرات. ومن أجل هؤلاء الشبان أنشأت الممالك الكبرى في أوروبا مدارس خاصة بتعليم اللغات الشرقية الحية كالعربية والفارسية، والمتخرجون في مدارس اللغات الشرقية يستخدمون غالباً في السفارات ومكاتب الترجمة وبعض مناصب التدريس. وقد يقف أكثرهم عند الهمة التي تنفعه في المعاش.

ولا يقف حياته على درس الشرق وآدابه وعلومه إلا طائفة قليلة سَمَتْ بها الهمة إلى مطامح الرجال.

وهؤلاء يتحولون مع الزمن إلى علماء -بكل ما تؤدي هذه الكلمة من معنى- وتكون النتيجة أن تضعف فيهم النزعة الاستعمارية وتغلب عليهم النزعة العلمية. وأريد بهذا أنهم يصبحون من دعاة المجد الشرقي ومن أنصار حضاراته وتقاليده – ودياناته أيضاً - فمن عرف شيئاً أحبه، ومن جهل شيئاً عاداه.

ومن دلائل هذا الميل الخالص انكباب كثير من المستشرقين على مسائل نظرية بحتة لا تقدّم ولا تؤخّر في خدمة الاستعمار. فقد يتّفق لكثير منهم أن يشغل بدرس الفروق بين مذاهب البصريين والكوفيين ويقضي أعواماً في جمع المصادر وطبع بعض النصوص واستفتاء العلماء، واستنطاق بعض القبائل، وتوجيه ما اختلف من اللهجات، إلخ. إلخ. أفيظن القارئ المنصف أن مثل هذا العمل لا يخلو من نزعة استعمارية؟ أنا لا أتصوّر ذلك. وإنما أفهم أن مثل هذا الباحث تحولت حماسته إلى نشاط خصب يمضي به إلى آفاق الابتكار والابتداع في مسائل دقيقة لا يعرض لها العلماء إلا حين تصفو نفوسهم من شوائب الأغراض.

قالوا: وللمستشرقين أغلاط! وهذا صحيح. وأكثر ما يعرض لهم الغلط حين يقصدون إلى شرح النصوص. فإن اللغة العربية كسائر اللغات لها دقائق لا يدركها إلا أهلها الأقربون. وكبار المستشرقين لهم أغلاط مضحكة في فهم المعاني الشعرية.

وإنما ذكرت هذين الشاهدين من أغلاط المستشرقين؛ لأنهما يُقَيِّمانِ حجتين؛ فالشاهد الأول وقع في كتاب **معجم الأدباء** الذي نشره المستر «مرجوليوث». ومن الممكن أن نتعقب أغلاط مصحح ذلك الكتاب فتراها تعدّ بالعشرات.

ولكن أين تلك الأغلاط وأين يقع شرها بجانب الفضل العظيم الذي أسداه المستر «مرجوليوث» إلى لغة العرب حين نشر ذلك المعجم في سبعة مجلدات وقضى في تحقيقه السنين الطوال؟

إن طبع معجم الأدباء ونشره على تلك الصورة الجميلة لَيُعَدُّ منقبة تصغر بجانبها منكرات الأغلاط عند من يُقوِّمون أعمال الرجال.

والشاهد الثاني وقع في نفح الطيب، ولو مضيت أحاسب مصححي ذلك الكتاب لعثرت لهم على أغلاط أقبح وأشنع. ولكن ما قيمة تلك الأغلاط بجانب الجهد الذي بذل في تنظيم كتاب يُعَدُّ المصدر الأول لأدب الأندلس؟.. لقد طبع هذا الكتاب في مصر طبعة يغلب عليها التحريف. وظل إلى اليوم بلا فهرس يجمع أطرافه ويمكّن الباحثَ من الوصول إلى ما فيه من دفائن الأدب والتاريخ. وقد اكتفى أولئك المستشرقون بطبع الجزء الأول والثاني وسكتوا عن الثالث والرابع. لأن الجزأين الأخيرين قصرا على نقطة واحدة هي حياة «لسان الدين بن الخطيب». أما الجزآن الأولان ففيهما مراجع وافية لما شغل به الأندلسيون من الأدب والفلسفة والتشريع.

قالوا: وللمستشرقين أخطاء في شرح قواعد الإسلام! وهذا أيضاً صحيح، فلكثير منهم فضول لا يجمل بالعلماء. وخاصّةً حين يتحدثون عن حياة الرسول. فلهم نظرات إلى حياته المنزلية والاجتماعية والتشريعية تدل على أن فريقاً منهم يخدم بعض الهيئات الدينية!

والعيب الأكبر أن يصبح العالم أداة للدعايات المختلفة تُصَرِّفُه كيف تشاء، وتصبغ أسلوب تفكيره بمختلف الألوان. وأنا في هذه النقطة أوافق مُنَاظري المفضَال وألعن الزمن الذي صارت فيه المادة إلهاً يعبد ويطاع، ولكن في هذا أيضاً ما يقيم حجتي، وهو عجب عجاب! وإلى القراء بعض البيان:

إن خصوم الإسلام من المستشرقين خدموا الإسلام بخصومتهم أجَلَّ الخدمات. فقد عمدوا إلى القرآن والحديث فطبعوا كل ما يتصل بهما

من جيد المؤلّفات، وفهرسوها وبوّبوها ورتّبوها ترتيباً تعجز عنه مشيخة الأزهر الشريف. والمسيو «فنسنك»، الذي تعقبه صديقنا الدكتور «حسين الهرواي» ورماه بسوء التهم والنية -هذا الرجل نفسه خدم الإسلام بكتابه في الأحاديث النبوية. ولنفرض جدلاً أنه لم يقصد وجه الحق بنشر كتابه ذاك فإن هذا لا يمنع أنه خدم الإسلام من حيث لا يريد، وهل هناك خدمة أَجَلّ من نشر الآثار الإسلامية في الأقطار الأوروبية والأمريكية؟ إن هذه الخدمة كانت تنتظر من المسلمين أنفسهم، فغفلوا عنها وتركوا الأجانب يتصرفون في تراثهم بما يشتهون... أضيف إلى ذلك، أنّ حياة الأفكار في تقليبها وترديدها وتغشيتها بألوانٍ من القيل والقال. والإسلام يستفيد ممن يتحدثون عنه بالشر كما يستفيد ممن يذكرونه بالخير. وآفة الفكرة أن تُهْمَلَ وأن يسكت الناس عنها فلا يتناولونها بحمد ولا ملام. وقد كنت وأنا في باريس أغار من المطبوعات الكثيرة التي تذاع عن البوذية وخرافاتها وأساطيرها. وأتمنى لو رزق الإسلام أناساً يدورون حوله فيذيعون من فضائله ومن سيئات أهله ما يقيم له وجوداً ذهنيًّا وروحيًّا في تلك البلاد التي يتطلع أهلها بفضل حيويتهم إلى كل طريف!

أفهمتم الآن أن أسوأ جانب في حياة المستشرقين لا يخلو من خير ونفع؟

وأضيف إلى كل ما سلف أن المستشرقين سبقونا إلى الدراسات الأدبية والإسلامية بنحو ثلاثة قرون. والباحث الجاد في مصر والشرق لا يستطيع الفرار من بحوثهم التي تطالعه من كل جانب. أليس من المخجل أيها الناس أن نحدثكم بأن الأزهر الذي يعد معقل الإسلام لم يعرف أهله كيف يدرس التاريخ الإسلامي إلا منذ سنوات معدودات؟ أليس من العار أن نحدّثكم بأنّ عدد الطلبة في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية أقل من عدد الطلبة بقسم اللغة العربية في السوربون؟ أليس من الفضيحة أن أخبركم أني كنت أجد بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية في باريس مصادر عربية مطبوعة لم أجد لها ظلاًّ في دار الكتب المصرية؟

أنا رجل أعيش في ضوء الحكمة التي تقول: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد». وكل مناي أن أصبح حجة في اللغة العربية على نحو ما يكون الباحث الأوروبي

حجة في لغته القومية. وليس لدي ما يمنع من الاعتراف بأن أثر المستشرقين أبقى في ذهني وأوضح، وأن فضلهم عليّ أظهر وأرجح. ومن النصيحة لأمّتي أن أشير بتأثير خطوات المستشرقين في غير زيغ ولا ضلال. ولا ننسى أنّ المستشرقين ناس لهم مطامع ولهم أهواء، وأكثرهم لا يتّصل في بلده بغير وزارة المستعمرات، فهم ليسوا ملائكة ولا قدّيسين، وإنما هم بشر مثلكم يخطئون ويصيبون، وخطؤهم أبقى أثراً في أذهان الناس؛ لأن لهم من وسائل النشر ما لا يملك الشرقيون.

وبعد، فأنا لا أهوّن أغلاط المستشرقين، ولا أدعو إلى متابعتهم في غير بصيرة ولا روية، ولكني أجزم بأن أعمالهم أدخلت كثيراً من عناصر الحيوية في الدراسات اللغوية والإسلامية. وليس في الدنيا شر خالص، وإنما النفع في أعمال هؤلاء الباحثين أقوى وأغلب.

الفصل الثاني

أضرار الاستشراق

يستند مناهضو الاستشراق على عددٍ من الأدلّة والمعطيات في رفض الاستشراق ونقد أفكاره ومناهجه. وتستند هذه المواقف إلى تحليل الأبعاد الفكريّة والاجتماعيّة والدينيّة التي يعالجها الاستشراق مع بيان تهافت أدلّته وفساد منهجيّته وتحامل أعلامه على الشرق وعلى الإسلام.

وسنفصّل في هذا الفصل المحاور التي تمّ عبرها نقض الاستشراق. فيشكل البعد الديني أعمق هذه المحاور وأهمّها بالنسبة للعرب والمسلمين، وفيه يتمّ الربط بين الاستشراق وبين الأحقاد الدينيّة ضد الإسلام، تبعاً للأصول الصليبيّة للاستشراق واستغلال الصهيونيّة له واستخدامها إياه أداةً في الترويج لسياساتها الاستعماريّة. وهنا يظهر الربط بين الاستشراق وبين السياسات الاستعمارية والإمبرياليّة الغربيّة. كما يتمّ نقد منهجيّة تعامل الاستشراق مع الدراسات التاريخيّة الإسلاميّة وأساليبه في التعاطي مع الدراسات الاجتماعيّة للمجتمعات الإسلاميّة. لذا سنقوم بإفراد كلّ محورٍ من هذه المحاور في مبحثٍ مستقلٍّ. ونلاحظ أنّ مناهضي الاستشراق لا ينسبون إليه كلّ شرٍّ وكلّ خطيئة، بل يميّزون بين المستشرقين ويجعلون شرورهم أغلبيّة لا كلّيّة، وهو ما سيظهر صراحةً في كلام بعضٍ منهم.

المبحث الأول

أداة فسادٍ وإفساد

يشكّل الاستشراق أجلى صورة للحقد الديني ضدّ الإسلام، ويعمل المستشرقون على إفساد المسلمين وإبعادهم عن دينهم عبر بثّ الشبهات وتحوير الحقائق. ويتستّرون في أعمالهم هذه بالموضوعيّة والحياد العلمي، وما هي إلا ادّعاءات ومزاعم تخفي حقيقة نواياهم الخبيثة وأهدافهم المقيتة.

هكذا يصف الكثير من مناهضي الاستشراق آثار الاستشراق ودوافعه. وقد اخترنا لهذا التعليل عدّة مقالات تعرض هذا الموقف وتصف أبعاده. فقد نشر الأستاذ «عبد اللطيف الشويرف» مقالة في مجلّة جوهر الإسلام الصادرة في تونس عام 1973، جعل فيها أعمال المستشرقين ستاراً وهمياً من البحث العلمي والتجديد بينما هي في الحقيقة أداة هدّامة للفكر الإسلامي. وأردفناه بفصل مستخلَص من كتاب صدر عام 1990 لـ«سلطان عبد المجيد سلطان» عرض فيه دوافع الاستشراق جاعلاً إيّاه إحدى الأدوات الثلاثة للهجوم الغربي ضد الإسلام إلى جانب التبشير والعلمانية. ثم أتبعنا ذلك بمقال لـ«محمّد السمّان»، عرض فيه الوجه القبيح للاستشراق وبيّن فيه أسباب تحامل المستشرقين على الإسلام والعرب حيث أرجعها بشكلٍ رئيس إلى الأحقاد الدينية، مركّزاً على الأهداف الاستعمارية للصهيونية العالميّة. كلّ هذا يُظهر لنا بجلاءٍ «تآمر المستشرقين على الشرق» كما يصرّح «جلال مظهر» في المقال الأخير من هذا المبحث حيث ضرب أمثلة عديدة على هذا «التآمر» و«التحامل».

أخطار الاستشراق وكيف نواجهها

بقلم: «عبد اللطيف الشويرف»

تولى المستشرقون كِبْر الغزو الفكري الهدّام الذي اجتاح بلادنا الإسلامية في موجاتٍ متعاقبةٍ. وحملوا خطر معاول التّدمير لمقوّمات وجودنا، وأكثرها تأثيرا في تخريب نفوس أجيالنا. وحاولوا بكل الطرق أن يفقدونا الأرض التي نقف عليها، ويذيبوا شخصيّتنا الإسلامية بكل وسائل التميع والإذابة.

إنهم سببٌ رئيسي من أسباب أخرى فيما نراه اليوم من ضعف العقيدة والإيمان في نفوس المسلمين، وما نلاحظه عالقاً في أجوائنا الإسلامية من غبار الشبهات وضباب التضليل، وما يعانيه شبابنا من جهل بالإسلام، واهتزاز الثقة بالنفس وانقطاع الارتباط المتين بالشخصية والأصالة. إنّ سموم الاستشراق قد تسربت بشكلٍ مرعب وخطير إلى عقول الكثيرين من مثقفي المسلمين ومتعلميهم، وتمكنت من أن تغرس فيها الزيف والتحريف بطرق خفية تتوارى تحت أسماء المنهجية في البحث والحرية في التفكير والرغبة في التطور والتجديد، واستطاعت أن تفصلها عن منابتها الأولى وتقطعها عن منابع ثقافتها الأصلية، بما صنعته من خلخلة في النّفوس وإفراغٍ لها من مقومات الحصانة والمناعة وانتزاع أسباب المقاومة والثبات منها.

وإذا كان هناك قلة من المستشرقين قد ارتفعوا فوق الأحقاد الصليبية الموروثة، وتمرّدوا على العداء التقليدي الغربي للإسلام والمسلمين، وتوخّوا الصّدق والحقّ فيما كتبوا عن الإسلام وتاريخ حضارته العظيمة؛ فإن هذه القلة - التي نُكْبِرُ فيها حيادها وخلقها وروحها العلمية، ونذكر فضلها بإنصاف لأنها أنصفت الحقيقة - لم تغيّر من وجه الاستشراق القبيح في عمومه، ولم تستطع أن تبدّد بنور النزاهة الذي حملته شدّة الظلام في الجانب الآخر من الاستشراق.

إنّ بعض المستشرقين كانوا مدفوعين بالغرض العلمي، ومتخلّصين من داء التعصّب العميقةِ جذورُه في الحياة الأوروبية - وسواء أكان ذلك من أجل أممهم أم من أجل الحقيقة نفسها - فهم جديرون بالاحترام والتقدير، ونحفظ لهم الجميل على ما أسهموا به من إثراء ثقافتنا، وما قاموا به من جهود في التعريف بعلمائنا ونشر مخطوطات ثمينة كانت قابعة في زوايا الإهمال والنسيان وتأكلها الرطوبة والأرضة، وذلك مثل «جوستاف لوبون»، الذي أنصف الحضارة الإسلامية، و«رينو»، الذي ترجم جغرافية أبي الفداء، و«دوزي»، الذي كتب عن الحضارة العربية الإسلامية في إسبانيا، و«سيدويبو»، الذي أمضى حياته في سبيل أن يحقق للفلكي المسلم «أبو الوفاء» لقب المكتشف للقاعدة الثانية لحركة القمر، ومثل «آسين بلاتيموس»، الذي كشف عن المصادر العربية للكوميديا الإلهية، و«دوسلان»، الذي ترجم مقدمة «ابن خلدون» و«بلاسكوبانيز» الذي قال عنه المرحوم «العقاد»: إنه قال في كتابه **تحت ظلال الكنيسة** ما لا يزيد عليه المسلم شيئاً في فضائل التاريخ الأندلسي، وغير هؤلاء ممن كتبوا عن الإسلام وتاريخه وشخصياته بالروح العلمية المبرّأة من التعصب والحقد.

ومن رأي أستاذنا الكبير «مالك بن نبي» أنّ المستشرقين الذين مدحوا الحضارة الإسلامية وأشادوا بمآثرها وعظمتها، لهم من الجانب الإيجابي المنصف للحقيقة جانب آخر سلبي، ذلك أنّهم كانوا بهذا المدح والإطراء عامل تخديرٍ للمسلمين وهدهدة لعواطفهم، حيث ربطوهم بالحياة في ظلال الماضي المجيد، وأثاروا في نفوسهم نشوة الفخر والاعتزاز بتاريخهم وخلقوا لهم جواً من الخيال يستمتعون بالتحليق فيه، دون أن يساعدوهم على تجاوز واقعهم القاسي، أو يفيدوهم في رؤية حالهم التعيس المنهار، فكان مديح المستشرقين وإطراؤهم على ذلك لا يقل خطراً عن هجومهم وكتاباتهم المغرضة الحاقدة، وطعنهم المتعمد لمبادئ الإسلام وتاريخ حضارته.

ولكن لا ننسى أنّ محاولة الهروب من الواقع المظلم إلى رحاب الماضي المضيء، والافتخار بعظمة الأجداد وأعمالهم البطولية، هو سلوك كل إنسان متخلّف، ونوع من التعويض اللا إرادي عن عقدة الشعور بالنقص، وهي علامة عامة على روح التخلّف أكثر منها انعكاساً لكتابات المطربين والمادحين من المستشرقين، بدلالة أن نفس هذه الظاهرة تحدث نتيجة لكتابات المسلمين أنفسهم حين يمجدون تاريخهم ويتغنون بمجد ماضيهم. فهؤلاء الكتّاب المسلمون ينجذبون قبل غيرهم إلى سحر الماضي، ويدافعون عن أنفسهم وأمّتهم بحجج ووقائع من تاريخهم، كأنّهم بذلك يهربون من الواقع المزري، ويتخلصون من وصمة التخلف التي تلاحقهم في كلّ شيء، وكأنما يشعرهم اللجوء إلى الماضي باطمئنان عارض هو في حَدٍّ ذاته اطمئنان مخدر يندرج تحت الحالات المرضية للمجتمع المتخلف.

وعلى ذلك فإني أرى أن الاهتمام بموضوع الاستشراق يجب أن يتّجه أساساً إلى جانبه المتحامل الحاقد الذي يمتلئ حتّى حافته بالسموم وتندس في ثناياه معاول الهدم والتخريب. وهو الجانب العام الغالب، الذي يشمل معظم أعمال المستشرقين ويكون السمة العامة للاستشراق.

الآثار الخطيرة للمستشرقين

الآثار الخطيرة لأعمال المستشرقين كانت ذات اتجاهين:

الاتجاه الأول: تمثل في تشويه الإسلام وتاريخه وتلفيق الافتراءات عليه في المجتمع الغربي والمسيحي بصورة عامة. إن الأوروبي كوّن تصوره عن الإسلام من خلال كتابات المستشرقين وتضليلهم، وأطلّ على العالم الإسلامي بنظرة المتحاملين الذين أوهموا قومهم بأن المجتمع الإسلامي هو مجتمع قصص ألف ليلة وليلة، مجتمع الهمجية والتأخّر

والعنف والقسوة. وقد استغل المستشرقون في تشويه صورة الإسلام وأهله الكراهية الموروثة في أوروبا للإسلام من عهود الحروب الصليبية، والتعصب الديني الذي زاد المستشرقون في تعميقه، وغذوه بالأباطيل التي اختلقوها عن الإسلام ونبيه وأتباعه.

وعلى الرغم من أن المستشرقين خاطبوا العقل الأوروبي في حملاتهم ضد الإسلام بسذاجة الأفكار وبالجهل المطبق، وبالتناقض الواضح البين مع أيسر قواعد التكوين البشري والطبيعة الإنسانية وحقائق الأشياء، وبالأوهام الخيالية التي يصعب تصديقها أو يستحيل التسليم بها أحياناً، على الرغم من هذه السطحية والجهل والسذاجة، فقد أثّرت هذه الحملات الحاقدة في نفوس القوم، وتقبلوها على أنّها حقائق مسلَّمة، وانعكست هذه الانطباعات في إنتاجهم الأدبي والفني والسينمائي بصورة خاصة.

وكان الغرض من وراء هذا التشويه لحقيقة الإسلام والمسلمين -إلى جانب الموقف الشخصي العدائي المعروف- تنمية عقدة الامتياز عند الأوروبي، وإشعاره بالتفوّق والاستعلاء وإقناعه بحقه في استعمار الشعوب الإسلامية، وبرسالته في السيطرة عليها وإخضاعها وعلاجها من تأخرها بإيصال نور الحضارة الغربية إليها كما يزعمون.

إنّ المستشرقين أسهموا في شحن قومهم بالروح الاستعمارية بإظهار العالم الإسلامي والمسلمين بمظهر المتأخّر المنهار المنحطّ، ليوحوا إليهم بأنهم رسل العناية لهؤلاء المساكين وهو دور يسجلّه تاريخ الاستعمار للمستشرقين.

الاتجاه الآخر: وتمثَّل في غزو المسلمين أنفسهم، وتدميرهم من الداخل، وتحطيم كلّ مقومات وجودهم وشخصيتهم. وهذا هو الخطر البالغ للمستشرقين والآفة اللعينة التي أصبنا بها واستشرت في مجتمعاتنا الإسلامية كالورم الخبيث،

وكان لها من الآثار السيئة ما نعانيه اليوم من ضعف في العقيدة، وهزالة في الشخصية، ومن مآس وهزائم وانكسارات نتجرع كؤوسها المرّة الواحدة تلو الأخرى.

إنّ لعنة المستشرقين تكمن في تأثيرهم على أبناء المسلمين، وحقنهم بأفكارهم وآرائهم وانحرافاتهم، واتخاذهم أبواقاً تروّج لافتراءات أساتذتهم وأغراضهم الخبيثة.

إنّ تلاميذ المستشرقين هم الذين حملوا جرثومة الفساد الاستشراقي، ومكّنوا لها من النمو والانتشار. هم الذين تبَنَّوا أحقاد المستشرقين وأفكارهم ونابوا عن أساتذتهم في هدم كيان الأمة ومبادئها وقيمها، وفي الدعوة إلى فكر الغرب وحضارة الغرب والافتتان بكل ما يأتي من الغرب.

وقد وصل تأثير المستشرقين فينا إلى حدّ اعتبار كتبهم وآرائهم المراجع الأساسية لطلبتنا الذين يتلقّون الدراسات الإسلامية في جامعات أوروبا وأمريكا، والمصادر التي يعدّون منها رسالاتهم للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراة وتلك قمة المأساة الفكرية، ومنتهى الإذلال والمهانة، وغاية الضعف والانهيار في شخصيتنا الثقافية.

إنّها لمهزلة المهازل أن يتلقى طلبتنا ثقافتهم الإسلامية في جامعات الغرب، وعلى أيدي يهود يحتلون معظم كراسي الأستاذية في الدراسات الإسلامية. وليت الأمر يقف عند هذا الحدّ الشكلي حتى نقول: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا، ولكنهم لا يلقنونهم الإسلام الصحيح كما أراده الله وارتضاه، ولا يدرسونه لهم من منابعه الصافية وأصوله الثابتة، وإنّما يلقّنونهم الإسلام من خلال أفكار المستشرقين وأباطيلهم ودسائسهم، ويربطون أبحاثهم بالمصادر التي ألّفها المستشرقون بحقدهم وتعصبهم، حتى إذا ما عاد أبناؤنا هؤلاء إلى بلادهم حاملين الشهادات

العليا، تولّوا المناصب الرفيعة في الجامعات والمعاهد، واحتلوا مراكز التوجيه الثقافي والتعليمي، وأفرزوا ما تلقوه من الغرب من سموم باسم التقدمية والتجديد والحرية في البحث، وكانوا على أمّتهم أشدَّ بلاءً ومحنة من المستشرقين أنفسهم، وأكثر خطراً وتخريباً لعقول الناشئة والشباب، إلا من حفظ الله.

والأمثلة على سموم المستشرقين التي انتقلت إلى أجيالنا وبيئتنا الإسلامية عن طريق تلاميذهم الذين صنعوهم على أعينهم، كثيرة متنوعة، ويمكن الحكم بأن كل دعوات التشكيك في الإسلام والطعن في مبادئه، وتشويه تاريخ الحضارة الإسلامية، وكذلك الدعوات إلى الفرعونية والفينيقية والآشورية وأمثالها، والدعوة إلى الانسلاخ عن الماضي والتراث والارتماء في أحضان الحضارة الغربية واتّخاذها المثل الأعلى في الحياة، والدعوة إلى إضعاف لغة القرآن الكريم.

الدوافع وراء أعمال المستشرقين

ما الذي جعل المستشرقين عامّةً منذ بدأ الاستشراق حتى الآن، يتحاملون بتعمّد على الإسلام والمسلمين، ويبذلون الجهود الكبيرة التي تستغرق حياة بعضهم لطعن الإسلام وتشويهه وتزييف تاريخ حضارته والنيل من كتابه القرآن الكريم ورسوله العظيم ﷺ، بكل ما أوتوا من وسائل الطعن والإساءة والتحريف والهزء والسخرية؟

لذلك أسباب ودوافع، وهي أسباب تكشف عن أسوأ ما في الإنسان من مشاعر مريضة ونفسية حاقدة، ودوافع تتنافى مع أيسر قواعد العلمية وأصول البحث. يختلط بهذه الأسباب والدوافع جهلٌ بالحقائق، وسطحيةٌ في التفكير، وسذاجةٌ في النظر إلى الأمور تصل أحياناً إلى درجة السُّفْه والعباطة. ونوجز فيما يلي أبرز تلك الأسباب:

الحقد الصليبي:

تتلوّن نظرة المستشرقين إلى الإسلام في معظمها بالحقد الصليبي الأسود الذي يرجع عهده إلى الحملات الصليبية المعروفة. إنّ الكره للإسلام نشأ في أوروبا منذ تلك الفترة، إذ عمل قادة الحملات الصليبية على تسميم العقل الأوروبي وتعميق مشاعر الحقد في نفسه ضد المسلمين كتهيئة وإعداد نفسي للحملات.

إنّ المستشرقين تأثّروا بهذا الجو العام، إلى جانب أنّ الاستشراق بدأ أساساً بالرهبان الذين قصدوا الأندلس وتعلموا في مدارسها وترجموا القرآن الكريم والكتب الإسلامية إلى لغاتهم.

إنّ انطلاقة الاستشراق من الكنيسة زاد في تغليفه بالدوافع الدينية، وشحنه بأسباب التعصب والحقد الصليبي.

يقول الأستاذ «محمد أسد»، وقد كان مستشرقاً نمساويًّا شرح الله صدره للإسلام، وهو أَعْرَفُ من غيره بنفسية المستشرقين وأدرى بدوافعهم وأحقادهم:

«لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب، كما هي الحال من موقفه من سائر الأديان والثقافات غير الإسلام، بل هو كره عميق الجذور، يقوم في الأكثر على حدود من التعصّب الشديد. وهذا الكره ليس عقليًّا فقط، ولكنه أيضاً يصطبغ بصبغة عاطفية قوية.

قد لا تقبل أوروبا تعاليم البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متّزن ومبنيٌّ على التفكير. إلاّ أنّها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب. حتّى أن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام. ويظهر في مجموع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي، بل إنه متّهم يقف أمام قضائه. إنّ بعض المستشرقين يمثّلون دور المدّعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم

مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له، مع شيء من الفتور، اعتبار الأسباب المخففة.

وعلى الجملة فإنّ طريق الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكّرنا بوقائع دواوين التفتيش. تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى، أي أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرّد وبدون تحزّب، ولكنّها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاجٍ مُتَّفَقٍ عليه من قبل قد أملاه عليها تعصّبها لرأيها».

فالتعصّب الديني الصليبي قد أوغر صدور القوم حتى جعلهم ينظرون إلى الإسلام بأفكارٍ وأحكامٍ مسبقة يتصيّدون لها الشواهد المفتعلة، ويتكلّفون لها الأدلّة المتعسّفة المغالطة. وهذا وحده كافٍ لنسف كل أفكارهم وآرائهم عن الإسلام، لأنها تتعارض مع الروح العلمية، وتتناقض مع مناهج البحث التي تقتضي أن يدخل الباحث إلى موضوعه متجرداً من كل عاطفة شخصية ومن كل رأي مسبق، متوخياً الوصول إلى الحقيقة مهما كانت مصطدمة مع معتقداته، يستوي في التسليم بهذه الحقيقة العلمية المسلم وغير المسلم؛ لأنها من البديهيات الأولية التي لا تحتاج إلى نقاش.

دوافع الاستشراق

بقلم: الدكتور «سلطان عبد الحميد سلطان»

1 - الدافع الديني التبشيري

إن الدافع الديني للاستشراق كان يسير منذ البداية في اتجاهاتٍ ثلاثةٍ متوازيةٍ تعمل معاً جنباً إلى جنبٍ، وتتمثّل هذه الاتجاهات فيما يأتي:

- (أ) محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه، وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية، والانتقاص من قيمته والحطّ من قدر نبيِّه ﷺ.

- (ب) حماية النصارى من خطره بحجب حقائقه عنهم، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

- (جـ) التبشير وتنصير المسلمين، وقد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن التبشير.

لقد بدأ هذا الاتجاه بالرهبان واستمر حتى عصرنا الحاضر. وهؤلاء كان يهمّهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه، ويحرفوا حقائقه، ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام - وقد كان يومئذ الخصم الوحيد للمسيحية في نظر الغربيين - دين لا يستحق الانتشار ولا التطور.

ومن كيدهم في هذا الصدد أنهم يحكمون على الإسلام دائماً من واقع المسلمين الحالي، فهم لا يصوّرون الإسلام من منابعه ومصادره، بل يصوّرونه من واقع المسلمين السيء، وهم يعمدون إلى اختيار البيئات الإسلامية التي نالها أكبر قسط من الضعف والهزال، ويجعلونها نموذجاً للإسلام[1]. وقد نسي هؤلاء الحاقدون أن المسؤول عن هذا الواقع السيء للمسلمين هو عدم تمسّكهم

(1) «علي حسن خربوطلي»: المستشرقون ص/83.

بالإسلام وبعدهم عنه من جهة، واستنزاف الاستعمار لخيراتهم وتخريبه لقيمهم وثقافتهم الأصلية من جهة أخرى.

وغاية الدراسات الاستشراقية هي خلق تخاذل روحي، وشعورٌ بالنقص في نفوس المسلمين، وغيرهم من الشرقيين، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخنوع للمدنية المادية الغربية الحديثة[1].

وإذا كان الهدف الديني لم يعد ظاهراً الآن في الكثير من الكتابات الاستشراقية، فليس معنى ذلك أنّه قد اختفى تماماً. إنه لا يزال يعمل من وراء ستار بوعي أو بغير وعي، فمن الصعب على معظم المستشرقين النصارى - المشتغلين بدراسة الإسلام - وأكثرهم متدينون، أن ينسوا أنّهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في النصرانية، ويهاجمها، ويفنّدها، مثل عقيدة التثليث، وعقيدة الصلب والفداء، كما أنه من الصعب عليهم أيضاً أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها[2].

يقول «نورمان دانييل»:

«على الرغم من المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين (المستشرقين) في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية لكتاب النصارى من الإسلام، فإنّهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تامًّا»[3].

وليس حكمنا هذا عامًّا على جميع المستشرقين، فهناك فريق منهم حاول جاهداً الالتزام بالحيدة الموضوعية، وأنكر على كثير من زملائه نزواتهم التي انحرفت بهم

(1) «مصطفى خالدي» و«عمر فروخ»: التبشير والاستعمار ص25/24. وانظر كذلك: د/«مصطفى السباعي»: الاستشراق والمستشرقون ص/16.

(2) «إبراهيم اللبان»: المستشرقون والإسلام ص/34.

(3) د/«إسحاق موسى الحسيني»: الاستشراق ص/15-17 (محاضرة في الموسم الثقافي للأزهر).

عن النزاهة العلمية، وسيتّضح هذا عند حديثنا عن أصناف المستشرقين باعتبار مواقفهم من الإسلام.

ويهدف الدافع الديني لدى المستشرقين إلى ما يلي:

1 ـ تشكيك المسلمين في دينهم، وقرآنهم وشريعتهم، وفقههم، ففي ذلك هدفان ديني واستعماري.

2 ـ تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان. وإذا تحدثوا بشيء من حسناتها - وقليلاً ما يفعلون - يذكرونها على مضضٍ مع انتقاصٍ كبير.

3 ـ إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبثُّ روح الشكّ في كل ما بين أيدي المسلمين من قيم وعقائد ومُثُلٍ عليا، ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم، ونشر ثقافته الحضارية بينهم.

4 ـ إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم، وكذلك يفعلون في البلاد العربية، يجهدون لمنع اجتماع شملها، ووحدة كلمتها بكل ما في أذهانهم من قدرة على تحريف الحقائق[1].

2 - الدافع الاستعماري

لما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين، وهي في ظاهرها حروب دينية، وفي حقيقتها حروب استعمارية، لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد العرب فبلاد الإسلام. فاتّجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقيدة وعادات، وأخلاق وندوات، ليتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموها. ولما تمَّ لهم الاستيلاء العسكري، والسيطرة السياسية، كان من دوافع

(1) د/«مصطفى السباعي»: الاستشراق والمستشرقون ص24.

تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا، وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما بأيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية. فنفقد الثقة بأنفسنا، ونرتمي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقية، والمبادئ العقائدية. وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعاً لا تقوم لنا من بعده قائمة.

انظر إليهم كيف يشجعون في بلادنا القوميات التاريخية التي عفى عليها الزمان، واندثرت منذ حمل العرب رسالة الإسلام، فتوحدت لغتهم، وعقيدتهم وبلادهم، وحملوا هذه الرسالة إلى العالم فأقاموا بينهم وبين الشعوب روابط إنسانية وتاريخية وثقافية، ازدادوا بها قوة، وازدادت الشعوب بها رفعة وهداية، إنهم ما برحوا منذ نصف قرن يحاولون إحياء الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين، والآشورية في العراق وهكذا. ليتسنى لهم تشتيت شملنا كأمة واحدة[1].

وقد ظهرت تلك الأهداف الاستعمارية واضحة جلية، واتسع مداها باتساع رقعة الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين، واضطرت الدول الاستعمارية أن تعلّم موظفيها في المستعمرات لغات تلك البلاد، وأن تدرس لهم آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسون هذه المستعمرات ويحكمونها.

3 - الدافع التجاري والشخصي

وقد ظهرت تلك الدوافع في عصر ما قبل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد كان الغربيون مهتمين بتوسيع تجارتهم والحصول من بلاد الشرق على المواد الأولية لصناعاتهم التي كانت في طريقها للازدهار، ومن ثم ترويجها وتصريفها في بلاد العالم الإسلامي. ومن أجل هذا وجدوا أن الحاجة ماسة للسفر إلى البلاد الإسلامية للتعرف عليها، ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية، حتّى يحسنوا التعامل مع تلك البلاد،

(1) د/«مصطفى السباعي»: الاستشراق والمستشرقون ص/17 وكذلك: «علي جريشة»: أساليب الغزو الفكري ص22.

وتحقيق ما يصبون إليه من وراء ذلك من تحقيق فوائد كثيرة تعود على تجارتهم وصناعتهم بالخير العميم[1].

ولذلك كانت المؤسسات المالية والشركات، وكذلك الملوك في بعض الأحيان يزوِّدون الباحثين بما يحتاجون إليه من مال. كما كانت الحكومات المعنية تمنحهم الرعاية والحماية[2].

ودخل بعض الغربيين ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية، كما دخل بعض هؤلاء هذا الميدان عندما قعدت بهم إمكاناتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى، وبمعنى آخر لتغطية عجزهم الفكري[3].

4 - الدافع العلمي:

ومن المستشرقين نفرٌ قليلٌ جدًّا أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها. وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأً في فهم الإسلام وتراثه، لأنهم لم يكونوا يتعمّدون الدَّسَّ والتحريف. فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل إنّ منهم من اهتدى إلى الإسلام، وآمن برسالته.

على أن هؤلاء لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص، لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقى رواجاً، لا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامّة الباحثين، ومن ثمَّة فهي لا تدرُّ عليهم ربحاً ولا مالاً، ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين[4].

(1) د/ «محمود حمدي زقزوق»: الاستشراق ص/74.

(2) انظر د/ «عبد الفتاح عليان»: أضواء على الاستشراق ص/28.

(3) «عمر عودة الخطيب»: لمحات في الثقافة الإسلامية ص/198.

(4) د/ «مصطفى السباعي»: الاستشراق والمستشرقون ص/19.

الاستشراق والتبشير

لم يكن عمل المستشرقين منفصلاً عن عمل المبشرين. فالاستشراق في نشأته ما هو إلا أداة من أدوات التبشير. وقد نزل كثير من أساقفة الكنيسة الكاثوليكية إلى ميدان الاستشراق بقصد التبشير، وتدريب المبشِّرين على العمل في بلاد الشرق. لهذا كان لا بدَّ من تكليف مبعوثيهم بتعلم اللغة العربية. فانتشر تعليمها في المعاهد الدينية، وبعض الجامعات، كما أنشئت مطابع عربية، وجمعت لهم الكتب، حتى أن مكتبة الفاتيكان في روما ضمَّت إليها مجموعات ضخمة من الكتب العربية المختلفة[1].

كان الهدف من دراسة رجال الدين التابعين للفاتيكان للغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية هو تخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين ويردون عليهم ببراهين من الكتب الإسلامية، وكذلك لتحقيق الكتاب المقدس، ولتدريب أدلَّاءَ يتخاطبون بالعربية للقيام على خدمة الحجاج من أصقاع العالم في الأراضي المقدسة. وقرّر الفاتيكان تعليم اللغة العربية إلى جانب اليونانية والدراسات الشرقية في مدارس إسبانيا، ومدارس الأديرة والكاتدرائيات. وفي القرن الرابع عشر الميلادي أنشئت كراسي للغة العربية في جامعات أوروبية كثيرة. وتم تكليف أساتذتها بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية ترجمة علمية، واستعانوا في الترجمة بمن يجيد العربية من النصارى واليهود، فكان هؤلاء يترجمون ترجمة حرفية، ثم يعيد رجال الدين صياغتها في أسلوب لاتيني رصين[2].

ظل الكاثوليك يتزعّمون مهمّة التبشير المقرون بالاستشراق حتّى القرن الثامن عشر الميلادي، ثمّ أسهمت معهم في هذا المجال الكنائس البروتستانتية في كلٍّ

(1) د/ «محمد عبد الفتاح عليان»: أضواء على الاستشراق ص24. وكذلك: د/ «محمد حمدي زقزوق»: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص27.

(2) «نجيب العقيقي»: المستشرقون 1/114-116.

من الولايات المتحدة، وإنجلترا، وألمانيا. وقد اتسع نفوذ المبشرين الأمريكان في الإمبراطورية العثمانية بين عام 1840- 1850م، وكثر تدخلهم في شؤون البلاد الإسلامية تنفيذاً لسياسة استعمارية. ولما عزفت الدولة العثمانية على التصدي لهم أثارت الولايات المتحدة أمام العثمانيين مشاكل كثيرة، صرفتهم عن أمر المبشرين وأعوانهم من المستشرقين[1].

وهكذا فليس من السهل فصل الاستشراق عن التبشير أو عن الدافع الديني بصفة عامة، فالدافع الديني كان هو السبب الأول في نشأة الاستشراق.

الاستشراق والاستعمار

لقد كان للمدّ الاستعماري في العالم الإسلامي دور كبير في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشّرق، وخصوصاً بعد منتصف القرن التاسع عشر. وقد أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقي. ومن ناحية أخرى كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها في تعزيز موقف الاستشراق. وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق، وفي مضمونه مع مرحلة التوسع الأوروبي في الشرق[2].

وقد شهد القرن التاسع عشر استيلاء المستعمرين الغربيين على مناطق شاسعة من العالم الإسلامي، وبعد الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامي كلّه تقريباً خاضعاً لنفوذ الاستعمار الغربي. واستطاع الاستعمار أن يجنِّد طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه، وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين. وهكذا نشأت رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار. وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا لأنفسهم أن يكون علمهم وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقيمه. وهذا عمل يشعر إزاءه

(1) «مصطفى خالدي» و«عمر فروخ»: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص/54.

(2) «نجيب العقيقي» 365/3 وما بعدها.

المستشرقون المنصفون بالخجل والمرارة. وفي ذلك يقول المستشرق الألماني المعاصر «إستفان فيلد»:

«... والأقبح من ذلك أن توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سَخَّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين. وهذا واقع مؤلم لا بدَّ أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكلّ صراحة»[1].

ومن بين الأمثلة العديدة لارتباط الاستشراق بالاستعمار:

المستشرق «كارل هينريش بيكر» (ت 1933م) مؤسِّس مجلة الإسلام الألمانية، الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في إفريقيا[2].

أما المستشرق «بارتولد» (ت 1935م) مؤسس مجلة عالم الإسلام الروسية، فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السياسة الروسية في آسيا الوسطى.

أما المستشرق «سنول هورجرونيه» (ت 1936م)، فهو عالم الإسلاميات الهولندي الشهير، والذي توجه إلى مكة في عام 1885م بعد أن انتحل اسماً إسلامياً هو («عبد الغفار»)، وأقام هناك ما يقرب من نصف عام. وقد ساعده على ذلك أنه كان يجيد العربية كأحد أبنائها، وقد لعب هذا المستشرق دوراً هامًّا في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق الهولندية في الهند الشرقية، وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في أندونيسيا[3].

وفي فرنسا كان هناك عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال إفريقيا.

---

(1) انظر د/ «محمود حمدي زقزوق»: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص/44 وكذلك: الإسلام في الفكر الغربي لنفس المؤلف ص/60.

(2) راجع: الدراسات الإسلامية في الجامعات الألمانية ص/31- 32 تأليف «بارت» وترجمة د/ «مصطفى ماهر».

(3) نفس المصدر ص/31.

فالمستشرق الكبير «دي ساسي» كان يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية اعتباراً من عام 1805م. وكان يستشار بانتظام في جميع المسائل المتعلّقة بالشرق من قبل وزير الخارجية، وفي حالات معينة من قبل وزير الحربية أيضاً.

أمّا المستشرق «ماسنيون» فإلى عهدٍ قريبٍ كان يعمل مستشاراً للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشؤون الإسلامية[1].

أمّا المصلحة البريطانية في العالم الإسلامي، فقد كان الدافع إليها بطبيعة الحال هو ممارسة السيادة البريطانية في الهند وغيرها من البلاد الإسلامية التي استولت عليها.

وقد كان اللورد «كيرزن» في أوائل القرن الحالي من أشد المتحمسين في إنجلترا لفكرة إنشاء مدرسة للدراسات الشرقية، باعتبار أنها تعد «جزءاً ضروريًّا من تأسيس الإمبراطورية»، وتساعد على الاحتفاظ بالموقع الذي نالته بريطانيا في الشرق. وقد تحولت المدرسة المذكورة فيما بعد إلى مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والإفريقية.

وقد كانت الحكومة البريطانية من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية ترسم سياستها في مستعمراتها في الشرق بعد التنسيق والتشاور مع فريق من المستشرقين الذين يقدمون لها الدراسات المطلوبة[2].

يقول الدكتور إبراهيم اللبان رحمه الله:

«... والواقع أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتِذة هذه الكليات (كليات اللغات الشرقية في أوروبا)، وإلى آرائهم يرجعون

(1) «إدوارد سعيد»: الاستشراق ص/146- 221.

(2) د/ «محمود حمدي زقزوق»: الاستشراق ص/46-47.

قبل أن يتخذوا القرارات الهامة في الشؤون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية. وقد سمعتُ أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامي فيذكر أن مستر «آيدن»[1] كان قبل أن يضع قراراً سياسيًّا في شؤون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين، ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرّر ما يقرّر في ضوء ما يسمعه منهم. هذا وإنَّ بعضهم كان يؤسّس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية، ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسّس في أثناء الحرب»[2].

(1) «إيدن»: رئيس الوزارة البريطانية سابقا وقد مر ذكره.

(2) «إبراهيم اللبان»: المستشرقون والإسلام ص/18، و«إدوارد سعيد»: الاستشراق ص/224.

أحقاد المستشرقين

بقلم: «محمد عبد الله السَّمَّان»

ليس من العدل في شيء أن نقول: إنّ كلّ المستشرقين الذين عنوا بالدراسات الإسلامية والشرقية، قد تقايؤوا أحقادهم ضد الإسلام والشرق. وإن كانت السّمة الغالبة على تفكير معظمهم هي محاولة فتح منافذ يتسرب منها الطعن في الفكر الإسلامي، والتهوين من شأن الثقافة الإسلامية، ويصل الغلو بهذه المحاولة أحياناً إلى درجة النيل من الإسلام عقيدة وشريعة للتشكيك في صحة نسبته إلى السماء.

ومؤلَّفات المستشرقين من الكثرة بحيث لا تعد ولا تحصى، ولا سيما ما تناول منها الفكر الإسلامي وتراثه. والحقّ الذي يجب أنْ يقال: إنّ بعض هذه المؤلفات الاستشراقية قد أدَّى دوراً رئيسياً في تعميق التفكير الديني، وفتح مسالك للجدل الجادّ الهادف. ولكنّ البقية بعد ذلك نفثت سموماً في هذا التفكير الديني، أقلّ ما يقال عنها أنّها مزيجٌ من التّعصب والحقد والهوى الأعمى.

وإذا قيل هذا عن الكثرة من المستشرقين، فإنّ اليهود منهم خاصّة يندر أن تمسّ النزاهة تفكيرهم، أو يخطر العدل بأذهانهم، نذكر منهم- وليس على سبيل الحصر- البروفسور «ل. أ. ماير»، الذي كان رئيس معهد العلوم الشرقية في الجامعة العبرية بفلسطين، وأحد الخبراء بالآثار والفنون الإسلامية، والبروفسور «غ. وابل»، الذي كان أستاذاً للّغتين التركية والعربية في الجامعة العبرية، وأستاذاً للعلوم الشرقية بجامعة فرنكفورت، والبروفسور «هي. بنيت»، الذي كان محاضراً في اللغة والآداب والفلسفة العربية في الجامعة العبرية، والدكتور «س. د. ف غويتاين»، الذي كان محاضراً في نفس الجامعة العبرية في التاريخ

الإسلامي وفي تاريخ الديانة الإسلامية والحركات الدينية في الإسلام، ثمّ المستشرق المجريّ الأصل اليهودي الجنس والعقيدة «أجنتس جولدتسيهر». ويكفي أن نعرض في هذا المقال لهذا المستشرق اليهودي المتعصب الذي تفنّن في الكيد للإسلام وعقيدته وشريعته، وقضى زهاء نصف قرن من الزمان يبحث وينقب في الدراسات العربية والإسلامية، يلتقط الروايات الهزيلة، والأحاديث النبوية الواهية، ويضع أصابعه على الخلافات المذهبية الدينية، لكي يقيم قلعة محصنة بالتعصّب الممقوت، يصوّب منها قلاعاً تستهدف الإسلام في عقيدته وشريعته وتفكيره.

ولد «جولدتسيهر» في يونيو عام 1850، وتوفي في بودابست عاصمة المجر في نوفمبر عام 1921. وبلغت مؤلفاته وبحوثه بضع مئات، معظمها مما تناول الإسلام في شتى مجالاته الفكرية والثقافية؛ على أنّ أخطر ما فيها، وأعنفها تهجّماً على الإسلام وتعصّباً لبني جنسه هما كتابان: **مذاهب التفسير الإسلامي** الذي نقل إلى العربية وقام بترجمته المرحوم الدكتور «عبد الحليم النّجار»، الأستاذ السابق بكلية آداب القاهرة. ويبرّر الدكتور المرحوم «النجار» إخراج هذا الكتاب إلى حيّز الوجود العربي، بأنّ نزاعات المستشرقين يجب ألا تحملنا على تجاهلها:

«كما لا يحط من قيمته - أي كتاب **مذاهب التفسير الإسلامي** - اشتماله على قليل من النزاعات الدينية التي نبهنا إلى أهميتها، وهي نزاعات لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين ولا سيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب، يمليها عليهم أُلْفٌ ملازم، أو هَوىً متبع، أو قَصدٌ جائرٌ، ولو اعتمدنا ذلك سبباً في اطراح هذه الكتب وإهمالها لفاتنا خيرٌ كثيرٌ».

ومن نزغات «جولدتسيهر» في كتابه هذا ادعاؤه أنّ المرحلة الأولى لتفسير القرآن انقضت في إقامة النّص. ويدفع به الشطط إلى القول «بأنّه لا يوجد كتاب

تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقيدياً على أنّه نص منزّل أو موحى به يقدّم نصّه في أقدم عصور تداول مثل هذه الصّورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في القرآن».

ويهتمّ هذا المستشرق بـ تفسير ابن عباس، باعتباره أوّل تفسير. والمعروف لدى المحقّقين أنّ التفسير المنسوب إلى «ابن عباس» داخله كثيرٌ من الريب، ولكن المستشرق اليهودي يحاول إثبات وجود قومه فيقول: «كثيراً ما نجد بين مصادر العلم المفضلة لدى «ابن عباس» اليهوديَّين اللذَين اعتنقا الإسلام: «كعب الأحبار» و«عبد الله بن سلام»». ويقول:

«ولم يعدّ «ابن عبّاس» أولئك اليهوديَّين اللذَين دخلا الإسلام حججاً فقط في الإسرائيليات وأخبار الكتب السابقة.. بل كان يسأل أيضاً «كعب الأحبار» مثلاً عن التفسير الصحيح للتعبيرين القرآنيين: «أمّ الكتاب» و«المرجان». كان يفترض عند هؤلاء الأحبار فهماً أدقّ للمدارك الدّينية العامّة الواردة في القرآن وفي أقوال الرسول. وكان يرجع إلى أخبارهم في مثال هذه المسائل على الرغم من ضروب التحذير الصادرة من جوانب كثيرة فيهم».

هكذا يحاول المستشرق اليهودي أن يسجّل أنّ اليهودية لعبت دورها في تأسيس الفكر الإسلامي. مع أنّ «كعب الأحبار» من المطعون في دينه وخلقه لدى عامة المفكرين الإسلاميين. ولم يزل العلماء يرفضون كلّ تفسيرٍ للقرآن اهتمّ بالإسرائيليّات.

أمّا كتاب «جولدتسيهر» الآخر فهو **العقيدة والشريعة**، الذي نقله إلى العربية المرحوم الدكتور «محمد يوسف موسى» أستاذ الشريعة السابق في كلية الحقوق، والدكتور «علي حسن عبد القادر» عميد كلية الشريعة بالأزهر،

والأستاذ «عبد العزيز عبد الحق». والعجيب ما ذكر في مقدمة الكتاب، وهو: «وقد انساق المؤلّف إلى أخطاء غير يسيرة بعوامل قد يكون منها أنّه لم يستطع أن ينفذ تماماً إلى روح الإسلام ومبادئه وأصوله، وقد يكون منها كذلك ما هو طبعي في كلّ ذي دينٍ وثقافةٍ خاصّةٍ من العصبيّة لدينه وثقافته».

أمّا العامل الأول فلا وجود له بشهادة الكتاب نفسه، وأمّا العامل الآخر، فهو الأول والأخير، وليس هناك غيره. هذا المستشرق يهتك بُرْقُعَ الحياء، فيزعم أنّ «تبشير النّبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينيّة عرفها، إذ استقاها بسبب اتّصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثّر بها تأثراً عميقاً..».

ولا يسائل نفسه مثلاً: لِمَ إذن هذا الاختلاف الواضح في الجوهر بين الإسلام من جانب والمسيحية واليهودية من الجانب الآخر، ما دام «محمد» قد استقى ديانته منهما؟؟

ويواصل المستشرق اليهودي تجنياته على الإسلام، فيثير الشكّ في القرآن، ويطعن أصل الحديث النبوي، ويرى أنّ الفقه الإسلامي ليست به الصلاحية الفقهيّة كي يشرّع للأمم والأجناس، كما يرى أنّ الفقهاء - في سبيل تطوير الفقه الإسلامي - زوّروا عشرات الألوف من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، وإلى ذلك من الاتهامات التي تربى على الهراء، وتكشف عن أصالة اليهود في الحقد على الإسلام.

بقي أنْ تعرفَ أنّ هذا المستشرق اليهودي لم يفته - قبيل وفاته - أن يهديَ مكتبته للجامعة العبرية بفلسطين. هذه المكتبة التي ضمّت حوالي ستة آلاف مجلّة تتناول العلوم الشرقية والفقه والفلسفة والفنون الإسلامية، وعدا هذه المجموعة زهاء ألف نسخة من المقالات المنشورة في المجلات العلمية.

«محمد عبد الله السمان»

مستشرقون تآمروا على الشرق!

بقلم: «جلال مظهر»

لمّا مكّنت أوروبا لعصر استعلائها وبدأت تتطلع إلى استعمار بلاد العرب وإخضاع أبناء الذين دوّخوا أوروبا ألف سنة، ظهرت حركة عداء من نوع جديد للعرب وتراثهم. كانت تهدف أول شيء إلى إخفاء مآثر العرب وأفضالهم على الحضارة وعلى أوروبا، إضافةً إلى تلطيخ تاريخهم بل واسمهم أيضاً.

ولقد قاد هذه الحركة جماعةٌ من المستشرقين. عمد بعضهم إلى الدسّ بين السطور. ورجع بعضهم إلى النظريات الشعوبية القديمة يحييها ويزكيها. وعمد بعض آخر إلى نظريات غريبة تؤدي إلى إنكار فضل العرب في إرساء قواعد علومٍ برمّتها، كما فعل المستشرق الفرنسي «برتلو»، عندما أنكر نسبة الكتب اللاتينية الكيماوية التي تحمل اسم «جابر بن حيان» لمجرد أنّ أصولها العربية فقدت. وكذلك كان هناك فئة رابعة اتّخذت بعض الأحيان مواقف لا يمكن أن تكون جديرة بالعلماء الراسخين. ومثلنا على ذلك موقف المستشرق «دوزي» فقد كان من أولئك الذين يقولون بتأثر شعر «التروبادور» بالشعر الأندلسي، حتى لقد صرح تصريحه العدائي الشهير «هذا موضوع لا فائدة من بحثه البتة، ولا نريد أن نسمع ثانية أنّ أحداً تكلّم فيه. ولكلّ فرسه الذي سيموت عليه». وتبعه آخرون مثل «انجلاد» حيث قال: «هو هذا، لقد ابتكر «التروبادور» كلّ شيء، شكلاً وطابعاً».

أما «برتلو»، فقد تصدى له علماء راسخون مثل «هولمبارد» و«ستيل» وغيرهما، وأوضحوا تماماً أنه كان مخطئاً، بل أن «ستيل» اتّهمه بالجهل وبالتحيّز والعمد. أمّا العلامة «جورج سارتوند» فيقول: إنّ أي شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقاً في اكتشاف أنّ هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتبٍ عربيّة، إذ تبدو الأساليب العربية واضحةً من الترجمة اللاتينيّة، سواء أكانت لـ«جابر» أم لغيره من العرب. وأمّا مسألة «التروبادور»، فقد تصدّى لها «رايبيرا» وغيره وأخيراً «نيكل»، وأثبتوا بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ شعر «التروبادور» متأثرٌ إلى

حدٍّ بعيدٍ جداً بالشعر العربي الأندلسي وبالموسيقى العربية ولولاهما لما ظهر «التروبادور».

وقس على ذلك في مختلف فروع المعرفة. لقد قام مستشرقون يهدمون العرب ويكيلون لهم ويعملون جاهدين على محوهم ومحو آثارهم. هذا وينبغي علينا أيضاً أن نقرّر الحقّ، وهو أن أوروبا في الوقت نفسه لم تعدم أن تخرج كُتّاباً موضوعيّين نبلاء الغرض، لا تسمح لهم ضمائرهم أن ينساقوا في خضمّ هذا البحر الزاخر بالتضليل وتشويه حقائق التاريخ. ولقد رفع كثيرٌ منهم عقائرهم وراح بعضهم يصلي زملاءه المضللين بألسنةٍ حِداد، لا دفاعاً عن حضارة العرب وتاريخ العرب من أجل العرب، وإنما دفاعاً عن الحقّ، الحقّ المقدّس. قال العلامة «درابر» في منتصف القرن التاسع عشر: «إني لآسف لهذه الطريقة الرتيبة التي عمد بها الأدب الأوروبي إلى التحايل لإخفاء أفضال العرب العلمية علينا». وقال آخر من معاصريه، هو الأستاذ «سيديو»: يحاول الأوروبيون التقليل من شأن الدور الذي لعبه العرب، ولكنّ الحقيقة ناصعةٌ مشرقةٌ، وليس أمامنا من سبيل إلا أن نضفي عليهم الشرف الذي يستحقونه أن عاجلاً أو آجلاً.

كلّ هذه الخواطر وغيرها مما يملأ صفحات كتاب كامل، تداعت إلى ذهني وأنا أقرأ المقال الممتع الذي طالعنا به الدكتور «زيادة» على صفحات الأسبوع العربي، الصادر بتاريخ 9 كانون الأول تحت عنوان «الدراسات العربية والإسلامية في بريطانيا»، والحديث ذو شجون كما يقول المثل. أمّا ما يهمنا الآن فعدّة جمل قصار اختتم بها أستاذنا الفاضل مقاله: «هذه العناية (أي العناية التي توليها بريطانيا للدراسات العربية والإسلامية) يقصد بها بطبيعة الحال أولاً وآخراً، نفع سكان تلك البلاد (أي بريطانيا). ولكن من حقّ أولئك الذين خدموا لغتنا وتاريخنا وأدبنا أن نشكرهم. ولعلّ الكثير منهم أخطؤوا. ولعلّ البعض

حتّى تعمّدوا الإساءة، ولكن المهم، في النهاية، الخدمة والفائدة التي جنيناها من هذا الاهتمام، والفائدة كانت كبيرةً».

أمّا من الناحية التاريخيّة فقد خدم الأوروبيّون تاريخنا (وخاصّة أثر حضارتنا في حضارة أوروبا) خدماتٍ لا يمكن أن ننساها ولا ينبغي أن ننكرها. ويجب علينا أن نشكر الذين أدّوا لنا هذه الخدمات منهم شكراً جزيلاً. وإنها لحقيقة ذات بال أن أحداً من العرب حتى الآن لم يقم بدراسات تاريخية مفصلة مقارنة في هذا الموضوع كالدراسات التي قام بها نفر من مستشرقي أوروبا، وعلى الأخص في أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر، عندما انبروا يدافعون عن حضارة العرب وعن تاريخ العرب في وجه زملائهم الذين يعتمدون إلى تشويهه وتوسيخه. ولولا تلك الدراسات المستفيضة العميقة البالغة الأهمية، لَمَا استطعنا نحن الآن أن نعرف شيئاً كثيراً عن حقيقة تاريخ حضارتنا، وأمجاد آبائنا العلمية وأفضالهم على حضارة أوروبا، ولَمَا عرفنا على وجه التحديد مقدار فضلنا في إرساء قواعد الحضارة الحديثة. وهذا موضوع طويل قد نعود إليه فيما بعد.

أمّا لغتنا وأدبنا فلا أظنّ أنّ المستشرقين أسدوا إليهما خدمات تذكر. فلا هم طوّروا اللغة ولا وضعوا لها قواعد جديدة ولا هم جدّدوا في أساليب الأدب العربي شيئاً.

وأمّا الجملة التي جاءت في كلام الأستاذ «زيادة» وجعلتني أقف عندها طويلاً فقوله: «ولعلّ البعض حتّى تعمدوا الإساءة». وهنا مكمن الخطر وبيت الداء الحقيقي الذي عانينا منه معاناةً كبرى ولا زلنا نعاني. فقد كان لهذه الإساءات المتعمَّدة أسوأ النتائج وتسببت في أشدّ الأضرار، وقد تكون مرة ثانية سبباً في أضرار ونكبات جديدة، إن لم نعمل سريعاً على التصدي لها وتخليص العقل الأوروبي والعربي أيضاً من آثارها.

وقبل أن أستطرد في هذا الحديث أحب أن أقول كلمة صغيرة، هي أني أرجو ألا يظن أحدٌ مطلقاً أني أنتقد أستاذنا «زيادة». إنّ حقيقة هذا الموضوع قد خفيت لكثرة التضليل وبفضل الطريقة الرتيبة التي لجأ إليها المستشرقون في إخفاء الحقيقة، التي يتكلم عنها الأستاذ «درابر»، على أساتذة كبار ممّن لم يتعمّقوا في درس هذا الموضوع بالذات، ولا عيب في هذا البتة. وقد نتذكر أنّ أستاذنا «طه حسين»، وهو من أنبه الناس في هذا العصر وأذكاهم، قد انساق في مستهلّ حياته الأدبية وراء آراء المستشرقين الذين أنكروا نسبة معظم الأدب الجاهلي إلى عرب الجاهلية، ثمّ عاد فعدّل رأيه. لذلك أحبّ أن يتأكد أستاذنا «زيادة» أنّنا لا نبغي إلاّ وجه الحق، وقد يعدّل هو الآخر رأيه فنكون بذلك اكتسبنا أستاذاً عظيماً إلى صفّنا.

نعود إلى موضوعنا فنقول: إنّ أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن تشكّ في تفوق الحضارة العربية وفي عظمتها، ولم يكن العرب أنفسهم حتّى ذلك التاريخ شعروا بعد بالذلة والمهانة والانحلال الذي أصابهم. وكانت أوروبا قد بلغت عصر عظمتها، فاتّجهت كما قلنا إلى العمل على محو هذا العدو القديم الذي أفزعهم وصدّهم عن آسيا وإفريقيا أكثر من ألف عام. وتَزَعَّم الحركة مستشرقون فطاحل، وتصدّى لهم نفرٌ آخر منهم ممّن يقدسون الحقّ مثل «جوستاف لوبون» و«للويل» و«درابر» و«سيديو»، يدافعون عن العرب.

ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد سار المنهجان سوياً، منهج المضللين ومنهج المنصفين. غير أنّ خطة الذين عمدوا إلى تشويه حضارة العرب نجحت للأسف الشديد أيّما نجاح، ولاقت كتاباتهم ترحيباً وهوى من أنفس الكتاب المختصّين وغير المختصّين أكثر ممّا لاقت كتابات المنصفين. ونجحت الخطة وانتشرت تشويهاتهم انتشار النار في الهشيم حتى لقد تعجز اليوم عن إقناع أوروبي - ولو كان مثقفاً - بالحقيقة، ذلك أنّ عقله قد طفح بهذه الأضاليل من كثرة ما قرأ هنا وهناك في الكتب

الدراسية وغيرها، وفي الصحافة والمجلات وممّا شاهد أخيراً على شاشة السينما والتلفزيون. والرأي العام الأوروبي ينظر إلى العرب في أسوأ مرآة. ليس هذا فقط، وإنّما استطاعوا أيضاً أن يؤثّروا على عقول الكثيرين من أبناء العرب أنفسهم، حتى لقد يحدُجُك محدثك - وهو المثقّف غالباً - بنظرة غريبة إن قلت له: حضارة العرب أو أمجاد العرب العلميّة، وكأنّك تحدّثه عن بلاد الواق واق.

والواقع إذن الذي لا يمكن لمطّلع على حقيقة هذا التاريخ إنكاره، أنّ كتّاب الغرب على العموم تبعوا النغمة التي ترضيهم وساروا في ركب المضلّلين. والأدلة على هذا كثيرة تملأ صفحات الأدب العربي بمختلف الأضاليل التي أشاعوها. حتّى لقد انتقلت العدوى إلى كتب العلماء الذين يكتبون في الكيمياء أو الطبيعة أو الطب أو الفلك إلخ..... ممّن لا يعرفون الحقيقة وإنّما ينقلون عن هؤلاء المستشرقين. حتّى لقد تجد حتّى اليوم من ينكر أيّ حقيقة تتعلق بالكيمياء العربية، ولا يذكر غير أقوال «برتلو» ولا يردّد إلا نظريّته في حين أن تحت يده وأمام ناظريه كتابات علماء من جلدته أقرب إلى الصواب وإلى العلم وإلى الحق من «برتلو» الذي يتجاهلهم تماماً وكأنّهم لم يكتبوا شيئاً بل كأنّهم لم يولدوا قطّ. فلأيّ شيءٍ يتركون الحقّ ويتّبعون الضلال؟ لا لشيءٍ إلاّ لأنهم لا يريدون إنصاف العرب، ولا يعرفون معنى الحقّ والنزاهة والخلق القويم الذي ينبغي أن يتّصف به الذين يتعرّضون لآداب الأمم وتاريخها، بل الذين يتعرّضون للكتابة أياً كانت.

أمّا الطامّة الكبرى التي حلّت بعالم الأدب والنشر والكتابة في هذا العصر التعيس، فتحكُّم اليهود في وسائل النشر والإعلام في العالم الغربي تحكّماً قد يفوق تحكّمهم في أي شيء آخر. فمعظم دور النشر والصحف وما إليها من وسائل أصبحت تحت أيديهم يوجّهونها كما يشاؤون، وكما تطيب له سياستهم. لم يكن هذا شأنهم في القرن الماضي؛ ولذلك رأينا كتابات «سيديو» و«درابر» و«لوبون» و«للويل» وغيرهم تطبع وتنشر وكلها حماس عجيب في صورته للعرب ولتاريخهم ولحضارتهم. أمّا الآن فقد اختفت تماماً مثل هذه الكتابات من الأدب الغربي، وأصبح الذين يكتبون في هذا

الموضوع، يتناولونه من الزوايا السلبية في غالب الأحيان إن كانوا من المنصفين، أو من حيث يريدون الطعن والهجوم إن كانوا من المضللين.

خلاصة القول أنّ اليهود في عصرنا هذا تمكنوا من السيطرة على وسائل النشر والإعلام في العالم العربي، وأخذوا يسوقون العقل العربي في الاتجاه الذي يريدونه، وفي المسالك التي يحددونها له. ليس معنى هذا أن العالم الغربي قد عدم مطلقاً أن يخرج ناشرين يقبلون طبع الكتب المنصفة العلمية، وإنّما هؤلاء قلّة لا يحسب لها حساب إلى جانب الأغلبية الهائلة اليهودية التي تطغى على الميدان وتتحكم فيه كامل التحكم، بمختلف وسائل النشر والإعلام الحديثة العلمية التي تؤتي أكلها حتماً كما يشتهون.

وإنّ نظرة إلى الخطة الرتيبة التي اتّبعها أدب الغرب في تشويه اسم العرب وحضارتهم قد تجعلنا نتجه إلى القول بأن خطّة المحو هذه ربما لم تكن أصلاً خطة أوروبية، وإنما كان لليهود وللصهيونية فيها اليد الطولى. لقد حاول كتّاب كثيرون أن يشبّهوا العرب بشعوب من الهمج مثل الهون والوندل، ويصفونهم دائماً بأنهم رعاة رحل ويلصقون فيهم هذا الوصف. واليوم يحاول اليهود إقناع العالم الغربي الذي يساندهم - أو قل إقناع الرأي العام في العالم الغربي حتّى تعتمد عليه الحكومات في تبرير تصرفاتهم إزاء العرب - أنّ اليهود أحقّ بأرض فلسطين وبصحراء فلسطين لأنّهم يعمرونها في حين يتركها العرب الرحل للبوار. وهذه نقطة يقابلك بها الأوروبيون في كل مكان ويجابهونك بهذا مقتنعين أن الأرض القاحلة أحقّ بمن يعمرها لا بمن يهجرها أو يتركها خراباً.

على أنّ الدعاية الأوروبية - الصهيونية ضد العرب ووصفهم بأنّهم مجرّد بدو رحل، وفي هذا الوصف ما لا يخفى على أذهان المتبصرين إذ أن «بدوي» يعني «يرحل» يعني «غير صاحب حضارة». هذه الدعاية لم تكفِ، بل إنّهم لا يزالون في غيّهم حتى لقد نجد في أحدث كتبهم إساءات بالغة لاسم العرب. مثال ذلك محاولة أستاذ

يهودي بجامعة لندن اسمه «برنارد لويس» - وهو أحد ثلاثة يهود في قسم الاستشراق بجامعة لندن - تعريف من هو العربي في مقدمة كتابه العرب في التاريخ. وكلّ بحثه يدور ويلف ليعود ثانية مؤكداً أنّ العربي هو البدوي لا غير، حتى لقد تخطى كل حدود المعقول وغير المعقول. وهذه هي عبارته بنصها وترجمتها: «العرب بالنسبة لـ«محمد» ومعاصريه هم البدو سكان الصحراء، وقد استعمل القرآن هذا النص (أي العرب) على التّخصيص في هذا المعنى ولم يستعمله قط ليدل على سكان مكة والمدينة والمدن الأخرى. ومن ناحية أخرى، فإن لغة هذه المدن ولغة القرآن ذاته إنما توصف بأنها عربية».

إن هذا هراء ولا ريب، ولكن أنّى لأوروبي يقرأ لأستاذ بجامعة لندن أن يدرك أنّ هذا هراء وكذب وتضليل.

أولاً: إذا كان العرب بالنسبة لـ«محمد» عليه السلام ومعاصريه هم البدو، فماذا كان هو ومعاصروه؟ أكانوا جنس آخر؟ لم يخبرنا سيادة المؤلف اليهودي.

ثانياً: لغة القرآن توصف بأنها عربية. أمعنى هذا أنها غير عربية؟ كلا وإنما يريد أن يقول إنها ليست العربية الفصحى.

هذا نموذج من خطة لصق صفة البدو الرحل في اسم عربي، حتى يظلّ الأوروبيون دائماً ناظرين إلى العرب من هذه المرآة. هذا الكلام لو أنه صدر عن كاتب غير مختصّ لما اهتممنا اهتماماً كبيراً بشأنه، وإنما الخطورة أن يصدر عن كاتب مختصّ فينقله جميع الذين يكتبون في هذا الموضوع من غير المختصّين بدون مناقشة. ولهم عذرهم في هذا، فمصدرهم أستاذ مختص بجامعة شهيرة كبيرة محترمة هي جامعة لندن. وللغرابة والعجب مرة أخرى نرى أن الأستاذ «لويس» قد قرّر نهائياً أنّ تفسيره هو التفسير الصحيح، وأنّ تفسيرات المعاجم العربية غير صحيحة. فهل رأى أحد قبل اليوم تبجّحاً وتهجّماً كهذا؟ وإذا كانت تفسيرات لسان العرب وتاج العروس وغيرهما خاطئة، إذن فمن أين استقى

«لويس» معلوماته؟ من أين استقاها إن لم يكن من المراجع العربية؟ لم يخبرنا الأستاذ الفاضل لأنّه لا يستطيع أن يخبرنا بشيءٍ غير موجود.

نحن نعرف جميعاً، ويعرف كل عربي وكلّ أجنبي متصل بأدب العرب وتاريخ العرب، أنّ لفظ «عرب» اسم جنس يطلق على ذلك الجنس من الناس الذين يقطنون بلاد العرب سواء أكانوا بدواً أم حضراً، وأنّ هناك تفريقاً واضحاً بين «عربي» و«أعرابي»، وأنّ ذكر الأعراب تحديداً لسكّان الصحراء الرحل جاء في القرآن عشر مرات. وقد ترجم جميع الذين ترجموا القرآن إلى لغات أوروبية كلمة «أعرابي» هذه «بساكن الصحراء»؛ أي: البدوي. وذكر القرآن كلمة «عربي» إحدى عشرة مرة ولم يقل «بلسان أعرابي فصيح»، وإنّما قال: «بلسان عربي مبين». وفي الحديث كما تخبرنا معاجمنا العربية: ثلاث من الكبائر، منها التعرّب بعد الهجرة «أي العودة إلى البادية والإقامة مع الأعراب» بعد أن كان مهاجراً من مكة «أي عربي لا أعرابي»، وكانوا يعدّون من يفعل ذلك كالمرتد. وقال الأزهري: والذي لا يفرّق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ربّما تحامل على العرب بما تأوّله من آية: «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً»، وهو لا يميّز بين العرب والأعراب. ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب، إنما هم عرب؛ لأنّهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن. وهذا التفريق بين البدو والحضر تماماً كما نفرّق نحن اليوم وكما يفرق جميع سكان العالم بما فيهم فرنسا وإنجلترا وأمريكا إلخ... بين ساكن باريس أو لندن أو نيويورك والفلاح ساكن القرى الريفية الذي يعمل في الزراعة.

والأعرابي إذا قيل له: يا عربي! فرح بذلك وهشّ له. والعربي إذا قيل له: يا أعرابي! غضب به. هكذا تخبرنا معاجمنا العربية. فهل نصدقها أم نصدق «لويس»؟

ولكن الأستاذ «لويس» يقول لتلاميذه أنّ هذا غير صحيح. وإنّ تفسيره هو

الصحيح وتفسيرات العرب ومعاجم العرب وأدب العرب وتاريخ العرب خطأ. ولله في خلقه شؤون.

ثم إنّ الأستاذ اليهودي الذي يدرس للإنجليز وللشرقيين أيضاً - ومنهم عرب طبعاً - تاريخ العرب، لم يقتصر على هذا التشويه وإنما ملأ كتابه بمختلف أنواع الافتراء والتجني والتضليل. ولا يسعنا في هذا المجال المحدود إلا أن نستشهد بعدّة فقرات من كتابه هذا، وردت في الفصل الأول وعنوانه «محمد وظهور الإسلام»، عندما أراد أن يصف نواة الجماعة المدنية الأولى في الإسلام، قال: «ويقول مؤرخ سيرته (أي سيرة النبي): وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود، وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم». ثمّ يستطرد فيقول: «وليس هذا الكتاب معاهدة بالمعنى الأوروبي، بل تصريحاً من جانب واحد. وكان الغرض منها عملياً وإدارياً صرفاً، ويبين طبع النبي الحذر الحريص. ونظمت العلاقات بين المهاجرين والمكيين وقبائل المدينة، وبين هذين الفريقين وبين اليهود والجماعة التي أقامتها هذه الوثيقة، وهي الأمة، كانت تطوراً للقرية الجاهلية، صحبته تغيرات حيوية. وكانت خطوة أولى نحو الحكم الاستبدادي الإسلامي فيما بعد».

انتهى الأستاذ بجامعة لندن من مهمته: الحكومة الإسلامية حكومة استبدادية. ولا أظن أنّنا بحاجة إلى تفنيد هذا الكلام الغثّ والردّ عليه.

ويقول أيضاً: «وقد زادت الأمّة (أي الأمة الإسلامية) في العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد العرب قبل الإسلام ولم تبطلها. وكانت أفكارها حول هذا الموضوع لا تعدو نطاق البناء القبلي: احتفظت بنفس الأحكام السارية قبل الإسلام في مسائل الملكية والزواج والصلات بين أفراد القبيلة الواحدة. ومن الطريف أن نلاحظ أنّ دستور النبي [ﷺ] الأوّل شمل تقريباً جميع العلاقات

المدنيّة والسياسيّة، ليس فقط بين المواطنين أنفسهم فحسب، بل بينهم وبين غيرهم أيضاً».

وهذا أيضاً كلام لا يحتاج إلى تفنيد ولا إلى شرح. ذلك أنّ هذا الكلام لا يقوله غير جاهلٍ جهول بأصول الإسلام أو مغرض مضلّل موغل في تضليل قارئه.

ويقول أيضاً: «لمّا كان المهاجرون معدمين من النّاحية الاقتصادية ولا يرغبون في أن يعتمدوا كلّية على المدنيين، فقد تحولوا إلى المهنة الباقية وهي السطو. وقد عبر الكتّاب الأوروبيّون عن استيائهم البالغ، وهم محقون في ذلك، حين رأوا رسول الله يقود المسلمين في غارات على قوافل التجار من أجل الحصول على الغنيمة. إلاّ أنّه طبقاً لظروف ذلك الزمن، وطبقاً لمبادئ العرب الأخلاقية كان السطو مهنةً طبيعيّة وشرعيّة. وقيام الرسول [ﷺ] بمثل ذلك العمل لا يلحق به أي عار».

العرب الذين ظهر فيهم محمد ﷺ جماعةٌ من اللصوص على رأسهم نبي (لص أيضاً استغفر الله) لأنّ ذلك شريعتهم الأخلاقية. وفي هذا من الكذب ومن السخرية ما يرى القارئ. فهل رأى أحدٌ أمعن في هذا الكلام في سبّ العرب والإسلام والكيد لهم ولتاريخهم ولاسمهم؟

أمّا إذا أردنا أن ننظر إلى غارات القبائل بعضها ضد بعض على أنّها لصوصيّة، فلماذا لا يطبّق كُتّاب أوروبا هذا المفهوم إلا على العرب. ماذا كان اليونان الذين يسمّونهم آباء المدينة الغربية؟ ماذا كانت مهنتهم؟ ألم تكن القرصنة؟ ألم يكونوا أكبر وأعتى قراصنة عرفهم البحر المتوسط طوال قرون؟ ماذا كان أبطالهم الوطنيّون مثل «أوديسوس» و«أجاكس» وغيرهم، والذين لا يزالون يتغنّون ببطولاتهم؟ وماذا كانت روما وماذا كان الرومان؟ أكانوا أكبر قراصنة ولصوص وسفاحين عرفهم التاريخ القديم؟ وما الإمبراطورية الإنجليزية والفرنسية وغيرهما من التاريخ الحديث؟ أكانت غزواتهم ونهبهم للشعوب

ولصوصيّتهم سرقة في نظر الأستاذ «لويس» وأمثاله ممن يكتبون تاريخ الشعوب المجيدة فيشوّهونها؟

كلاّ ثمّ كلاّ. اليونان كانوا أعظم شعب ربّب الديموقراطية، وروما بهمجيتها ووحشيتها كانت أعظم إمبراطورية قديمة، وإنجلترا وفرنسا وأمريكا الآن هي حصون الحرية والعدل والحقّ والقانون.

وهكذا عمد المستشرقون أو على الأصح معظمهم إلى قلب حقائق التاريخ رأساً على عقب وتشويهها وإشاعة الأكاذيب والأضاليل، فامتلأ الأدب العربي بصور كاذبة خادعة شائنة عن الشعب العربي وعن تاريخه وعن حقيقته. والحق أنّه لا غرابة في أن يعمد كُتّاب من أعداء العرب إلى الدسّ والتضليل وتشويه الحقائق. ولكنّ الغرابة كلّ الغرابة والعجب كلّ العجب أن تصدر مثل تلك الكتابات عن أساتذة في جامعة محترمة كجامعة لندن.

وكتاب «لويس» هذا لحسن الحظّ ترجمه أستاذان؛ هما الدكتور «نبيه أمين فارس»، والدكتور «محمود يوسف زايد». وأقول: لحسن الحظّ؛ لأنّ مثل هذه الكتابات على ما فيها من كذب ونفاق ينبغي أن تترجم على أيّة حال، حتّى يستطيع أن يقرأها أكبر عددٍ من أبناء العربية ويطّلعوا على ما تكيده لهم أوروبا والصهيونية، وحتّى يتمكن الضليعون منهم بتاريخنا والذين لا يعرفون لغات أجنبية أن يفسّروا لنا الحقائق ويكشفوا لنا عن الحقّ. وعندئذٍ نستطيع أن نواجه هذه الدعايات الغربية ونصدّها عنّا عن طريق العلم بحقائق الأشياء، وعن طريق تبادل الرأي في أمثل الطرق للقضاء عليها. ولذلك فنحن ندعو إلى ترجمة جميع ما يُكتبُ عَنّا. والأفضل أن يعلَق عليها المترجم لتنوير الأذهان أو يشرك معه غيره من علماء التاريخ العربي في التعليق حتّى يخرج العمل كاملاً وحتّى يحقق الفائدة التي نرجوها.

«جلال مظهر»

المبحث الثاني
منهجية تاريخيّة فاسدة

يقدّم المستشرقون صورة مشوّهة للتاريخ الإسلامي بهدف محو ضمير الأمّة وإبعادها عن حقيقتها وأهدافها. ورغم أن هذه الدراسات تنادي بالموضوعيّة والحياد والمنهجيّة العلميّة، إلاّ أنّها تهدف إلى تحقيق غايات معيّنة، ما يجعل نتائج بحوثها محدّدة مسبقاً بينما يسعى الباحثون إلى تسخير المناهج البحثية لإثبات هذه النتائج.

يحمل أغلب مناهضي الاستشراق هذا النقد بوجه المستشرقين. ونعرض ههنا مراجعة الأستاذ «نزار قنديل» لكتاب يدرس المنهجية التاريخيّة المعيبة في دراسات المستشرقين للتاريخ الإسلامي بعنوان **المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي** للدكتور «عبد العظيم محمود الديب» رئيس قسم الفقه بكلية الشريعة بجامعة قطر. ويتميّز المقال بتلخيصه لأفكار الكتاب وعرضه لنتائجه بشكل مختصر ومبسّط باعتباره موجّهاً للجمهور.

التاريخ وخطايا المستشرقين

بقلم: «نزار قنديل»

ستّون ألف كتاب وبحث وضعها المستشرقون عن الإسلام في الفترة من بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، فلماذا هذا الاهتمام وكلّ هذا العناء؟ ولمصلحة من؟ خاصة إذا عرفنا أنّ تعارضاً كبيراً بين أهدافهم وهذا الدين العظيم!!

الرقم يحرّض على أسئلة كثيرة ويفتح الباب لدراسات علمية تناقش ذلك، وهو ما حدث كثيراً، ومنها كتاب **المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي** للدكتور «عبد العظيم محمود الديب» رئيس قسم الفقه بكلية الشريعة بجامعة قطر.

يرى فضيلته أن للاستشراق هدفين رئيسَين، هما:

- حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام فيؤمن به ويحمل رايته.
- معرفة الشرق ودراسة أرضه ومياهه وطقسه وزرعه وأهله ورجاله وعقائده وعاداته، ليعرف المستشرقون بعد ذلك كيف يصلون إلى الشرق المسلم.

ويقول: إنّ المستشرقين يركّزون أبحاثهم على التاريخ باعتباره ليس علم الماضي فقط، لكنّه علم الحاضر والمستقبل. فالأمّة التي تستطيع البقاء هي الأمّة التي لها ضمير تاريخي. وتفوق أهميّة التاريخ الإسلامي كلّ تاريخ، لأنّه في واقع الأمر الإسلام واقعاً، فتشويه صورته يؤدّي بالضرورة إلى تشويه الدين نفسه.

ويشير إلى منهج المستشرقين في اهتمامهم بالتاريخ واعتمادهم عليه لتحقيق مآربهم في جانبيه الشكلي الخارجي والقواعد والشروط. ويقول الدكتور

«الديب»: إنّ هذا المنهج من حيث الشكل تتّضح فيه ملامح رئيسة، هي:

- أولاً: الاهتمام بتاريخ الطرق والصراع بينها ووضعها في بؤرة الشعور لدى الأمة الإسلامية.

- ثانياً: العناية بتاريخ الزندقة والزنادقة وإبرازهم في صورة أصحاب الفكر الحرّ!

- ثالثاً: القفز وراء العصر الإسلامي والاهتمام بالتاريخ القديم لأقاليم دار الإسلام كالفرعونية، والبابلية، والآشورية، وغيرها في محاولة لتمزيق المسلمين.

- رابعاً: تمزيق تاريخ الأمة الإسلامية بتقسيمها إلى أسر، ومناطق!

- خامساً: اختزال تاريخ الإسلام والمسلمين.

- ويوضح رئيس قسم الفقه بكلية الشريعة أنّ هناك معالم أخرى في اهتمام المستشرقين بالتاريخ الإسلامي في المنهج من حيث استكمال شروطه والالتزام بقواعده، وهي:

- أولاً: الخضوع للأهواء وعدم التجرد للبحث في القراءة والكتابة والتحقيق!

- ثانياً: عجز المستشرقين عن أن يتمثّلوا ثقافة ولغة الأمّة الإسلامية لأنّهم ليسوا منها.

- ثالثاً: التعسّف في التفسير والاستنتاج بما يخدم الأهداف التي وضعوها لأنفسهم مسبقاً.

- رابعاً: التفسير بالإسقاط للواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخيّة السابقة!

- خامساً: استخدام منهج العكس؛ بمعنى أن ينظر المستشرق في النصوص والوثائق والروايات فإذا قالت شيئاً، عليه أن يدرك أنّ الصواب هو عكسه تماماً!

- سادساً: التشكيك في الدليل القاطع والتعامي عنه.

- سابعاً: التحريف والتزييف والادِّعاء.

- ثامناً: إصدار أحكامٍ قاطعةٍ بغير دليلٍ أصلاً!

- تاسعاً: الاختلاق والتمويه.

وفي عرضه لكلّ هذه الملامح يستعرض الدكتور «عبد العظيم الديب»، نماذج محددة لكتابات المستشرقين تثبت هذه التهم وتؤكّدها.

المبحث الثالث
منهجيّة اجتماعية ساقطة

يشكّل علم الاجتماع أحد الميادين الرئيسة التي صال فيها الاستشراق وجال، وصدرت فيه العديد من الدراسات والبحوث الاستشراقية لتوصيف المجتمعات الشرقية وتحليل أوضاعها وأحوالها وشؤونها. وقد جعل مناهضو الاستشراق مناهج بعض المستشرقين في تصوير الشرق بطريقة مغايرة للإنصاف صورةً من صور فساد الاستشراق وسوء نوايا أعلامه. وكما أسلفنا سابقاً، لا يعمّم أنصار هذا المذهب حكمهم على جميع المستشرقين بشكلٍ مطلق، ولكنّهم بيّنوا عموم هذا التوجّه وانتشاره بين المستشرقين.

فعلى سبيل المثال، عرض الأستاذ «عبد الوهاب بوحديبة»، في مشاركة له في كتابٍ جماعيّ بعنوان **مناهج المستشرقين**[1]، كيف يقدّم عددٌ من المستشرقين صورةً مشوّهةً للمجتمعات الإسلاميّة بعيدةً عن الحقيقة. وتعتبر هذه المنهجيّة أداةً من أدوات الاستعمار؛ إذ تجعل حل المشكلات العالمية من منظور أوروبي بحت. ولكن هذا المنهج العدائي تجاه الإسلام يدفع المسلمين لنقد أنفسهم وتطوير أحوالهم وتحسين صورتهم التي يقدّموها للغير. وسنقتصر على عرض خلاصة هذا البحث. ومن جهة أخرى يعرض الأستاذ «محمد عبيدو» نموذجاً لآثار الفكر الاستشراقي في الإعلام الغربي[2]. إذ دأب الاستشراق على تقديم صورة مشوّهة للعرب والمسلمين، واستمرّت السينما الغربيّة في اعتماد هذه الصورة النمطيّة في أفلامها ومسلسلاتها. وقد استند في مقالته على عددٍ من الدراسات الاجتماعيّة الغربيّة التي أضاءت على هذه الإشكاليّة. ويربط الكاتب، في دراسته لهذا النهج في الإعلام الغربي، بين الصهيونيّة العالميّة كسياسة كليّة موجّهة لهذا الإعلام والاستشراق كمصدرٍ للصورة المشوّهة للعرب والمسلمين.

---

(1) مناهج المستشرقين في الدراسات العربيّة والإسلاميّة، تونس 1985.

(2) «محمد عبيدو»، «الاستشراق الاستعماري وصورة العربي المشوّهة»، المعرفة، العدد 383، ص233-241.

الحياة الاجتماعيّة الإسلاميّة
كما صوّرها بعض المستشرقين

بقلم «عبد الوهاب بوحديبة»

... وهكذا نرى أن الغاية الصّريحة من هذه الدراسات جميعاً تكمن في إقامة (الحجّة) على أنّ المسلمين غير مؤهّلين لأن يستغلّوا خيرات بلدانهم، وأنّ الوصاية عليهم وحدها كفيلة بالنهوض بهم.

وليس المجال هنا مجال التصدّي لدحض هذه الأكاذيب التي لا أساس لها من الصحّة لأنّ الإسلام دين علم وعملٍ، وأن تغيير الأوضاع موكولٌ إلى مسؤولية المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: آية 11] ولأنّ الكسب في الإسلام غير الرزق وغير المال، ولأنّ الحضارة الإسلامية ماضياً وحاضراً تفنّد الأقاويل المغرضة حول تخاذل المسلمين المزعوم، ولأنّ التخلّف ظاهرة قبيحة يقاومها الإسلام وإن كان معظم مسلمي جيلنا يتخبّطون فيها، إلا أنّهم ليسوا وحدهم الذين يعيشون مأساة القلق. فالمسيحيّة والبوذيّة والهنديّة والماركسيّة نفسها لم تمنع شعوباً كثيرةً في إفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا الجنوبية من التخبّط في الفقر والجهل والتأخّر...

إذن فالأطروحة تنفي نفسها بنفسها، والمسؤوليّات في التصرّف الاقتصادي يجب أن تعزى للهياكل الاقتصاديّة وإلى دواليب الحكم وإلى الظروف التاريخيّة لا إلى الدين نفسه كدينٍ. لأن الإسلام أخذ مسؤولياته، فأكّد بأكثر من مرجعٍ على قيمة الحضارة والرقيّ وحثّ الناس على العمل والشغل وعلى إحياء الأرض وعلى التفاني في خدمة المصلحة العامة.

وفي هذا السياق نفسه تندرج نظريّة «التبعيّة»، التي تفشّت اليوم في معظم أوساط الاجتماعيّين، بما في ذلك المسلمين منهم. فكان التاريخ أصلاً ولا يمكن أن يكون مبنياً إلاّ على تقسيم العمل على الصعيد العالمي بين المركز (أي الغرب) والهوامش

(أي ما عدا الغرب)... ولا يتفطّن من يردّد هذه التحاليل البسيطة الساذجة المزيّفة إلى أنّه يخدم مصالح الغرب، ويدعو العالم الثالث إلى اليأس والقنوط.

وما نظرية التبعيّة إلا نسخة جديدة، ولكن مطابقة للأصل لنظريّة التمحور الأوروبي الذي بني عليه الاستشراق. ولذا فنحن في حاجةٍ إلى مقاومة هذه النزعة، وإلى الدعوة للرجوع إلى أبسط قواعد البحث النزيه، والكفّ نهائياً عن دخول المجتمعات من باب المقارنة التفاضلية وعن الانطلاق من أحكام مسبقة.

إنّ الدراسات الاجتماعية التي قام بها جمع من المستشرقين ماضياً وحاضراً لا تزال في حاجةٍ إلى دحضٍ ونقضٍ ونقاشٍ ومعارضةٍ. وجدير بالملاحظة أنّ جانباً وافراً من الاجتماعيين الغربيين تفطّنوا إلى ذلك، إلا أنّهم حاولوا هدم الجدار، ولكن بتعويضه بغيره. فالخطر الذي يهدّدنا اليوم يتمثّل في كون النقد الذي تشاهده الأوساط العلمية الأوروبية يتمّ عادةً في إطار النظرية الماركسية التي تحاول فعلاً دحض الفكر الإمبريالي الاستشراقي؛ ولكنها لا تستند في ذلك إلى دراسةٍ ذاتيّةٍ منطلقها متطلبات المجتمعات الإسلامية نفسها، بل تنطلق من النظرة الماركسيّة المسبقة ومن محاولة تطبيقها على المجتمعات الإسلامية دونما أيّ اعتبار لا لإفلاس تلك النظريات الماركسية حيثما طبّقت، ولا لعدم مسايرة النظريّات الاجتماعية العامّة الكونيّة مع الواقع الملموس الحي...

والحقيقة أنّه لا يمكن النزاع حول وجود نظرةٍ اجتماعيّةٍ إسلاميّةٍ طريفةٍ تنبني على المبادئ القرآنية السمحة، وهي الحرّيّة والمساواة والإخاء والتكافل والمسؤوليّة. إلا أنّ المجتمعات الإسلامية متعدّدة بتعدّد الحياة، متناقضة ككلّ المحاولات الإنسانية. وما التجارب الاجتماعيّة الإسلاميّة إلاّ إبداعٌ مستمرٌّ ينمو تحت ظلال الإسلام، فلم تستوعب بعدُ كلّ المبادئ الإسلاميّة السمحة، ولم تستوف كلّ متطلباته. فهي تشخيصٌ مؤقّتٌ لنظرةٍ أخلاقيّةٍ كونيّةٍ تتجاوز دائماً الظروف والأطر الزمانية والمكانية باعتبار أنّ الإسلام مثالٌ عالٍ يقترب منه المسلمون طالبين من الله التوفيق، فإن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد...

ويدهي أنّه يستحيل - دونما غلوٍّ أو ابتعادٍ عن الحقيقة - أن نحصر المجتمع

الإسلامي في نموذج ما يمكن تعميمه أو استقراؤه. وكلّ المحاولات لتنظيم المجتمع الإسلامي محاولات بشريّة تاريخيّة لها قيمةٌ ذاتيّةٌ، وكلّها بحثٌ لتجسيم النظرة الإسلاميّة ولتشخيص التعاليم القرآنيّة وللاقتراب من النموذج الذي سنّه نبيّ الإسلام ﷺ.

وكلّ دراسةٍ اجتماعيّةٍ تهمل هذه الحيويّة الخلّاقة وهذه الحركية المستمرّة لفرض القيم الإسلامية ولتجسيدها في مؤسّسات وضعيّة لن تتوصل إلى فهم كنه القوى الإسلامية على وجهها الحقيقي. وكلّ محاولة تحصر الإسلام في هذه التجربة أو تلك لا يمكن أن تعتبر إلاّ محاولةً محدودةً قاصرةً عن استقصاء المعاني الإسلاميّة في عظمتها وجلالها. ولعلّ هذا هو مدار محاولات المستشرقين وبعض المسلمين المتشبّثين بأذيالهم عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ عندما حصروا الإسلام فيما شاهدوه من تخلّف المسلمين في القرنين الأخيرين، بينما الإسلام أعظم بكثير من أن يحصر في هذا الإطار الضيّق الذي لا يمثّل إلا جزءاً ضئيلاً من ماضيه، ولا يمثّل أبداً إمكاناته وطاقاته المستمدّة من الوحي الإلهي أولاً ومن عزيمة المسلمين ثانياً.

وكثيراً ما ابتعد المسلمون عن دينهم أو تنكّروا له، وكثيراً ما أوّلوا التعاليم الإسلاميّة فأصابوا أو أخطؤوا، وكثيراً ما استعملوا هذه المؤسّسة أو تلك للقضاء على جوهر إيمانهم لا لخدمته. كلّ هذا موجودٌ، وعلى الباحث الاجتماعي النزيه أن يعيننا على تقييمه، وتقويم ما اعوجّ من مسالكه.

وعلى هذا الأساس ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار كلّ ما كتب فينا وعلينا، وأن ندرس حتّى خرافات المستشرقين حولنا! - ونحن لم نتعرّض في هذا العرض المتواضع إلا لبعضٍ منها - لأنّ في ذلك حافزاً على النّقد الذاتي وعلى اليقظة المستمرّة وعلى الإخلاص لأمّتنا بإعادة النّظر في شؤونها ومحاولة فهم أوضاعها حتى نقوم بواجب الأمانة، وندافع عن تعاليم ديننا الحنيف...

والله ولي التوفيق

الاستشراق الاستعماري وصورة العربي المشوّهة

بقلم «محمد عبيدو»[1]

منذ قرون عديدةٍ رسم الغرب صورةً ذهنيّةً معنويّةً سيّئةً عن العرب، محكومةً بنمطيّةٍ ثابتةٍ جامدةٍ، لا تاريخيّةٍ ولا متبدّلةٍ، كانت نتيجةً أساسيّةً من نتائج الحروب الصليبيّة وما رافقتها من صراعات دموية زادت الحقد في النفوس. ثمّ أسهم في إبراز خطوطها، حالة الصراع الدائم بين العرب والغرب من خلال السيطرة الاستعماريّة الغربيّة، حيث شهدت المنطقة العربيّة ثوراتٍ عدّة ضدّ المستعمرين الغربيّين، أدّت في مرحلةٍ من المراحل إلى إجبارهم على حمل عصيّهم على كواهلهم والرحيل عن هذه الأرضِ كاظمي الغيظ.

ثمّ استعرَت حركة الصراع الوجودي بين العرب والصهاينة في المنطقة، فزادت بمداخلاتها الغربيّة الاستعماريّة الحديثة، وبالحرب النفسيّة والدعائيّة الصهيونيّة ضدّ العرب من قتامة صورة «العربي» في ذهنيّة الغرب. فقد استطاعت الدعاية الصهيونيّة - بفضل العوامل السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والدوليّة بالإضافة إلى الظروف المحليّة في المنطقة - أن تبثّ صورةً مشوهةً عن العرب من حيث خصائصهم ونظمهم ومعتقداتهم، ممّا أدى في نهاية الأمر إلى إيجاد صورةٍ نمطيّةٍ عربيّةٍ في أذهان مستقبِلِ الرسالة الدعائيّة تتّسم بالتشويه والكذب. ولكنّ تكرار مرتكزات المنطق الدعائي وتلقينه، أدّى إلى رسوخها في ذهن المستقبل الأجنبي وخاصّة الغربي.

بالإضافة لعوامل عديدة ساعدت على ما تقدّم ترجع إلى الميراث التاريخي الخاصّ بالحروب الصليبية والعصر الاستعماري والكتابات الغربيّة المشوّهة. فهناك وجود الهوّة الإعلامية بين العرب والغرب، وأثر الوجود الصهيوني في دول العالم من حيث وجود الجاليات اليهوديّة واتصال هذه الجاليات بمركز الثقل السياسي عن طريق صناعة القرارات، ممّا شوه الصورة النمطيّة العربيّة.

(1) «محمد عبيدو» صحفي وكاتب من سورية، يهتمّ بالدراسات الأدبيّة والسياسيّة.

ومنذ قرون عديدة والحكايات والأخيلة والأشباح تتعاقب في المشهد الذهني الأوروبي عن العربي الممسوخ المستبدّ المتآمر والبربري المتعطش للدماء. وكما كتب المفكر التونسي «هشام جعيط»: «الأحكام المسبقة المضادة للعرب والإسلام تجذرت في اللاشعور الجماعي للغربيين عند مستوىً هو من العمق بحيث نخشى ألّا يتمكن أحد من استئصالها ذات يوم أبداً». «فلا العقل ولا التجربة الذاتية الملموسة يستطيعان ضدها شيئاً».

منذ بدأ الاستشراق، ظلّ الشرق مسرحاً مغلقاً يجسّد فيه الممثلون والكومبارس مجموعةً من الرموز والصور النمطيّة لدى الجمهور والمؤلف. فالمستشرق يتملّكه شعورٌ لا يتزحزح بتفوّق ثقافته الأصليّة، هذا الشعور الذي تحوّل إلى قناعة قام بتحليلها كلٌّ من «أنور عبد الملك» في كتابه **الاستشراق في أزمة**، و«إدوارد سعيد» في كتابه **الاستشراق**، في محاولة منهما للقراءة في الأسباب التي دفعت الكثير من المستشرقين للنظر إلى الثقافة التي يدرسونها بتعالٍ واحتقار، لنرى أنّ هذه «القناعة» تذهب إلى حد العداء السافر.

يذكر «إدوارد سعيد» في كتابه **الاستشراق** حادثةً مهمّةً للغاية وذلك بقدر ما تشير إلى حالات مماثلة، أو ربما حالاتٍ أكثر تعقيداً وخطورةً. يقول: «كان الزي المخصص لحفل «لمّ الشمل» في جامعة برنستون عام 1967م قد صمم قبل حرب حزيران، على أن يكون عربيّاً، وهو ثوب ولباس رأس وصندل، وبعد الحرب مباشرةً صدر مرسوم بتغيير الخطط الموضوعة، وقضت الخطة الجديدة بأن يسير الخريجون المحتفى بهم وهم يرتدون الزيّ، كما كان مقرراً في الأصل، في موكب رافعين أيديهم فوق رؤوسهم بحركة تعبر عن الهزيمة».

ستتغير الصورة بعد ذلك بعدة سنوات؛ ففي عام 1973 برزت بانتظار رسوم ورقية تصور شيخاً عربياً يقف وراء مضخة بنزين، لكن هؤلاء العرب كانوا بخلاء (ساميّين)، وكانت أنوفهم المعقوفة والنظرات الشذراء الخبيثة تذكيراً واضحاً لجمهورٍ غير ساميٍّ في معظمه، بأنّ الساميّين كانوا يقبعون تحت كلّ مشكلاتنا

ومصاعبنا، والصورة التي تقدّم عن العربي يمكن اختزالها إلى كونه «عقبة» تمّ تجاوزها لخلق «إسرائيل» عام 1948، وأنّ تاريخه - إن كان له تاريخٌ - ممنوحٌ له من قبل التراث الاستشراقي.

إنّ العربي كما يظهر في السينما الأمريكية هو كما ينقل «إدوارد سعيد» حرفياً: سادي، خؤون، منحط، تاجر رقيق، راكب جمال، صرّاف، وغد، متعدد الظلال.

ويكتب «ايميت تيرل» في مجلة هاربر الأمريكية:

«إن العرب أساساً قتلة، والعنف والخديعة محمولان في المواريث العربية».

إنّ المرء ليتساءل وهو يقرأ الصورة المبثوثة للعربي في المرجعيّات الأمريكية: أيهما يتأثر بالآخر، الأدب والفكر الصهيونيان أم هذا الاستشراق الوليد كصنوِ مؤسسةٍ وضعت التوسّع ومرونة الحدود والهيمنة في مقدّمة استراتيجيتها.

مستحضرين صورة العربي على الشاشة من خلال مخيّلتهم الجمعيّة، يقوم الأمريكيّون بتقديمها على أنّ صاحبها العربي يقوم بأعمالٍ شنيعة ويتلقّى في النهاية العقوبات الفظيعة. والسينما الأمريكيّة قد زاوجت منذ ولادتها منذ قرنٍ مضى بين أفلامها وبين صورة العربيّ المشوّهة التي خلقتها مخيّلتها. ومن هنا يمكن أن نقول: إنّ النظرة السينمائيّة الغربيّة عموماً والأمريكيّة خصوصاً للعربي كانت على الدوام نظرةً عنصريّةً، مع وجود استثناءات قليلة جداً. فالعربي في تلك الأفلام هو البدوي الذي يركب الجمال، ينتقل من مكان لآخر لا يتشبّث بأرضٍ أو وطنٍ ولا يعرف الزراعة والاستقرار... إنسانٌ انتهازيٌّ مصلحيٌّ لا يتورّع عن الغشّ والخيانة والقتل من أجل مكاسبه الشخصية... إلى آخر ما هنالك من الصفات الوضيعة التي طغت على صورة الهندي الأحمر، والإفريقي الأسود، والآسيوي الأصفر في الأعمال السينمائيّة، التي درات في الغرب الأمريكي أو القارّتين الآسيويّة والإفريقيّة.

في مقابلة مع رويتر قال «جاك شاهين» أستاذ الإعلام في جامعة ايلينوي الجنوبية، ومؤلف كتاب **العربي في التلفزيون الأمريكي**: إنه منذ الأيام الأولى لصناعة السينما تركّزت سيناريوهات الأفلام العرب على «الشيخ الثري الفاسد المخادع المعقوف الأنف الغارق في الملذات». وأشار شاهين إلى فيلم «الشيخ»، الذي تم إنتاجه في عام 1921 بطولة «رودولف فالنتينو»، وكان يقوم على فكرة ما زالت تتكرّر في الأفلام حتى الآن، وهي أنّ العرب يعيشون في الصحراء ويركبون الجمال ويتقاتلون فيما بينهم ويشترون النساء من أسواق الرقيق.

وتتّهم أفلامٌ حديثةٌ الشيوخ باستغلال ثروات النفط الضخمة للإضرار باقتصاد الولايات المتّحدة والتأثير على سياستها الخارجيّة. ويضيف «شاهين» قائلاً: إنّه في السبعينات والثمانينات ظهر إلى جانب نموذج «الشيخ» نمطٌ آخر وهو «الإرهابي»، الذي يصوّر الفلسطيني على أنّه قاتلٌ مجرّدٌ من الإنسانيّة يوجّه إرهابه إلى الأوروبيين والأمريكيين والصهاينة. وقال «شاهين»: إنّ هذه الأنماط منتشرةٌ في السينما لدرجة أنّه وجد صعوبة في التقاط عشر مواصفات إيجابيّة للعربي في أكثر من 450 فلماً قام بتحليلها.

وذكر شاهين أنّ التلفزيون الأمريكي لا يختلف عن السينما. حيث أنّ حلقةً من مسلسلٍ تلفزيونيّ كان يُعرض في الآونةِ الأخيرةِ أظهرت شيخين يحاربان بعضهما في الصحراء. عرف المشاهدون من الحلقة أن العرب يعيشون في خيام ويرتدون ملابس فضفاضة وسراويل منتفخة...

وأضاف شاهين يقول: إنّه عندما تتعرض المسلسلات للعرب فإنّها تصوّر شيوخاً يأخذون رهائن أمريكيين، ويقتلون مواطنيهم العرب، ولهم حريم، ويضّطهدون النساء، ويسيل لعابهم على الشقراوات الغربيات. وقال «شاهين»: نحن في الولايات المتحدة وأعتقد في معظم أنحاء أوروبا نشأنا على قبول

وتصديق هذه الصور؛ لأنّها الوحيدة التي تمّ عرضها، وسيناريوهات الشاشة مرجع مرئي.

إن هذه المراجع المرئية تتجاهل الغالبية الكبرى من العرب الذين لم يركب واحد منهم جملاً في حياته أو نام في خيمة أو امتلك بئراً للنفط أو قام بعمل إرهابي. وللتدليل على قوة تأثير هذه الأنماط التي تبرزها السينما والتلفزيون عن العرب تضمن بحث قام به «شاهين» مسحاً سأل فيه 293 مدرساً بالتعليم الثانوي في مختلف الولايات المتحدة الأمريكية أن يذكروا اسم بطل عربي شاهدوه في السينما أو التلفزيون فأجاب كلهم عدا ستة أنه لا يوجد. ويقوم «جاك شاهين» في كتابه **العربي في التلفزيون** بتحليل عددٍ كبيرٍ من المسلسلات والبرامج التلفزيونية التي تحاول الإساءة للعرب وتشويه صورتهم، هذه البرامج التي لا تعرض في الولايات المتحدة الأمريكية فحسب وإنما في العالم كله أيضاً، بما في ذلك العالم العربي أحياناً. ومن هذه المسلسلات: «فيغاس»، «من المجرم»، «الفتيات الأمريكيات»، «اليانصيب»، «ماكلود»، «المرأة الشرطية»، «ملفات روكفورد»، «طرزان»، «مساء في بيزنطة».

إنّ صورة العربي في الأفلام الأمريكيّة هي تجسُّدٌ للفكر الاستعماري. وهذه الأفلام تصوّر فكرة التغلغل الاستعماري كما وصفها «إدوارد سعيد» في **الاستشراق**. على المستوى الجمعي تسلّل الأوروبيّون في الشرق الأوسط حتّى داخل الأماكن المحظورة، كالمعابد والأضرحة، والحريم، وعلى المستوى الفردي، يحظر على العربي «الخطير» المشرع المدى و«الشبق جنسياً» التغلغل. وبدلاً من هذا يجري التغلغل إلى داخله، فهو المصاب بعيار ناريّ أو مطعونٍ بمديةٍ أو بسيفٍ يدخل من طرفٍ إلى آخر في جسده. أمّا المرأة العربيّة فيتمُّ إغراؤها بسهولة. وأضيفت إلى هذه صورة العربي الإرهابي الجالس على

بئر نفط. هكذا تصوّر أفلام أمريكا منذ مطلع القرن العرب وتشوّه صورتهم أمام الرأي العام الأمريكي والعالمي.

نظرة عنصرية واضحة تعطي العربي دوماً صورة مكروهة، وفي أحسن الحالات يكون مجرّد خلفيّة فلكلورية لأحداثٍ يلعبها الأوروبي أو الأمريكي الأبيض النظيف الوسيم والمثقف الحضاري!! ولا أريد في هذه العجالة - بل لا أستطيع - أن أتكلّم عن جميع الأفلام من هذا النوع التي خرجت من هوليود - بصورة رئيسة - ومن السينما الغربية بشكلٍ عام. ولكنّني أكتفي بالتحدث عن بعضها لإعطاء القارئ نماذج عنها.

فيلم «الجنة»: في فيلم «الجنة»، قامت الصهيونية متمثّلة بالمخرج «ستيورات كلنارد» باقتباس القصة الخيالية «روبنسون كروزو»، ولكن بمسحة توراتية. فهو قد أخذ الحدث الدرامي والذي يفرض على «روبنسون كروزو» العيش في جزيرة دون أي اتّصالٍ بالآخرين. على هذا الحدث قام كاتب السيناريو «ستيورات كلنارد» ببناء فيلمٍ أراد أن يكون مسيئاً بشكلٍ مباشر للشخصيّة العربيّة وتقديم اليهود بشكلٍ حضاري غير مباشر. في هذا الفلم لم يكن عدو «روبنسون كروزو» البحر ولا العاصفة، وإنّما كان الأمير العربي المزعوم «عزيز» الذي يطارد «ديفيد» و«سارة» في هذه الصحراء القاسية. وقد اعتمد الفيلم في بنائه على مستويين.

المستوى الأول: تلك العلاقة بين كلٍّ من «ديفيد» و«سارة»، التي بدأت بنظرة إعجابٍ لمعارضته معاملة الفتى الهندي بشكل سيّء، وتطوّرت هذه العلاقة من خلال الظروف المتشابهة التي عاشها كل منهما من حيث وحدة الحال ووحدة المصير والمواجهة، وتطورت إلى حب عميق وساعدهم على الاستمرار في طريقهم الصعب الطويل.

والمستوى الثاني: هو تلك المطاردات المتكرّرة والمتشابهة، والتي قصد المخرج منها التأكيد على الصورة البشعة للإنسان العربي، وخلق حالة من التوتّر والكراهية عند المشاهد لهذا النموذج. كما قدّم الفرد العربي على أساس أنّه فاجر وماجن. فهو بعد أداء الصلاة نجده يقيم الحفلات الراقصة والماجنة. كما قدّمه على أساس أنّه خائن وغادر حتّى لأقرب الناس، فهو لا يتورع عن قتل حتى أصدقائه دون أن يشعر بأيّ إحساس بالذنب، في محاولة من الفيلم لتعبئة المشاهد وشحنه بالحقد والكراهية.

فيلم «بوليرو» إخراج «جون ديريك» وتمثيل «جورج كندي» - «بوديريك» - «أندريا كوهين». خطورة فيلم «بوليرو» تأتي من خلال طرح الشخصيّة العربيّة في الفيلم من أنّها شخصيّة مهزوزة نفسيّاً وسلوكيّاً وسيكولوجيّاً من الأعماق، وأنّها لا تمثل في الواقع إلا هذا الانهزام.

وفيلم «بوليرو» إذ يتحدث عن هذه الشخصية العربية عبر المشاهد الأوليّة في الفيلم. ويقدّم العرب كمجموعةٍ من قطّاع الطرق تعيش في الصحراء ليس لها مكسبٌ إلا بالنّهب والسرقة والمجون في أكثر مجالات حياتها. ويتزعّم هذه المجموعة من الناس شخصٌ قويّ البنية معقّد السلوك لا يجد إلا الجنس والمجون لحلّ مشاكله الخاصّة، واسمه في الفيلم «الشيخ». وإقحام هذه الشخصيّة في الفيلم نوعٌ من الغباء والاستخفاف بعقل المشاهد، فلا تظهر هذه الشخصيّة إلا في بداية الفيلم ولا تؤثر على مجريات الأمور في أحداث الفيلم.

لقد كان هناك دائماً في كلّ الأفلام المناهضة للشخصيّة العربيّة شخصيّة معيّنة يحرص عليها السينمائيون الغربيون حرصاً واضحاً. وكانت هذه الشخصيّة هي شخصيّة العربي «تاجر العبيد». إنّ سلوك هذه الشخصيّة وتصرّفاتها كلّها أمورٌ تجسّدها لنا الأفلام الغربيّة وتوضّح معالمها بشكلٍ ظهر من خلال ممثّلين لهم قدرتهم على تجسيد الشخصيّات الكاريكاتوريّة، ومن هؤلاء الإنكليزي

«هاري أندروز» في فيلم «ليزا» 1961، والألماني «بيتر لوري» في «5 أسابيع في بالون» 1962، أو الممثل الروسي الأصل «بيتر أوستينوف»، الذي لعب شخصيّة تاجر العبيد «سليمان» في فيلم «أشانتي» 1979 للمخرج «ريتشارد فلينشر».

فيلم «أشانتي»: تختفي زوجة دكتور جاء إلى إفريقيا للتخفيف عن أهلها، ويكتشف أنّ الذي خطفها هو - كما يزعم - تاجر عبيد عربي. ويستعين بالهليوكبتر، ولكن رجال التاجر العربي يسقطون الطائرة ويقتل قائدها. ثمّ يتعرف الزوج على شاب آخر يساعده في البحث عن زوجته، ولكنهم يعثرون عليها حيث يكون التاجر قد باعها إلى أمير عربي. وبعد معركةٍ داميةٍ يتمّ تحرير الزوجة ويتمّ قتل التاجر العربي والأمير العربي.

والفيلم لا يكتفي باختلاق الأحداث، ولكنّه يجعل العرب في مواجهة مع هيئة الأمم المتحدة نفسها التي يمثّلها في المناطق الإفريقية الدكتور «دافيد» وزوجته السوداء من أجل إنقاذ الإفريقي الأسود من الأمراض والأوبئة، في نفس الوقت الذي يتسبب العرب في كل المآسي التي تصيب الإفريقي.

ومن الأفلام التي حاولت تشويه الصراع العربي الصهيوني نذكر: فيلم «الأحد الأسود»: الفيلم مأخوذ عن قصة بذات الاسم للكاتب الأمريكي «توماس هاريس»، وقد اعتبرت هذه القصة في حينها واحدة من أفضل الكتب مبيعاً وانتشاراً في أمريكا، وقد ادّعى الكاتب حينها بأنّه تفرغ لكتابة القصة بعد سلسلة من الأبحاث التي أجريت حول موضوعها ما بين بيروت وفلسطين المحتلة وبعض الدول العربيّة إلا أنّ هذا الادعاء سرعان ما يبدو هشاً من الأساس.

تبدأ أحداث الرواية والفيلم في بيروت - وبالمناسبة هناك فارق كبير ما بين الكتاب والفيلم - الذي اختصر العديد من تفاصيل الأحداث للكتاب وخلفيات الأشخاص الرئيسيّين فيها. حيث مجموعة فدائيّة تخطط لعمليّة في الولايات

المتحدة الأمريكية، وذلك بتفجير أحد الستادات الرياضيّة التي تتّسع لمئات الألوف من البشر، وحيث سيحضر رئيس الولايات المتحدة المباراة. بذات المفهوم الديماغوجي المفضوح يحاول فيلم «الأحد الأسود» أن يبتزّ مشاعر الناس بمثل هذا التشويق الساذج، فبالنسبة للفيلم ليس العرب والفلسطينيون بالذات إلا مجموعة من القتلة الذين يقتلون بدمٍ بارد.

الفصل الثالث
منافع الاستشراق

ينسب أنصار الاستشراق إليه العديد من المنافع والإضافات العلميّة ويحدّون من أضراره ومفاسده، بل يجعلونها هامشيّةً وذائبةً في بحر فضائله ومحاسنه. ويركّز أصحاب هذا الرأي على الإضافات العلميّة التي قدّمها الاستشراق للإسلام وللعرب من نشر الكتب التراثيّة وتصنيف البحوث التحليليّة. وقد اخترنا مقالين يجسّدان هذا المذهب. ويشكّل هذا المذهب امتداداً لما قدّمه الدكتور «زكي مبارك» من نصرةٍ للاستشراق وأعلامه.

قدّم «أحمد حسين» نماذج لفضائل الاستشراق وللإضافة القيّمة التي قدّمها الاستشراق كنشر الكتب التراثيّة في مختلف المجالات العلميّة، مع الإضاءة على المساهمة المميّزة للمستشرق «فنسنك» في كتابه الجليل مفتاح كنوز السُّنة عارضاً لنماذج من كيفيّة تلقّي علماء المسلمين لهذه المساهمة العلمية بالقبول. كما عرض لتطوّر الاستشراق وواقعه الحالي (في زمن الكاتب) مع بيان بعض الشوائب التي علقت به في بعض الفترات، إلّا أنّه قد تجاوزها ليصبح مجالاً بحثياً في الجامعات الغربيّة يُعنى بدراسة اللغات الشرقيّة ومجتمعات الشرق وعاداته. وفي ذات التوجّه، يعرض «محمد توفيق حسين» مساهمة الاستشراق في تحقيق ونشر الكتب التراثيّة وذلك في مقالٍ موسّع له، نقتصر على جزءٍ منه تفادياً لتكرار ما سبق عرضه.

فضل المستشرقين
على نهضة الفكر الإسلامي

بقلم «أحمد حسين»

وقع في يدي عدد خاص أصدرته **مجلة الهلال** عن الاستشراق والمستشرقين. وهو جهدٌ جدير بالتقدير والشكر لكل من ساهم فيه وساعد على تجسيده.

ولن يستطيع أي باحثٍ إسلاميّ، في عصر النهضة الإسلاميّة الحديثة، إلا أن يعترف بالفضل للكثيرين من المستشرقين الذين كانوا بلا جدال أو شبهة حجر الزاوية فيما يمكن أن نسميه «حركة الإحياء في التأليف الإسلامي». وعندما يشرف كاتب مثلي على السبعين (70 سنة) تصبح أكثر آرائه مستمدّةً من تجاربه الشخصيّة. فإنّي أعتبر على سبيل المثال أنّ من أعظم المصنّفات التي قام بها عالمٌ مصريٌّ هو **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، والذي أعدّه الأستاذ الكبير «محمد فؤاد عبد الباقي». وطالما نوهت في كتاباتي بالدَّيْن العميق الذي يُدايِنُني به، فلولا معجمه لما أقدمت على تفسير القرآن، ذلك أنّه يسّر لي الكشف عن أيّ لفظ من ألفاظ القرآن وكيفيّة استخدام القرآن الكريم لهذا اللفظ في مختلف آيات القرآن. وسيبقى هذا الفهرس الذي وضعه «محمد فؤاد عبد الباقي» نبراساً يسترشد به كلّ باحثٍ في القرآن الكريم. فعندما يقول لنا هذا العلاّمة الورع أنّ الفضل في وضع مصنَّفه يرجع في الدرجة الأولى إلى المستشرق «فلوجل»، فقد كان هو أوّل من وضع فهرساً لألفاظ القرآن منذ أكثر من مائة سنة، ولأنقل لك نص عبارته التي سجلها في مقدمة مصنفه العظيم. يقول العلامة محمد فؤاد عبد الباقي: «وإذا كان خير ما ألّف وأكثره استيعاباً في هذا الفن دون منازعٍ ولا معارضٍ هو كتاب **نجوم الفرقان في أطراف القرآن** لمؤلفه المستشرق «فلوجل» الألماني، الذي طبع أول 1842 ميلادية فقد اعتضدت به وجعلته أساساً لمعجمي».

وهكذا أبى ورع هذا العلاّمة ودينه وتقواه إلاّ أن يثبت الفضل الأوّل في وضعه لمعجمه للمستشرق الألماني «فلوجل». ولو أنّه سكت لما استطاع أحدٌ أن يناقشه الحساب، ولكنّه الورع. والأمانةُ التي تحكم الفضلاء جعلته لا يطمئنّ ولا يرتاح ضميره إلا بعد أن يعترف بالفضل لصاحب الفضل. حقاً إنّ فهرس «عبد الباقي» جاء أصحّ وأكمل وأدقّ وأشمل من عمل «فلوجل»، ولكن ذلك هو الوضع الطبيعي. فأيّ عملٍ بعد أن يكتملَ يصبح من المستطاع دائماً الإضافة إليه وتحسينه، من ذلك مثلاً أنّ مجمع اللغة العربية قد أصدر في السنوات الأخيرة معجم **ألفاظ القرآن** في مجلدين ضخمين، وهو عملٌ يفوق بلا جدال أو شبهة فهرس «فلوجل» ولكن سيبقى جهد «فلوجل» العجيب هو الأساس الذي يسّر هذه الأعمال.

وممّا يتّصل بالقرآن الكريم ما انتفعت به أنا شخصيًّا في كلّ مؤلّفاتي الإسلاميّة كتاب «لابوم»، والذي رتّب فيه آيات القرآن حسب موضوعاتها (التشريع، الجنّة، النار، فروع الأخلاق، قصص الأنبياء.. إلخ). فهذا الكتاب العظيم ييسر لكل باحث الإحاطة بكل آيات القرآن التي وردت في أيٍّ معنى من المعاني.

مفتاح كنوز السُّنة

وإذا كان القرآن الكريم في نهاية الأمر محدود الألفاظ نسبيّاً وهي مجمع عليها، وهي التي يضمها المصحف الشريف المتداول، فإنّ بحر السنّة خضمٌّ متلاطمٌ. ر... الأحاديث الصحيحة خمسة في رأي البعض وستّة في رأي بعضٍ آخر، وثمّة كتب أخرى ذات أهميّة وخطورة. فجاء أحد المستشرقين الهولانديين «فنسنك» ووضع مصنّفاً لا أحسب أنّ له مثيلاً في تاريخ التأليف الإسلامي وهو كتاب **مفتاح كنوز السُّنة** حيث يمكنك بمجرد أن تعرف لفظاً واحداً من ألفاظ الحديث أن تعثر على موقعه من كتب الحديث المعتمدة. ولأدع الكلام

مرةً أخرى لعالم من أكبر علماء الإسلام المحدثين وأعني به المرحوم الشيخ «رشيد رضا» صاحب تفسير المنار، قال: «أما بعد، فإنّ خير ما أعرّف به هذا الكتاب لقراء العربيّة أن أبيّن لهم وجه الحاجة إليه وطريق الانتفاع به وعدم استغناء أعلم علماء الحديث عنه، بل هم أشدّ حاجةً إليه من غيرهم ويتلوهم من دونهم من العلماء فمن دونهم من دهماء القرّاء الذين يقتنون شيئاً من كتب الحديث المشهورة وغيرها، وأنني أستمد هذا البيان من تجربتي واختباري في السنين الطوال لا أقوله بادي الرأي ولا أصطاده من سوانح الاستحسان. ولو وجد بين يديّ مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث لوفّر عليّ أكثر من نصف عمري الذي أنفقته في المراجعة، ولكنّه لم يكن ليغنيني عن هذا الكتاب. فإنّ هذا إنّما يهديك إلى مواضع الأحاديث القولية التي تعرف أوائلها، وهذا يهديك إلى جميع السنن القولية والعمليّة وما في معناهما كالشمائل والتغريرات والمناقب والمغازي وغيرها. فلو كان بيدي هو (أي الكتاب) أو مثله من أول عهدي بالاشتغال بكتب السنّة لوفّر عليّ ثلاثة أرباع عمري الذي صرفته فيها، ولكنّني للاستجابة لمن اقترحوا علي أن أضع كتاباً جامعاً للمعتمد منها وكتاباً آخر للمشكل منها في نظر علوم هذا العصر وفلسفته والجواب المقنع عنه».

من هو رشيد رضا؟

ولست ألوم شباب العصر ورجاله إذا هم جهلوا قدر هذه الشهادة لجهلهم من هو الشيخ «رشيد رضا». فهو تلميذ الشيخ «محمد عبده» وحافظ علمه واجتهاداته، ولكن الشيخ «رضا» انتهى به الأمر إلى أن يصبح من أعظم علماء المسلمين المعترف بعلمهم الغزير وفضله وورعه، بحيث أصبحت مجلة المنار ومطبعتها اسماً على مسمّىً استضاء بها العالم الإسلامي في نهضته الحديثة. ولعلّ ذلك الآن يظهرك على قدر هذه الشهادة التي زكّى بها كتاب مفتاح كنوز

السنة للمستشرق «فنسنك». ولقد طالعت للشيخ رشيد رضا في أخريات حياته مآخذ قويّة يأخذها على كتاب مفتاح كنوز السنة ويأسف على أنّه أسرف في الثناء على الكتاب وذلك طبيعي جداً. فما كان لمستشرقٍ غير عربي وغير المسلم ألا يقع في أخطاء وألّا يتفوّق عليه الشيخ «رشيد رضا» بعد أن امتدّ به العمر ووصل إلى ما وصل إليه من العلم والمعرفة، على أنّه لا كلام الشيخ رشيد رضا ولا غيره من الأقوال، التي قيلت في الإشادة بهذا الكتاب ما أظهرني أنا شخصيّاً على عظمة هذا الكتاب بقدر ما أظهرني عليه، عندما ذهبت لزيارة صديقٍ لي يعمل أستاذاً في جامعة المدينة المنورة. وصديقي هذا من أشهر علماء الحديث وأورعهم، ومن أجدرهم بالاحترام لعلمه وتقواه وشجاعته. فلفت نظري وجود عديد من «المجلدات» على مكتبه، فأجابني بأنه مفتاح كنوز السنة. وهنا تأكّد عندي ما قاله «رشيد رضا» من أنّه لا غنى لعالمٍ إسلامي عن هذا الكتاب.

وكتب السيرة النبوية

وإذا كان ما تقدم هو بعض ما قام به المستشرقون في سبيل تيسير البحث في القرآن والأحاديث، فإنّ لهم الفضل الأكبر في بعث مصادر السيرة النبويّة الأولى، وأعني بها سيرة ابن هشام هي تسجيلٌ لـسيرة ابن إسحاق، وكذلك كتاب طبقات ابن سعد تلميذ «الواقدي». وكلا المصدرين هما أقدم مصادر السيرة النبوية على الإطلاق.

والتاريخ الإسلامي

ويعتبر تاريخ الطبري أقدم موسوعة في التاريخ الإسلامي، وهو كتابٌ ضخم في عدّة مجلدات. ومرة أخرى، كان المستشرقون هم أوّل من طبع هذا الكنز الثمين وقدّموه لنا معاشر الكتّاب المسلمين والعرب. وأنا - كما قدّمت - أتحدّث

عن تجربتي الشخصيّة وكيف كان كلّ اعتمادي على المصادر الإسلاميّة الأولى التي ما كان يمكن أن تتهيّأ لنا لولا جهود المستشرقين.

ولا شك أن المشتغلين باللغة وبالأدب قد صادفوا من جهود المستشرقين مثل ما صادفنا.

كُتّاب مسلمون عادوا للكتابة الإسلامية

وتغصّ الآن المكتبة الإسلامية العربية بمؤلّفات الدكتور «محمد حسين هيكل»، و«عباس محمود العقاد»، والدكتور «طه حسين» عن سيرة سيّدنا «محمد» وسيرة خلفائه. وقد لا يعلم الكثيرون (جدّاً جدّاً[1]) أنّ الفضل في عودة هؤلاء الكتّاب إلى حظيرة التأليف الإسلامي يعود إلى المستشرقين أولاً وأخيراً. فقد بدأ هؤلاء الثلاثة حياتهم الفكرية والعلمية من منطلق الرفض للتراث الإسلامي جملةً، وشنّوا ما يشبه أن يكون حرباً صليبيّةً فكريّةً على كلّ ما هو قديم، وأطلقوا على كتب التراث التي كانت تدرّس في الأزهر ويتداولها الشعب باعتبارها كتباً صفراء لا تحوي إلاّ خرافةً أو تفاهةً أو معارف عفى عليها الزمن. وفي كلِّ الأحوال، فإنّ المكان الطبيعي لهذه الكتب الصفراء هو سلّة المهملات أو أن يستفاد بورقها في أن تحرّق كوقود. وعليك أن تتصور كيف كانت دهشتهم عظيمةً - دهشةٌ وصلت إلى حد الصدمة - عندما وجدوا الأساتذة الكبار من المستشرقين ينفقون عشرات السنين، بل ويكرّسون حياتهم كلّها من أجل العثور على نسخةٍ خطيّةٍ من هذا الكتاب أو ذاك، ثمّ تحقيقه وتصحيحه وإعداده بعد ذلك للطبع والنشر، وكيف يحدث ذلك ضجّةً كبرى في وسط المستشرقين. وتحوّلت الدهشة والصدمة عند هذا النفر من كتّابنا الأعلام ومن هم على

(1) المحرّر: هكذا وردت في الأصل.

غرارهم في شتّى أنحاء العالم العربي والإسلامي إلى استطلاع وتشوّق لهذا الذي يفعله المستشرقون، فإذا بهم يعرفون أنّ هذه الكتب التي سخروا منها جديرةٌ بكلّ احترامٍ وتقديرٍ وأنّها مراجع كأوثق ما تكون المراجع لكلّ ما هو أوروبي، وتعلموا كيف يرجعون لهذه الكتب الصفراء. ولمّا كانوا قد طالعوا لهؤلاء المستشرقين أو لمن تلقّى معارفه عنهم كتباً في السيرة النبويّة وتاريخ الإسلام بل والدين الإسلامي نفسه، وهم يستندون، في كلّ ما كتبوا، على هذه المصادر الإسلاميّة، فقد رجع كتّاب العالم الإسلامي والعربي الأعلام إلى هذه المصادر. وسرعان ما اكتشفوا أنّ فيما يكتبه المستشرقون كثيراً من الأخطاء إمّا بحسن نيّةٍ - ولكن جاءت من عجزهم عن فهم القرآن وأسرار الدين واللغة العربية -، وإمّا بسوء نيّةٍ لخدمة أغراضٍ معيّنة. وفي كلتا الحالتين وجدوا في أنفسهم القدرة على التـأليف في سائر الأبواب التي يؤلّف فيها المستشرقون، وأن يعملوا كلّ ما يعملون في البحث عن الكتب القديمة وتحقيقها وتصويبها ثمّ نشرها على العالمين. وهكذا انبعثت حركة الإحياء في التّأليف العربي والإسلامي. وبعد أن وضع العرب والمسلمون أقدامهم على أوّل السلّم، فالصعود بعد ذلك سهلٌ وهيّنٌ، وهي مسألة زمن أولاً وأخيراً. والفضل في ذلك كما ترى للمستشرقين الذين لم يدلّونا على الطريق فحسب بل ارتادوه لنا.

أصول الاستشراق وتطوره

بقي أن نعود إلى أصول الاستشراق كيف بدأ وكيف تطوّر وسيظلّ يتطوّر تبعاً للظروف والأحوال.

بدأ الاستشراق في أوروبا بمعنى دراسة اللغة العربيّة، وبمجرّد أن استقرّت الحضارة الإسلامية في إسبانيا «الأندلس»، فحيث كانت إسبانيا صورة رائعة للحضارة والتمدن، كان الحال في أوروبا على ما كان عليه ممّا تحدّثنا عنه

في مقالات سابقة والذي يتلخّص في عبارة واحدة أطلقها الأوروبيون أنفسهم فسمّوها «العصور المظلمة». في هذه الفترة (حوالي القرنين الثامن والتاسع الميلاديين) ولد الاستشراق، فقد كان من غير الطبيعي أن تكون إسبانيا بكل هذا النور وأن (تظل)[1] جيرانها في الظلام، فتعلَّمَ العربيةَ كلُّ من يريد أن يكون عالماً. ويحدّثنا التاريخ عن مركزٍ كبير في مدينة «طليطلة»، من أعمال إسبانيا، كانت مهمته ترجمة الكتب من العربية. وفي هؤلاء المترجمين يجب أن نبحث عن «أجداد المستشرقين».

ثمّ كانت الحروب الصليبية وما جرّته في ثناياها من حربٍ عقائديّة وكلاميّة. وهنا لا بدّ أن يكون الاستشراق قد تحوّل إلى أحد أساليب الحرب حيث لا يكون له سوى هدفٍ واحدٍ وهو هَجْوُ الخصم وتشويه صورته، بحيث يبدو بشعاً كريهاً. ولهذه الفترة يجبُ أن نعزو كلّ هذا الحشد من السخافات والترّهات والإسفاف الذي وُصِفَ به الإسلامُ والمسلمين وبخاصّة نبيّ المسلمين.

ثمَ جاء عصر التنوير

وخفّت ريح الحروب الصليبيّة وخفّت معها ريح التعصّب، وبدأ في ذات الوقت مقدّمات عصر التّنوير في أوروبا، فنجد أنفسنا من جديدٍ أمام نماذج تاريخيّة صارخةٍ. فإمبراطور ألمانيا «فردريك الثاني» يجيد اللغة العربيّة إجادةً تامّةً ويحوّل بالرمو (عاصمة جزيرة صقلية) إلى مركزٍ للترجمة عن علماء المسلمين الذين جمعهم «فردريك الثاني» للأخذ عنهم. ونرى «كليمنت الخامس» أحد باباوات روما يجيد العربية بدوره، ويصدر أمره بتدريسها في الجامعات التي تخضع لسلطانه، وعلى رأسها جامعة روما وباريس وغيرهما. ومن هنا كان للاستشراق جذور عميقة في إيطاليا وألمانيا وإسبانيا.

---

(1) المحرّر: هكذا ورد في الأصل، وربما من الأنسب أن يكون: «وأن يظلّ جيرانها في الظلام» ليستقيم المعنى والنصّ.

ثم جاء عهد الاستعمار

وبمجيء عهد استعمار أوروبا للشرق بدأ رجال الحكم والسياسة يشجّعون الاستشراق من جديدٍ ليستفيدوا منه في مشروعاتهم فائدة مزدوجة:

الأولى: معرفة أقصى ما يمكن معرفته عن «خلفيّة» هذه الشعوب المستعمرة من حيث التقاليد والعادات والثقافة، للاستفادة من ذلك كله في حكم هذه الشعوب.

الثاني: أمّا ثاني أهداف الاستشراق في هذه الفترة فهي محاولة التبشير بالمسيحيّة لنشرها وسط هذه الشعوب.

[ولهذه الحقبة من الاستشراق، بدأ المستشرقون من الإنجليز والهولانديين][1] ووجد اليهود طريقهم ليكونوا من أساطين الاستشراق.

ولم تلبث فورة الاستعمار أنْ هدأت وتصوّرت الدول الاستعماريّة أنّ الأمور قد استقرّت، ولكنّ الاستشراق مضى في طريقه كفرعٍ أصيلٍ من أصول المعرفة الإنسانيّة. وهنا ضغطت قوة التعاليم الإسلامية ونصاعتها وتفوّقها على كلّ ما نادى به البشر من مبادئ، وما انبثق نتيجةَ ذلك من حضارةٍ آزرتْ بكلٍّ ما سبقها من حضاراتٍ، فلا تفرقةَ بسبب الطبقة أو الجنس أو اللون وإنّما تراحمٌ وتلاحمٌ بين سائر أفراد المجتمع. وانبهر المستشرقون بذلك كلّه فكتبوه في كتبٍ متخصّصةٍ بلغاتِ أقوامهم، وعنهم نقل كثيرٌ من أعظمِ المؤلّفين الأوروبيين والأمريكان وأشهرِهم. فراحوا يشيدون بفضل علماء المسلمين وما أضافوه للعلم والحضارة.

الاستشراق اليوم إلى أين؟

واليوم من المحقّق أنّ الاستشراق بمعناه القديم قد خبا، لم تعد له سطوته القديمة في جامعات أوروبا، وحلّ بدلاً عنه مدارس ومعاهد لتعليم اللغة العربيّة. وعلى الأوروبي والأمريكي الذي يرغب في المزيد أن يتّجه صوب

---

(1) المحرّر: كذا ورد في الأصل، وهذه عبارة ركيكة المبنى ناقصة المعنى.

الشرق نفسه، صوب البلاد العربية ومعاهدها وجامعاتها. فبمجرّد أن أخذ العرب منهج البحثِ الذي بدأه الأوروبيّون فقد حذقوه، وسرعان ما تفوّقوا فيه. فالدين دينهم واللغة لغتهم والتاريخ تاريخهم. وطابق ذلك أنْ غرقت أوروبا وأمريكا في حياةٍ ماديّةٍ بحتةٍ، فكفّتا عن العطاء، وهما تسيران الآن بقوّة الدفع القديمة. وجاء الدور كما بيّنت في مقالاتٍ سابقةٍ على الشرق للإعطاء. ولمّا كانت العلوم التطبيقيّة لا تزال مزدهرةً في الغرب، فقد بدأ المستشرقون يترجمون إلى لغاتهم بعض قصصنا وصنوفاً من أدبنا وليس هذا إلاّ أوّل الغيث.

الإسلام في الكتابات الغربية

بقلم «محمد توفيق حسين»

وبعد فقد يسأل سائلٌ: هل يستحقّ المستشرقون أن ينفق كلّ هذا الوقت والجهد للتحدّث عنهم، والبحثِ في مناهجهم، ودراسةِ مؤلّفاتهم وآثارهم؟ وأجيب، بلا تردد، بـ نعم! على أن نعرف كيف ندرسهم، وكيف ننظر في كتبهم، وماذا نأخذ منهم وماذا ندع.

لقد قام المستشرقون بجمع المخطوطات العربيّة، وفهرستها، وحقّقوا منها ما أمكنهم وما رأوه ضرورياً لدراستهم وأبحاثهم، ونشروها نشراً علميّاً. وقد طبعوا في بلادهم العدد الجمَّ من المؤلّفات العربيّة والمصادر في التاريخ والأدب والتفسير والحديث والفقه. وترجموا إلى اللغات الغربيّة عدداً كبيراً من المؤلّفات العربيّة، ووضعوا المعاجم وكتب القواعد المخطّط لها بطريقةٍ علميّة. وصنعوا مثل ذلك بالكتب المؤلّفة باللغات الإسلاميّة غير العربيّة. وبذلك عرّفوا الغربيّين بتراثنا، ووضعوا النصوص الأصليّة المحقّقة، مع ترجمتها أحياناً، بين أيدي الدارسين الغربيين.

ودرس وتعلّم على أيدي المستشرقين آلاف العلماءِ الاختصاصيّين من العرب والمسلمين، فحملوا علومهم ومناهجهم إلى أوطانهم، وأثّروا في ثقافتها ومناهجها وأساليب تفكيرها.

ويكفي أن أذكر اسماً واحداً كبيراً هو أبو اليقظة العربية الحديثة، الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوي»، الذي درس وتعلّم، أثناء إقامته في فرنسا 1826-1831، على يد كبير المستشرقين في جيله «أنطوان سلفستر دوساسي».

وكتب المستشرقون آلاف الكتب، وعشرات الآلاف من الأبحاث والمقالات، عن الإسلام، ما زال الكثيرون من أساتذتنا ومؤلّفينا يعتمدون عليها، ويذكرون

ذلك صراحة حيناً، ويكتمون ذلك في معظم الأحيان. وما زلنا عالةً عليهم في معظم ما نكتب عن تاريخ الأمّة الإسلامية وحضارتها.

نعم إنّ فكر المستشرقين يستحقّ منّا الاهتمام والعناية. فبالإمكان أنْ نتعلّم منهم الشيء الكثير، وأنْ نُفيد من مناهجهم وأساليبهم في تحسين وتطوير مناهجنا وأساليبنا. لم يجمد المستشرقون على منهجٍ معيّنٍ، ولم يقفوا عند فكرةٍ معيّنة؛ بل واصلوا تطوير مناهجهم وتهذيبها وتقويمها بالممارسة والنقد والإفادة من تقدّم البحث العلمي عامّة ومناهج العلوم الإنسانيّة خاصّة. ولم يقف جيلٌ منهم عند جميع النتائج والتعميمات التي توصّل إليها جيلٌ سابقٌ. ومن هنا نجد في كتاباتهم شيئاً من الجدة والحياة في المنهج والأسلوب والاستنتاجات. ولا أخفي ما في نفسي من أسىً على بطء تقدّمنا الثقافي، وضعف مناهج بحثنا في تاريخنا وحضارتنا وجمودنا على مقولاتٍ تجاوزها البحث العلمي، إلى غرور لا سند له إلّا الجهل، وإلى سطحيّةٍ نفعيّةٍ تستغفل القرّاءَ والطلبة والدارسين. ولقد بلغ من جمودنا أنّنا أصبحنا نخشى أن نتناول بالبحث العلمي والنقد الموضوعي الرصين ما كان من موضوعات الجدل اليومي في مساجد الكوفة والبصرة وبغداد في القرون الثلاثة الأولى، أو أن نمسّ بأبسط النقد العلمي أشخاصاً كانوا غرضاً للنقد الشديد في تلك القرون الأولى الزاهرة من تاريخنا الإسلامي العظيم، التي كانت عصوراً موفورةَ الصحّة العقليّة، دائبةً على البحث الحرّ عن الحقيقة، مفتّحةً على كلّ جديدٍ مفيدٍ في الثقافة والعلم. وإنّ تاريخنا هذا كما كان زاخراً بالعظمة والأمجاد، كان يزخر كذلك بالتشيّعات الطائفيّة والمذهبيّة والقبليّة والعرقيّة والسياسيّة وغيرها. وما زال الكثيرون منّا - واعين أو غير واعين - مصابين بِحَوَلٍ فكريّ من جرّائها. والمستشرقون، بحيادهم في هذه الأمور لعدم مساسها بهم، قد يفيدوننا النظرة الموضوعيّة المحايدة لقضايا التاريخ البعيدة، والتي ينبغي أن تظلّ بعيدةً عن الانفعالات العاطفيّة حتى تُدرس

بموضوعيّة العلم. وإذا لم نفد من دراسة مؤلّفات المستشرقين آراءً جديدةً في تاريخنا، وإذا لم نجد فيها تفسيراتٍ جديدةً لأسباب ازدهار حضارتنا وتقدّمها ولعوامل جمودها وانحلالها، فلا أشكّ في أنّنا سنفيد من ذلك توضيحاً لأفكارنا نحن، وتقويماً لمناهجنا، ورؤيةَ أنفسنا كما تبدو في مرائي غيرنا من العلماء والباحثين.

الفصل الرابع
الاستشراق له وعليه

يذهب كثيرٌ من الكتّاب والمفكرين العرب إلى موقف وسط بين الموقفين المتضادّين السالف ذكرهما، يعتبر بموجبه الاستشراق نشاطاً علمياً ذا قيمة مضافة مع التحفّظ على الكثير من أنشطته وأهدافه ومضمون نتاجه العلمي. لهذا يفرّق أصحاب هذا الرأي بين المستشرقين ولا يجعلونهم في سلّة واحدة، فيثنون على مساهماتهم العلميّة وينتقدون المواقف والآراء التي تبدو لهم متحاملة.

لذا يشكّل التفريق بين المستشرقين وتصنيفهم إلى مذاهب واتّجاهات خطوةً أولى في سبيل فهم هذا النشاط العلمي. وهو ما قام به أمير البيان «شكيب أرسلان» في مقال له نشره في **مجلّة الجهاد** ثمّ أعيد نشره في **مجلّة المنار**[1]. إذ اعتبر بعضهم متحاملاً على الشرق والإسلام، وبعضهم - وهم غالبيّة المستشرقين برأيه - خادماً لسياسة معيّنة كنشر النصرانيّة وخدمة السياسات الاستعماريّة الغربيّة، وبعضهم - وهم القلّة - متجرّداً للعلم ومنصفاً في بحوثه ودراساته. ثمّ عرض بعض أفكار المستشرق الأب «لامنس» اليسوعي كنموذج للقسم الأوّل من المستشرقين.

أمّا «عمر فرّوخ»، فهو أبرز المفكرين العرب المهتمّين بالاستشراق وأكثرهم تواصلاً مع أعلامه كما أشرنا، وقد مرّ موقفه من الاستشراق بمراحل عدّة وأصدر

(1) «شكيب أرسلان»: «المستشرقون في موقفهم الخطير إزاء الإسلام»، المنار، ج6، م33، ص435-440.

العديد من الدراسات حول هذا الموضوع. وقد انتقينا آخر ما سطّره في هذا الباب وهو موقف وسط ومتّزن نسبياً[1]. حيث اعتبر - بعد عرضٍ موجزٍ لنشأة الاستشراق وتطوّره ودخول العرب فيه - أنّ المستشرقين على مراتب؛ منهم المحسن ومنهم المسيء، وعرض لوائح لأبرز أعلام كلّ قسم مع تحليل أبرز مواقف كلّ منهم.

كما أنّ كتاب الدكتور «مصطفى السباعي» عن الاستشراق والمستشرقين يعتبر من أبرز ما نشر في هذا المجال، لشهرة مؤلّفه ولاهتمامه بلقاء أعيان الاستشراق. لذا عرضنا ههنا ملخصاً لكتابه[2]. ويتميّز المؤلّف بتفادي إطلاق التعميمات، ولكنّه جعل أغلب المستشرقين من المسيئين، وجعل المحسنين؛ أي الباحثين المتجرّدين للعلم قلّة قليلة وزمرة نادرة من المستشرقين.

وأتبعنا هذا الملخّص بقراءة نقديّة لكتاب «محمود زقزوق» **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، وهو من الكتب المهمّة والمعمّقة في المجال. ونشر هذا المقال بقلم «إبراهيم صغيرون»، ويتميّز بعرض تصوّر قريب من سابقيه مع بعض الاختلاف. ويتميّز في تقديم مؤلّف الكتاب لخطط عمل وآليات لمواجهة «الهجمات الاستشراقية». وقد أضاف كاتب المقال تقييماً شخصياً للكتاب وتعقيبات موسّعة على بعض نواحيه ومسائله.

وختاماً، أوردنا مقالة حديثة نسبياً يعرض فيها «محمد يحيى خراط» نظرته للمستشرقين: ما لهم وما عليهم[3]. وتتميّز هذه المقالة بتقديم نظرة معاصرة عن واقع الاستشراق الحالي وانتقاله عن واقعه القديم الذي امتزج فيه الجانب البحثي الأكاديمي بالسياسات الاستعمارية أو بالأهداف التبشيريّة. وهو ما يجعل المقال أكثر محاكاةً للواقع الحالي للاستشراق رغم أنّه يكرّر ما سبق بيانه في الكتابات السابقة من عرض لنشأة الاستشراق وتطوّره وأبرز المآخذ عليه وأبرز حسناته.

---

(1) «عمر فروخ»: «المستشرقون ما لهم وما عليهم»، الاستشراق، العدد الأول، أعظمية بغداد، العراق، كانون الثاني 1987، ص54-62.

(2) «مصطفى السباعي»: الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، 1998.

(3) «محمد يحيى خراط»: «المستشرقون، ما لهم وما عليهم»، المعرفة، العدد 582، آذار 2012، ص119-128.

المستشرقون في موقفهم الخطير إزاء الإسلام

بقلم أمير البيان الأمير «شكيب أرسلان»

هذه مسألة جلّى لا ينتبه إليها الشرقيّون كما يجب أن ينتبهوا، وكما هو شأنهم في كثيرٍ من المسائل، ولكن عليهم من الآن فصاعداً، بعد أن زعموا كونهم تقدّموا ورقُّوا أن ينتبهوا لهذا الموضوع. وذلك أنّ أوروبا عالم كبير قد أخذ بزمام العالم كلّه في الوقت الحاضر، وهو يتلقّى معلوماته عن الشرق والشرقيين من طريقين:

- أحدهما طريق القناصل والسفراء والمعتمدين الرسميّين، وهؤلاء يكتبون عن الشرق والشرقيين كلّ شيءٍ ولا يكتمون حكوماتهم عنهما حديثاً؛ إلاّ أنّ حكوماتهم تتصرّف بتقاريرهم كما تشاء بحسب أهوائها ومصالحها، فهي تكتمها أحياناً، وقد تطمسها طمساً تاماً حتّى كأنّها لم تكتب ولم تُقدَّم، وهي تفشيها أحياناً إذا اقتضت ذلك سياستها، وكثيراً ما تكتم شيئاً منها وتنشر شيئاً. وبالاختصار جميع تقارير سفراء أوروبا وقناصلها في الشرق هي رهن أغراض النظارات الخارجية في أوروبا. وإذا قلنا: إنّها رهن أغراض نظارات أوروبا الخارجية، فمعنى ذلك أنّها رهن التغطية والتمويه والتلفيق والتبديل والتعديل والفصل والوصل، وأنّه لا شيء هناك يقال له حقيقة بل لا يوجد هناك إلاّ ما يقال له: «مصلحة».

- وأمّا الطريق الثاني لمعرفة أحوال الشرق والشرقيّين فهو طريق الاستشراق. وذلك أنّه يوجد في أوروبا طبقةٌ من المتعلّمين تعنى خاصّة بدرس اللغات الشرقيّة وكلّ ما يتعلق بالشرق وأهله. وهم يتنوّعون في هذه الدروس؛ فمنهم من يتخصّص بعلوم الصين، ومنهم سن يتخصّص بعلوم اليابان، ومنهم بالمعلومات عن الهند أو عن الجاوى، ومنهم من يجعل همّته منصرفةً إلى

الاستقصاء في أخبار فارس، ومنهم من يوجه نظره إلى تركستان وغير ذلك.

وإنّ جانباً عظيماً من الاستشراق - وربما يكون هو الأعظم - متوجّه إلى درسِ الإسلام والبلاد الإسلامية من مشرقها إلى مغربها.

وإنّ هذه الطبقة التي تعنى بشأن الإسلام والمسلمين هي التي تكيّف المعلومات الإسلاميّة في أوروبا بكيفيّة نظرها وتمثيلها للعالم الإسلامي إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ. هذه الطبقة هي الترجمان الذي يلقي إلى ستمائة مليون أوروبي وصف أحوال الإسلام والمسلمين. فإن كان هذا الترجمان أميناً تلقى هؤلاء الستمائة مليون أوروبي تلك المعلومات على وجهها واعتدلوا بحقّ الإسلام والمسلمين. وإن كان الترجمان خائناً أو لئيماً يحرّف الكلم عن مواضعه ويقلب الحقائق عمداً لمرضٍ في نفسهِ، أو لإحنةٍ في صدره، أمكنه أن يهيّج من أحقاد الأوروبيّين الكامنة على المسلمين، وأن يثير من عداوتهم لهم ما ليس لضرره حدٌّ، لأنّ العالم الأوروبي إذا فكر قال، وإذا قال فعل وإذا فعل قام بانقلابات كثيرة، هذا إلى اليوم ولا نعلم ماذا يكون في الغد.

فهل هذه الطبقة التي يصحّ أن يقال أنّها ترجمان العالم الإسلامي لدى العالم الأوروبي هي أمينة أم خائنة في الترجمة؟ الجواب عليه هو هذا البحث الذي نريد الآن أن ننبّه الأفكار إليه بعد أن نقرّر أنّ هذه الطبقة هي التي تصوّر أحوال المسلمين للأوروبيّين بحسب درجَتَي صدقها وكذبها أو درجَتَي علمها وجهلها.

من هؤلاء المستشرقين فئةٌ ما استشرقوا ولا خطوا خطوةً في هذه السبيل إلاّ لأجل أن يتعقّبوا عورات الإسلام ومثالبه، ويخوضوا في أعراض المسلمين، ويبحثوا عن زلاّتهم ليجسّموها ويبرزوها لأنظارِ الأوروبيّين بالشكل المستبشع الذي تنفر منه طباعهم، وتثور حفائظهم، وذلك حتّى يزدادوا بغضاً للإسلام وبعداً عنه. وهذه الفئة من حيث أنّ أصل استشراقها هو العمل لخدمة المسيحيّة وتشويه الإسلام بما أمكن لا تقتصر على تجسيم العورات إذا وقعت عليها، بل يبلغ بها

سوءُ القصد أن تقلِب الحقائق قلباً، وأن ترتكب التزوير عمداً، وأن تأخذ بالحوادث الجزئيّة فتعمّمها فتجعل منها قواعد. وكلّ شيء تعمله هذه الفئة على قاعدة «إن الغاية تبرّر الواسطة». فالإسلام بزعمها هو شرٌّ محضٌ، فينبغي تنفير الناس منه بالحقّ وبالباطل. وهذه الفرقة من المستشرقين كثيرةُ العدد يطول بنا تعداد أسمائها، ومن جملتها «لامانس» اليسوعي البلجيكي، و«مارتين هارتمان» الألماني، و«مرغليوث» الإنكليزي، و«فنسنك» الذي ذكر عنه الدكتور «حسين الهراوي» أنّه طعن في الرسول عليه السلام، وأنا لم أقرأ طعن هذا ولكنّي قرأت مطاعن الآخرين، وقد نشرت في حاضر العالم الإسلامي أسماء مشاهير المستشرقين الممتازين في التحامل على الإسلام، فليراجع ذلك من أراد في ذلك الكتاب.

ومن المستشرقين فئة أخرى غرضهم أيضاً أن يخدموا المدنيّة الأوروبيّة والثقافة المسيحيّة وأن يبثّوها بما أمكنهم بين المسلمين، ولكنّهم لا يستبيحون ما تستبيحه الفئة الأولى من الكذب والبهتان، وقلب الحقائق، واللواذ بكلّ عضيهة للتمثيل بالإسلام وأهله. كلّا، هؤلاء يلتزمون في مباحثهم الطريقة العلمية التي تقتضي معرفة الحقّ في أيّ جانبٍ كان. ولكنّهم لا يتحرّجون عند أول فرصةٍ تلوح لهم أن يتولجوها ويحملوا على الإسلام باسم العلم بزعمهم، وأن يجسّموا الهنات، وأن يعمّموا الجزئيات في الأحايين، وأن يتجاهلوا ما عندهم من الطامّات الكبرى التي لا تقاس إليها معايب الإسلام في كثيرٍ ولا قليلٍ. فهذه الفئة يتألّف منها أكثر المستشرقين، وهم يعدّون إجمالاً من ذوي الفضل على العلم، وممّن يلزم أن يستفاد منهم، لكن مع دوام الحذر مما يلقونه أحياناً من السموم بحقّ الإسلام ممّا يكون ضرره أشدّ من ضرر الفئة الأولى التي بهتانها ظاهرٌ للعيان. يمكن أن توصف هذه الفئة «بالعدوّ العاقل»؛ ومن هؤلاء الأستاذ «ماسينيون» الإفرنسي، و«سنوك هور كرونيه» الهولندي وغيرهما.

ومن المستشرقين فئة ثالثة قليلة العدد في أوروبا إلّا أنّ منها رجالاً محقّقين،

وهؤلاء يتحرّون مزيد التحرّي، وينصفون الإسلام إنصافاً تامّاً لا يشوبه أدنى تحامل. وإذا بدر منهم انتقاد للإسلام في شيءٍ، فيكون عن اعتقاد أو وجهة نظرٍ نظروها أو خطأ وقعوا فيه لا عن سوء نيّة، ولا عن تعمّد انتقاص. ولا أعلم في هذه الطبقة أشهر من «غولدسيهر» المجري، الذي هو في الحقيقة أفهم الأوروبيّين لقواعد الإسلام. ومنهم في الحياة الأستاذ «كامغيمر» الألماني، والأستاذ «مونتا» السويسري، ومنهم «كارده فو» الإفرنسي صاحب كتاب مفكري الإسلام، ومنهم الدكتور «مايرهوف» الألماني، ومنهم «غروسه» الإفرنسي، ومنهم «رينه» الإفرنسي الذي بلغ به استشراقه من حبّ الإسلام أن دان بالإسلام وحجّ البيت الحرام، ومنهم علماء آخرون لست الآن في مقام استقصاء من جهتهم.

ولا شكّ أنّ الفئة الأخيرة قد خدمت الإسلام خدماتٍ جلّى في أوروبا، وحوّلت كثيراً من العقائد الباطلة بحقّ الإسلام عن مجراها الأول، وخفّفت كثيراً من الأحقاد، وصحّحت جمهرةً من الأوهام. ولكنّها مع الأسف لم تقدر أنْ تنسف تلك الجبال المتراكمة من البغض والعدوان والعقائد الفاسدة بحقّ الإسلام والمسلمين، لأنّ التيّار الأصلي الباقي من القرون الوسطى لا يزال شديداً.

كان زميلي «إحسان بك الجابري» يتحدّث منذ يومين إلى مهندسٍ كبيرٍ قد يكون أشهر مهندس في سويسرا وهو من كبار المفكرين فقال لزميلي: «نشأنا من الصغر في بغض الإسلام وربّانا آباؤنا ومعلّمونا على مبادئ من العداوة للإسلام نحن الآن نعلم بطلانها، لكننا بحكم الاستمرار لا نقدر أن نتخلص منها».

إن «غوته» الشاعر الألماني الأكبر الذي يقول الألمان أنّه أكبر دماغ ظهر في ألمانيا، وكان شبّان الألمان ينتحرون من تأثير بعض رواياته الشعرية، نعم

«غوته» هو نفسه قال وكلامه هذا مدوّن عنه: «إذا كان هذا هو الإسلام أَفَلَسْنا كلّنا مسلمين؟» هذا الرجل الذي سحر ناشئة الألمان في عصره ولا يزال يسحرها إلى الآن قد عجز عن أنْ ينسفَ ما تراكم من الأوهام المتكاثفة بحق الإسلام في ألمانيا، هذا والألمان أقلّ الأمم الأوروبيّة تحاملاً على الإسلام والمسلمين فما ظنّك بغيرهم؟

حرّر الأستاذ الحجة السيد «رشيد رضا» في المدّة الأخيرة كتاباً أسماه **الوحي المحمدي** من أنفس ما كتبه المسلمون في هذا العصر وكل عصر، وكأنما كتبه تلقاء الانتقادات الأوروبيّة التي تتوجه على الإسلام، إمّا عن تحاملٍ وعداوة، وإمّا عن جهل المستشرقين بحقائق كثيرة فاتتهم، أو عن جهل المؤلّفين المسلمين أنفسهم بحقائق دينهم وبكيفية الدفاع (عنها)[1] إلاّ من عصم ربّك، أو بعدم فهم الكثيرين منهم لأسرار الشرع المحمّدي. وقد أهديناه إلى من نحسن الظنّ فيهم من المستشرقين فلعلّهم ينتدبون لترجمته إلى اللغات الأوروبيّة[2] فتبدّد به أوهامٌ، وتنقشع ضلالات، ويتجلّى ما في المطاعن على أحكام القرآن من المحالات. فالذي يُوَفَّقُ إليه الأستاذ صاحب المنار في هذا الباب لا يُوَفَّقُ إليه غيره.

وأمّا الخلاصة التي أريدها من هذه المقدّمات فليست إخراج المستشرق «فنسنك» من المجمع اللغوي المصري - هذا شيء يعني الحكومة المصرية ورعاياها المصريين وهي أدرى بشغلها، وأنا لست من مصر ولا أقدر أن أطأ بقدمي أرض مصر - ولكن أريد تنبيه اللجنة المنتدبة لترجمة **الأنسيكلوبيذية الإسلامية** إلى العربية إلى شيءٍ وهو أنّه مع كون ترجمة هذه **الأنسيكلوبيذية** هي في الدرجة القصوى من الإفادة، بل هي ضروريةٌ لناشئة العالم الإسلامي لا تخلو من تحاملات منكرةٍ على الإسلام، ومن غلطاتٍ وخبطاتٍ علميّة في مباحثها التي

---

(1) المحرر: ورد في الأصل «عنهم»، وهو خطأ مطبعي.

(2) [«رشيد رضا»:] إنني طلبت من صديقي الأمير «شكيب» عناوين من يعرف من المستشرقين الذين يعرفون لغتنا وأرسلت كتاب الوحي إلى كل من أرسل إلي عناوينهم ووعد بإرسال غيرها؛ وغرضي من الإرسال إليهم إقامة حجة الإسلام عليهم بوقفهم على حقيقته والوقوف على آرائهم فيه بعد، وإني لأنتظر منه إرسال عناوين أخرى.

تولّاها بعض الفئة الأولى المتحاملة من المستشرقين. فإنّ تحرير هذا الكتاب تَشَطَّرَهُ عددٌ كبيرٌ من المستشرقين، وكلٌّ منهم كتب بحسب معرفته، ومنهم من كتب بمقتضى هواه أيضاً. فعلى لجنة الترجمة - التي يجب أن يكون فيها الأديب والمؤرّخ والجغرافي والفلكي والرياضي والكيماوي والجيولوجي والطبيب والفقيه والفيلسوف والمتكلّم - لتكون الترجمةُ صحيحةً أن يكون بجانبها لجنةٌ تضع في الحواشي تصحيحَ ما يجب تصحيحُه من الأغلاط، وتستدرك أيضاً على فوات المتن، وإلاّ فنكون أدخلنا في عقول ناشئتنا الجديدة ضلالاتٍ لا تحصى باسم العلم والفنّ وحريّة الفكر والاستنتاج التحليلي وغير ذلك من الألفاظ التي يلوكها بعض الأوروبيّين في تسمية سمومهم الخبيثة ودسائسهم المنكرة لحمل المسلمين على اتّخاذ ثقافتهم والتحوّل عن الإسلام. فنحن من هذا البلاء في المقيم المقعد الذي يكفينا بدون ترجمة أنسيكلوبيذية إسلامية يحرر فيها «لامنس» وأضرابه، فكيف إذا أصبحنا نأخذ أخبار الإسلام والمسلمين عن هؤلاء ولا ننبّه عليها؟

إليك الدليل على تحامل «لامنس» ومحاولته قلب الحقائق العلميّة ما أرسل به إليّ أحد أصحابي من مصر من مقالٍ في **الأهرام** ينقل كلام «لامنس» عن عرب الأندلس وهو بحرفه: «لم يكن بين المسلمين الذين قاموا بفتح الأندلس إلا القليل من العنصر العربي الخالص، فكان منهم قوّاد العسكر وأصحاب الرتب فيه ليس غير. أمّا أكثريّة الجيش فكانت مؤلّفة من البربر والإفريقيين. وفضلاً عن ذلك فإنّ عدد العرب الأقحاح كان ينقص باطّرادٍ متواصلٍ بسبب الحروب الأهليّة. فإذا تقرر هذا رأينا أنفسنا مدفوعين إلى الإقرار مع الأستاذ «ريبيره» بأن نسبة العنصر العربي في تكوين الشعب الإسباني المسلم قليلة جداً، ومن ثمّ فلا شيء يجيز لنا نعت مسلمي الأندلس بالعرب، إلى غير ذلك من الهذيان الذي هذاه «لامنس» اليسوعي، ومن قبله صاحبه العالم «الإسبانيولي». العرب

يفتخرون بمدنيّتهم الأندلسية، والإسلام يتّخذها حجّةً على أهليّته للتمدين والتثقيف والسبق في ميدان الحضارة. وهذا بيت القصيد، فـ«لامنس» اليسوعي يريد إنكار هذه الحقيقة التي تأتي بعكس ما يقرّره دائماً هؤلاء المتحاملون من أنّ الإسلام لم يوفّق حتى الآن إلى تأسيس مدنيّة راقية. ولما كانت هذه المقالة قد طالت وكان الردّ على كلام «لامنس» هذا بالأدلة العلمية القاطعة يأخذ بعض أعمدة من **الجهاد** فإنّنا نرجع هذا الرد إلى عدد قادم إن شاء الله.

[المنار] أشكر لصديقي الأمير «شكيب» هذا البيان لحقيقة حال جماعة المستشرقين وأصنافهم الثلاثة، ثمّ أشكر له سلفاً ما سيرد به على «لامنس» اليسوعي المشهور بغلوّه في عيوبِ طُغْمَتِه[1]، وشرّها الكذب وتحريف الكلم فيما ينشرون من الكتب، والخيانة في العلم والدأب لخدمة سياستهم الدينيّة على قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرّر الواسطة». عرفت هذا منذ كنت تلميذاً بتحريفهم لكتاب **الألفاظ الكتابية**، وإنّي على اعتقادي بأنّ أمير البيان سيفضح «لامنس» في ردّه عليه بما هو أحقّ به وأهله، وقلَّ أن يقدر عليه غيره. لا يسعني إلا أن أسبقه فأقول لـ«لامنس»: إنّ العرب نزلوا كالغيث من سماءِ الإسلام على جميع الأقطار، فأحيوا جميع الشعوب الآسيوية والإفريقية والأوروبيّة، وأصلحوا فساد حضارتهم ومللهم وأديانهم على قلّة عددهم في كلّ قطرٍ، فإن كانوا وجدوا عوناً لهم من أبنائهم البربر الذين مُدِينُوهُم بالإسلام على فتح الأندلس، فالفضل الأوّل على الفريقين لهم؛ وإلاّ فلماذا لم يفعل ذلك البربر في أنفسهم قبلهم؟ فالعرب كانوا أقليّة في غير الأندلس ولكن قليلهم لا يقال له قليل، فهم كالملح قليله يصلح الطعام، وكالنور شعلةٌ منه تطرد الظلام؛ ولولا أن تداركوا العالم بالإسلام، لقضت محاكم التفتيش الكاثوليكية على حضارة جميع الأقوام.

(1) المحرر: أي جماعته.

المستشرقون ما لهم وما عليهم

بقلم: «عمر فروخ»

المستشرقون طبقة من الناس كالأدباء والفقهاء والعلماء والمؤرّخين والفلاسفة، فيهم البارع والعادي والخائب، وفيهم الأمين والخابط والخائن، وفيهم القادر والضعيف والعاجز. ومن الظلم والجهل معاً أن نحكم على أحدٍ من اسمه، فلا بدّ من النظر إلى أعمال الناس قبل أنْ نجعلهم أصنافاً في عليّين أو في الأعراف أو في جهنم.

أنا أستطيع أن أعدّ خمسين مستشرقاً أو يزيدون عرفتهم كثيراً أو قليلاً بالاحتكاك الشخصي وبالمراسلة، من طريق الدراسة عليهم ومن الصداقة التي انسجمت بيني وبين نفر منهم سنين طوالاً. أمّا الذين عرفتهم من طريق كتبهم من المعاصرين لنا ومن الذين سبقوا زماننا فهم بطبيعة الحال كثيرون أيضاً.

لا جدال أنّ الاستشراق (اشتغال نفرٍ من العلماء الغربيّين بأحوالِ الشرق) قد نشأ بعد الحروب الصليبية بعوامل سياسيّة غرضها إفهام الغربيين أحوال الشرقيين، كي يصبح من السهل على رجال السياسة الغربيّين أن يعالجوا أمور الناس العمليّة في الشرق الغنّي، معاملةً تستفيد منها الدول الغربيّة القويّة. وكذلك كان للاستشراق غاية دينيّة لخدمة المبشّرين الذين أرادوا أن ينشروا ديانتهم[1] بين الشرقيّين من مسلمين وغير مسلمين. أمّا الذين انطلقوا من إعجابٍ خالصٍ لمعرفة أدب العرب خاصّةً وفلسفة العرب وعلوم العرب فهم قليلون إذا نحن قِسناهم بالذين رغبوا في الاستشراق اندفاعاً في أهدافهم السياسيّة والدينيّة.

---

(1) النصرانية: هي الدين الذي جاء به عيسى ابن مريم عليه السلام. وكانت نسبة النصرانية إلى البلدة التي كان منها عيسى المسيح ابن مريم (الناصرة في فلسطين). أما المسيحيّة فهي الشريعة التي أقرّها آباء الكنيسة.
المحرّر: هكذا ورد هذا التعليق اليتيم في مقالة الدكتور «عمر فرّوخ»، ويظهر لنا أنّه من إضافة الناشر لا من وضع المؤلّف.

ومع أن نفراً من الغربيّين قد درسوا حضارة الصين واليابان والهند وكتبوا في الوثنية والمجوسية والفِطرية، فإنّنا إذا قلنا: «مستشرقون» - وخصوصاً في هذا البحث - فإنّنا نعني العلماء من الأوروبيين خاصّة من الذين اهتمّوا بدراسة اللغة العربيّة والحضارة الإسلاميّة بوجوهها المتعدّدة.

إنّ أوائل المستشرقين منذ القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) - إذا جازت التسمية - كانوا من الرهبان خاصّة، ذلك لأنّ العلم كان في ذلك الدور من تاريخ أوروبا المسيحيّة يكاد يكون قاصراً على رجال الكهنوت. فلا عجب إذن إذا نحن قلنا: إن «غربرت» الفرنسي الذي أصبح بابا باسم «سيلفستر الثاني» (999-1003م 38-393هـ) كان أوّل المستشرقين، كما كان أوّل بابا فرنسي يرقى سدّة الفاتيكان.

كان «غربرت» هذا قد جاء إلى الأندلس في أيام شبابه فقضى مدّة في مدينة برشلونة -ولم تكن في ذلك الحين في يد العرب المسلمين - ثمّ جاء إلى قرطبة (967م-356هـ) ودرس في معاهدها مدة ثلاث سنوات. ثم إنّه لما غادر الأندلس ذهب أولاً إلى روما ثمّ انتقل إلى بلاط «أوتو الأول الكبير» ملك جرمانية (ألمانيا) وإمبراطور الإمبراطورية الرومانيّة المقدسة (962-972م).

إنّ «غربرت» قد بدأ العهد الذي بدأ فيه الأوروبيّون محاولة الاستفادة من علوم المسلمين. فمن مشاهير هذه الطبقة «أديلارد» الذي من باث، كان إنكليزي المولد وراهباً عن طريق البندكتيّة. درس الفلسفة في فرنسا وألمانيا، وطاف في الشرق سبع سنوات زار في أثنائها سالارنو (في جنوب إيطالية)، ثم ذهب إلى اليونان فإلى الشام (سوريا) فمصر. وقد نقل «أديلارد» هذا عدداً من الكتب العربية في الفلك والرياضيات خاصّة. ويحسن بنا أن نقول هنا: إنه نقل كتاب **الأركان** (الهندسة المسطّحة لـ «أقليدس» اليوناني) عن اللغة العربية (لأنّ النسخة اليونانية من هذا الكتاب اليوناني كانت لا تزال ضائعة).

وعلى يد «أديلارد» دخل علم الأنساب (المثلّثات) للمرّة الأولى إلى أوروبا. ولا نعرف الزمن الذي عاش فيه «أديلارد» بالتدقيق، ولكنّه بلغ أشدّه في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي (السادس للهجرة).

واتّسع نقل الكتب العربية (في العلوم الرياضيّة والطبيعيّة وفي الفلسفة) إلى اللغة اللاتينية، كما كان العرب قبل قرنين من الزمن قد أخذوا ينقلون كتب العلم والفلسفة من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية. ويحسن أن نذكر أن «جيرارد القرموني» (ت 1187م-583هـ) - هو إيطالي المولد - قد نقل من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية نحو ثمانين كتاباً في المنطق والهندسة والفلك والمناظر (البصريات) والطبّ. وقد كان من هذه الكتب عددٌ كان العرب قد نقلوه من قبل من اليونانية إلى العربية.

ومنذ ذلك الحين الباكر، بدأ اليهود أيضاً بنقل الكتب العربيّة إلى اللغة العبريّة، بل وجدنا نفراً كثيرين منهم كانوا يؤلّفون الكتب باللغة العربيّة أيضاً. إنّ عمل النقل من العربيّة إلى العبريّة كان أهون من النقل من العربيّة إلى اللاتينيّة؛ لأنّ العربيّة والعبريّة لغتان أعرابيّتان (ولا تقل: ساميّتان). ولكن كتب علم الكلام وكتب الفلسفة في اللغة العبريّة لم تكن سوى اقتباس قاصر من الثقافة العربية المعاصرة لأولئك الناقلين اليهود، إذ كانت آراؤهم في كتبهم مأخوذة أخذاً هيّناً - في كثير من الأحيان - من الكتب العربية.

ومرّ زمن طويل كان الأوروبيّون يغترفون من الثقافة الإسلاميّة المكتوبة باللغة العربيّة لينتفعوا بما كان العرب قد نقلوه من تراث الأمم إلى لغتهم، وما كانوا قد أضافوه إلى تلك الثقافات التي كانوا هم قد تناولوها من الأمم السابقة ومن كتبها. ومع أنّ «بطرس» الذي يسمّيه قومه «بطرس المحترم» (ت1156م-551هـ) قد نقل القرآن الكريم (أو أقساماً من القرآن الكريم) ليردّ على ما لا يوافق الكنيسة منه، فإن «روجير بايكون» الإنكليزيّ (ت 1294م-693هـ) كان

يقول: «عجيب ممّن يريد أن يدرس الفلسفة وهو لا يعرف اللغة العربية».

غير أن نقل القرآن إلى اللغة اللاتينية يستحق جملة غير موجزة.

كان أستاذي المستشرق الألماني «يوسف هِلّ» (1875- 1950م) يقول: من المعقول والواضح أن «مارتن لوثر» (1546- 953هـ) كان – وهو يضع المذهب البروتستانتي – ينظر في مصحف (نسخة من القرآن الكريم). إنّ «روبرت» الإنكليزي الذي هو من تشستر قد سكن الأندلس (1141-1147م) وعمل مع «هرمانوس الدلماس» على نقل القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية. وقد طبعت هذه النسخة في بازل (سويسرا) عام 1543 للميلاد قبل وفاة «مارتن لوثر» بثلاث سنوات. ومن المنتظر أن يكون قد عرف هذا النقل للقرآن الكريم من نسخه الخطّية. ويبدو أنّ القرآن كان قد نقل قبل ذلك أيضاً.

ثمّ تأتي مرحلة حاسمة في الاستشراق بدأها «ميخائيل سكوتوس» (ت قبيل1245م- 643هـ)، فقد نقل من العربيّة كتاباً في الفلك بدّل الآراء الأوروبيّة في حركات الكواكب ودلّ على أخطاء الذين كانوا يذهبون مذهب «أرسطو»، الذي كان يصرُّ على أنّ الأرض مركز النظام العالمي وأنّ الشمس نفسها والكواكب الخمسة (يوم ذاك) والنجوم كلها تدول حول الأرض.

وكان «ميخائيل سكوتوس» هذا أحد الذين أسّسوا المذهب الرشدي في أوروبا. والمذهب الرشدي كان الأخذ بآراء «ابن رشد» في الفلسفة في مقابل آراء «أرسطو»؛ (لأن الكنيسة كانت قد شَوَّهت فلسفة «أرسطو» حتى توافق الشريعة كما جاءت الشريعة في التوراة). وكذلك كان الفلاسفة الرشديّون في أوروبا يأخذون بآراء «ابن رشد» في أصول الدين والإيمان (كوحدانية الله والقضاء والقدر) في مقابل آراء الكنيسة.

وقد ساد المذهب الرشديّ في أوروبا مدّة طويلة ثم جاءت الرشديّة اللاتينية

(لمقاومة أثر «ابن رشد» في التفكير المسيحيّ) فدامت مدّةً طويلةً أيضاً. ولمّا جاءت النهضة العلميّة الحديثة، انتصر التفكير الصحيح على الآراء التي كانت الكنيسة تريد تثبيتها في عقول أتباعها. ومن الذين قاوموا الفلسفة الرشديّة «ألبرت الكبير» (1193-1280م) وتلميذه فقيه الكنيسة وفيلسوف المسيحية القديس «توما الأكويني» (1225- 1274م)، وقد مات القديس «توما» عام 1274 للميلاد (673-674هـ) قبل أستاذه بستّة عشر عاماً. وآراء العلماء المسلمين في الفلسفة التوميّة (كآراء «ابن رشد» في الإلهيّات وآراء «ابن سينا» في النفس) واضحة جداً.

ومنذ القرن السادس عشر للميلاد (العاشر الهجري) بدأ الاستشراق بالمعنى المقصود عندنا الآن (الاهتمام باللغات الشرقية: العربية والفارسيّة والتركية خاصّة - الاهتمام بجمع المخطوطات العربية لنشرها- الكتابة في موضوعات شرقية: دينيّة ولغويّة وأدبية).

في هذا الدور المتقدم بدأ الاستشراق العلمي يُستخدم في المصالح السياسيّة الأوروبيّة. كان المستشرقون يعيّنون سفراء في البلاد الإسلامية (وفي الدولة العثمانيّة خاصة). وقد كانت المهمّة الأولى لهؤلاء العلماء باللغات الشرقية وبالموضوعات الشرقية وبمعرفة الأحوال الاجتماعيّة والنفسيّة للشعوب الإسلامية، فهمَ البلاد الإسلامية وفهمَ اتّجاهات أهلها لاستغلال خيرات هذه البلاد.

هنا يجب أن نفرّق بين طبقتين من هؤلاء المستشرقين: طبقة المستشرقين في الدول الكبيرة (كإنكلترا وفرنسا وهولندا) إذ كان لها مستعمرات، وبقية الدول التي ليس لها مستعمرات (كالدنمارك وأسوج ثم ألمانيا إلى حدّ ما). وكان الغالب على المستشرقين في الدول الاستعماريّة قلّة الأمانة في البحوث المشرقيّة (الدينية والثقافية منها خاصّة). وإن كان قد شذّ عن ذلك نفرٌ من المستشرقين لا

نستطيع أن ننكر أمانتهم، غير أنّ هذا لا يعني أنّ نفراً من المستشرقين في دول المعسكر الصغير لم يجانبوا الأمانة العلميّة.

وهناك على كل حال حقيقة لا يجوز أن نمرّ بها غافلين:

إنّ نفراً من المستشرقين الذين وضعوا القواميس للغة العربيّة ونشروا الكتب العربيّة ثمّ كتبوا البحوث الثقافية بلغاتهم في أحوال البلاد الإسلاميّة قد قاموا بعملهم هذا بأثرٍ من رغبتهم في العلم والمعرفة. ففضلهم في ذلك غير منكرٌ. أمّا أن يكون رجال دولتهم قد استغلّوا هذه الجهود لاستغلال العرب والمسلمين فأمرٌ آخر. وأنا هنا وفي هذا المقطع، لا أريد أن أحكم على النيّات. إنّ الحكم على أعمال المستشرقين في طبقاتهم المختلفة سيأتي في مكانه.

ثمّ هناك أمرٌ آخر تحسن الإشارة إليه هنا:

إنّ المستشرقين كانوا طبقةً من العلماء الذين خصّوا أوقاتهم بموضوعاتٍ معيّنة. من أجل ذلك كانوا أكثر فهماً للموضوعات التي طرقوها من الناس العاديّين. ولكن ليس معنى هذا أنّهم لم يكونوا يخطئون. إنّ المستشرق - أو المستعرب - مهما يكن قديراً على معرفة اللغة العربيّة، فإنّه لا يمكن أن يكون له من الحسّ اللغويّ ما للعالم العربي الأصيل.

وكذلك المستشرق الذي يدرس الأدب العربي ويجيد تفسيره اللغوي والبلاغي ويدرك الأحوال التاريخية والثقافية الملابسة له، إنّ هذا المستشرق لا يمكن أن تكون له الذائقة الأدبية التي تكون للأديب العربي بالوراثة الاجتماعية.

ويحسن أيضاً أن يكون لنا لفتة عامّة قبل أن نأتي إلى نفرٍ من المستشرقين بأسمائهم وطبقاتهم.

ما الوجه الممكن من سوء الظن في عمل «شامبليون» الفرنسي (1790-1832م)، الذي فكّ رموز الكتابة الهيروغليفية (المصريّة القديمة)، ومكّن العلماء

جميعاً من معرفة كنوز الثقافة القديمة في مصر؟ ثمّ ما الوجه في سوء الظن في المستشرق الإنكليزي «مارغوليوث» (1858-1940م)، الذي نشر **معجم الأدباء** لـ«ياقوت الحموي» بتصوير مخطوطة ذلك الكتاب؟ هذا مع العلم اليقين بأنّ «مارغوليوث» من أشدّ أعداء الثقافة الإسلامية ومن الذين وضع جميع جهوده في خدمة السياسة.

فالنظر في الاستشراق وفي المستشرقين - كالنظر في كلّ أمر آخر وفي كل قوم آخرين - يجب أن يكون إلى عمل الفرد لا إلى اسمه. فإنْ حَسُنَ الاسم كما يحسُنُ العمل، فذلك خيرٌ وأفضل. وهنا سؤال جديد: أيكون العربي أو المسلم مستشرقاً؟ أقصد: أيسمّى أحدهم مستشرقاً ولو قام بعملٍ يقوم به المستشرقون عادةً؟

إنّ الدكتور «فيليب حتّي» عربي اكتسب الجنسية الأمريكية في عام 1924، ثمّ عاش منذ ذلك الحين في الولايات المتحدة وتوفي فيها. وقد كتب معظم كتبه - إن لم أقل جميع كتبه المشهورة - باللغة الإنكليزيّة وله مواقف تشبه مواقف المستشرقين. ولكنّ الدكتور «فيليب حتّي» ليس مستشرقاً بالمعنى الذي نقصده هنا. إنّ كل ما فعله لا يخرجه من تربيته العربيّة الأولى. ربما كان «فيليب حتّي» عربيّاً مخطئاً أو ظالماً لقومه، ولكنّه ليس مستشرقاً.

وهناك مثال أكثر وضوحاً: «فؤاد سزكين».

«فؤاد سزكين» مسلم تركي يعيش في أيّامنا. وقد خطر له أن يحرر كتاب **تاريخ الأدب العربي** للمستشرق الكبير المعروف «كارل بروكلمان» (ت1956م) وأن يستمرّ فيه. ثمّ وجد أن ذلك شبه مستحيلٍ أو مستحيلٌ، لأنّ الكتاب ضخمٌ وفيه موضوعاتٌ كثيرة (لا ريب في أنّه كان لـ«بروكلمان» مساعدون له في عمله)، فخطر لـ«فؤاد سزكين» أن يتناول عدداً من وجوه كتاب «بروكلمان» وأن

ينشئها إنشاءً جديداً دقيقاً واسعاً. وقد وضع «فؤاد سزكين» الأجزاء التي أنجزها باللغة الألمانية (لغة المستشرق «بروكلمان»)، ومع هذا فإنّ «فؤاد سزكين» ليس مستشرقاً.

أهناك أساسٌ آخر للفصل في شأن الباحث أهو مستشرقٌ أم غيرُ مستشرقٍ؟

إنّ نفراً منّا يسيؤون الظنّ بالمستشرقين ولا يرون فيهم خيراً، أريد أن أتابع هؤلاء في مجرى تفكيرهم. وأجعل سوء الظنّ أساساً لبحث هذا الموقف.

«طه حسين» (ت1393هـ - 1973م)، وقد ولد مسلماً عربياً ودرس في الأزهر، ثم إنّ علمه واتجاهه المتأخر وعدداً من تأليفه (**الشعر الجاهلي** 1937 ثمّ **مستقبل الثقافة في مصر**، إلى جانب رغبته التي لم تتمّ في تشويه التهجئة العربية بإضافة أحرف إلى الأبجديّة العربيّة) من جنس الآراء التي يدعو إليها المستشرقون غير المنصفين، ومع ذلك فـ«طه حسين» ليس مستشرقاً.

في إحدى جلسات مجمع اللغة العربية في القاهرة (في عام 964، في الأغلب - وكان «طه حسين» رئيساً للمجمع، وكان يرأس الجلسة بطبيعة الحال) اقترح أن يضاف إلى الحروف الهجائيّة العربيّة عددٌ من الحروف الأجنبية، وأراد طرح القضية على التصويت.

نهضت أنا أسأل سؤالاً قانونياً توجهت به إلى «طه حسين» نفسه:

- ما الغاية من إضافة هذه الأحرف الجديدة؟

فقال:

- كي نستطيع أن نكتب مثلاً اسم «فيكتور هيجو» كتابةً صحيحةً.

عندئذٍ قلت له:

- أنت تعرف اللغة الفرنسيّة وتريد أن تحلّ مشكلةً تتعلّق باللغة الفرنسيّة. فإذا

كنت أنا - وأنا أعرف باللغة الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإسبانية ثم أشياء من غير هذه اللغات أيضاً - أحبّ أن أُدْخل على اللغة العربيّة أحرفاً إضافيّة لحلّ مشاكلي في كلّ هذه اللغات، فما يحدث للغة العربيّة؟

فقال الدكتور «إبراهيم مدكور» (وكان هو الذي يدير جلسات المجمع فعلاً إلى جانب «طه حسين»): «ولكن هذا رأي لجنة كانت برئاسة «طه حسين»».

عندئذ نهض «عبّاس محمود العقّاد» (ت1383هـ -1964م) وقال:

- الأمر يسير. نعيّن لجنةً جديدة.

ثمّ قال ما أدّى إلى صرف النظر عن «مشروع» «طه حسين» وسَلِمَت اللغة العربيّة ممّا كانت مهدّدةً به لو نجح «طه حسين» فيما أراد.

ويؤلمني إلى الآن أنّ تلك الجلسة كانت آخر جلسةٍ حضرها «العقّاد» من جلسات المجمع العامّة.

إذن ليس الاستشراق عدوّاً للإسلام وللغة العربيّة. هناك نفر من المستشرقين (مثل نفرٍ منّا أيضاً) قصدوا أن يسيؤوا إلى اللغة العربية وإلى الإسلام بعوامل من السياسة الاستعماريّة، كما أنّ هناك نفراً آخرين من المستشرقين خدموا الثقافة الإسلامية واللغة العربية خدمةً جليلةً لم يكتب للعرب أنفسهم أن يقوموا بمثلها. وكذلك هناك من المستشرقين (كما نجد في طبقات كثيرٍ من الباحثين) كانوا أشخاصاً عاديين في علمهم وفي جهدهم وفي غاياتهم.

نماذج من طبقات المستشرقين

ليس في الإمكان أن أتناول بالعرض هنا جميع المستشرقين. سأقتصر على نفرٍ منهم لا يجوز إغفالهم بحسب الأعمال التي قاموا بها. وأريد أن أبدأ بالمستشرقين المحسنين.

مستشرقون محسنون

سأبدأ بنموذجٍ طويلٍ ثمّ أستعرض نماذج على شيءٍ من الإيجاز أو التفصيل، مقتصراً على سرد الحقائق، ذلك لأن الآراء تخطئ وتصيب. أمّا الحقائق فهي وقائع مشاهدة ملموسة لا يدخل فيها الجدال.

«يوسف هل» (1875-1950) ألماني مسيحي كاثوليكي، وهو الذي أشرف على دراستي، وبإشرافه كتبت رسالتي للمشيخة (للدكتوراه). اختصاصه الثقافة الإسلامية إلى جانب عدد من اللغات القديمة والحديثة. رزق بنتاً (1917) سمّاها «عائشة» إعجاباً بأمّ المؤمنين بنت «أبي بكر» وزوج رسول الله «محمد» ﷺ. وهو مؤلف له جزء من أشعار الهذليين (بني هذيل) - كانوا مخضرمين عاشوا أو عاش أكثرهم في الجاهلية وفي الإسلام. وله دراسة في الشاعر الأموي: «الفرزدق». وقد أحصى الكلمات التي وردت في أشعار «الفرزدق» فكانت نحو أربعين ألف كلمة. ثم له كتاب موجز في **الحضارة الإسلامية** (نقل إلى الإنكليزية). وله أيضاً بحث ألقاه يوم أن اختير لكرسي اللغات الشرقية في جامعة أرلنغن (بألمانيا) عنوانه: **الشعر العربي في إطار الآداب العالمية**. وقد أشار «يوسف هل» في هذا البحث إلى الصلة بين الشعر الألماني والشعر العربي وإلى أنّ الاسم الأوّل الذي أطلق على الشعراء الألمان (لمّا أصبح للغة الألمانية شعر مستقل) كان لفظه «مِنّسنغر»، هذا الاسم «مِنّسنغر» أو «مِنّزنغر» مؤلف من كلمتين: منّه (بشدّة على النون) ثم سنغر (أو زنغر: مغنٍّ أو شاعر). إنّ كلمة «منّه» هذه صيغة وحيدة في القاموس الألماني، ثمّ إنّ القاموس الألماني ينصّ على أن أصل هذه الكلمة ومعناها مجهولان. ولقد رأى «يوسف هل» أنّ الكلمة عربية هي «مِنّة» (بكسر فتشديد) بمعنى نعمة أو عطف، إذ أنّ الشاعر الألمانيّ الأول كان ينشد محبوبته الشعر حتى تمنّ عليه بعطفها، كما نرى في شعر الشعراء المحبّين عند العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام.

وسألني «يوسف هل» عن الموضوع الذي كنت أفكر فيه لرسالتي. كنت يومذاك (1935) في عنفوان الشباب فقلت له: **ندى القومية العربية - عظمة الشاعر المتنبي - أثر العرب في الثقافة العالمية**... وأشباه ذلك. استمع إليّ بصبر. فلمّا سَكَتُّ قال لي: «احتفظ بهذه الموضوعات. فإذا أنت رجعت إلى بيروت فاكتبها وانشرها في الجرائد». ثمّ قال لي:

«هناك موضوع مهمّ ما زلت أعرضه على الطلاب الألمان الراغبين في الاستشراق، منذ عشرين عاماً، فلم أجد الهمّة عند أحدٍ لمتابعته، مع أن نفراً منهم بدأ بتجميع موادّه ثمّ تخلّى عن الاستمرار فيه. إنه موضوع يحتاج إلى رجل عربي سريع المضي في المصادر العربية. هذا الموضوع هو المشكلة التالية:

يرى نفرٌ من المستشرقين أنّ الإسلام لم يستقرّ في نفوس المسلمين إلا في العصر العبّاسيّ (قياساً على أنّ النصرانيّة لم تبدأ في الانتشار بين الناس إلا في القرن الرابع للميلاد).

فهل تستطيع أنت أن تعالج هذا الموضوع وتضع هذه المشكلة على أحد جانبيها؟».

بدأت العمل وجمعت عشرة آلاف بيت شعر مؤرّخة بالسنوات، منذ السَّنة الأولى للهجرة (622م) إلى موت الخليفة «عمر بن الخطاب»، سنة 23هـ (644م). دخل في رسالتي أربعمائة بيت من تلك الأبيات دلّت بجزمٍ ووضوحٍ على أنّ تعاليم الإسلام كانت تستقرّ في نفوس المسلمين (ونطاق الرسالة كان منذ الهجرة) في الوقت الذي كانت تلك التعاليم تفرض عليهم أو ينزل فيها وحي.

هذه صورة عامة للمستشرقين الذين يستحقون هذا الاسم. وفيما يلي نبذ من اتّجاه نفر من المستشرقين المحسنين وأعمالهم.

أوّل هؤلاء المستشرقين المحسنين أولئك الذين جمعوا المخطوطات العربية وحفظوها، ثمّ فهرسوها في قوائم وسهلوا سبيل الوصول إليها. ويؤسفني أنّ كثيراً من المخطوطات التي بقيت في موطنها قد ضاع بعضها، كما أنّ جانباً كبيراً منها يصعب اليوم الوصول إليه.

إنّ أوّل من يجب ذكره هنا «ولهلم الورت» الألماني (1828-1909)، فقد فهرس المخطوطات العربية في مكتبة برلين العامة ووصفها وصفاً موجزاً دقيقاً في عشرة أجزاء كبيرة.

وهناك «غوستاف ليبرشت فلوغل» (1802-1870). وهو مكثر جداً. وقد فهرس الكتب الشرقية (العربية وغيرها...) في مكتبة القصر الملكي في فينّا عاصمة النّمسا (في ثلاثة أجزاء).

وقلَّ أنّ نجد اليوم مكتبةً في العالم الغربي ليس لها فهارس مفصّلة للكتب - ومكتبة المتحف البريطاني في لندن تحتاج وحدها إلى مقال طويل - ثمّ تعلمنا نحن منهم مثل هذه العناية. ويلحق بفهارس المخطوطات والكتب في المكتبات فهارس الأعلام على أنواعها والكلمات أيضاً. فقد يحتاج أحدٌ من الباحثين إلى الوصول إلى اسمٍ أو لفظٍ في كتاب كبير، فلا يستطيع في كلّ مرّة أن يحتاج إلى مثل ذلك وأن يقرأ جميع الكتب بأجزائها.

وأول ما أشير إليه هنا **نجوم القرآن** وهو أول فهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه «غوستاف فلوغل»، عام 1840 للميلاد (1256هـ). ثم وضع المسلمون الفهارس لألفاظ القرآن بعد ذلك. أذكر الآن ترتيب «زيبا»، وهو أقدم بالوضع (1248هـ) إلاّ أنّه مرتّب ترتيباً على الأبواب، ممّا يجعل الوصول إلى الآيات المطلوبة عسيراً على غير الحافظ. والحافظ لا يحتاج إلى مثل هذا الكتاب. وأوّل فهارس القرآن الكريم التي يهتدي بها **بيسر فتح الرحمن لطالب آيات القرآن** (بيروت 1323هـ) وضعه «فيض الله الحسني المقدسي». ثم جاء «فؤاد عبد الباقي» فوضع **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** على غاية من التفصيل ممّا لا يستغني عنه المؤلّف الباحث.

ثم جاء العمل المضني الذي قام به المستشرق الهولندي «آرند يان فنسنك» (ت1939م- 1358هـ)، وهو فهرسة ألفاظ الحديث الشريف في أربع عشرة مجموعة من مجاميع الحديث، ومنها ما هو في أجزاء كثيرة، وقد توفي «فنسنك» ولم يتم كتابة هذا فأتمّه غيره. وقد نقل هذا الفهرسة إلى اللغة العربية «محمد فؤاد عبد الباقي» وطبعه بعنوان **مفتاح كنوز السنة**.

ومن مثل هذين الفهرسين فهرس كتاب **كشف الظنون** لـ«حاجّي خليفة»، وضعه «فلوغل»، ثم فهارس **كتاب الأغاني** وضعها المستشرق الإيطالي «أغناطيوس غويدي» (ت1935م -1353هـ). ووضع «فريتز كونكو» (يسمّي نفسه «سالم الكرنوكي») فهارس الشواهد الشعريّة لكتاب **الأمالي** لـ«أبي علي القالي» (في طبعة بولاق).

ثمّ اتسعت دائرة وضع الفهارس.

وطبع الكتب يحتاج إلى كلمة:

أوّل طبعة للقرآن الكريم كانت في لايبزك (ألمانيا)، عام 1840 للميلاد. وقد كان في بيتنا نسخة منه (فإنّ جدّي «عبد الرحمن» (ت1917) كان قوّاصاً في قنصلية ألمانيا في بيروت ورافق الإمبراطور «غليوم الثاني» في رحلته من بيروت إلى دمشق)، وقد جاءت إليه هذه النسخة هدية.

ويؤسفني أن أقول: إنني أنا الآن لا أعرف مصير هذه النسخة (مع أنّ بيتنا كان بيتاً فيه متعلمون ومتعلّمات ومكتبة أيضاً).

ثمّ توالى طبع المصادر العربية في أنحاء أوروبا على يد المستشرقين: **تاريخ الطبري**، **تاريخ ابن الأثير**، **الطبقات الكبرى** لـ«ابن سعد»، وغيرها عشرات، رأت النور في المطابع قبل أن تطبع في البلاد العربية. ولا يحسن أن ننسى **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** لـ«أبي العبّاس المقرّي» (ت1041هـ).

وقد كانت هذه الكتب محقّقةً تحقيقاً شاملاً (لا أقول كاملاً)، باستعراض القراءات المختلفة في النسخ المخطوطة المختلفة. وقد ترك المستشرقون تلك الكتب المحقّقة بلا شكلٍ وبلا علاماتٍ للوقف كيلا يفرضوا على الباحث العالم قراءة لكلمة أو لجملة تحتمل وجهين أو أكثر من وجوه القراءة.

ونجد نحن اليوم - مع الأسف الشديد - أناساً منّا يأتون إلى كتابٍ قد حقّقه خمسةٌ أو ستّة من المستشرقين في المدّة الطويلة من عمرهم فيعيدون طبع ذلك الكتاب في مدّةٍ يسيرةٍ ويكتبون على صفحته الأولى «تحقيق» أو «بتحقيق» ... ثم يوردون أسماءهم.

ونقل نفرٌ كثيرون من المستشرقين عدداً كبيراً من الكتب العربية إلى اللغات الأوروبية. وقلّما نجد كتاباً من كتب التراث العربي لم ينقل إلى لغةٍ أوروبيّة. فالقرآن الكريم والحديث الشريف وأمّهات كتب الفقه، وكثير من الشعر العربي القديم وكتب العلم الرياضي والعلم الطبيعي وكتب التاريخ وقواميس اللغة وكتب الاجتماع والفلسفة وغيرها قد نقلت إلى اللغات الأجنبية على يد مستشرقين أحسنوا في الكثير وأساؤوا في القليل الذي لم يقصدوه (وستأتي كلمة في المستشرقين المسيئين).

نقل «روبرت» وهو من تشستر، القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية مع «هرمان» الألماني، في القرن الثاني عشر للميلاد (السابع للهجرة)، ثمّ نقل القرآن الكريم نقولاً كثيرة إلى معظم لغات العالم. ولقد كان لتلك النقول أثرٌ في الفكر العالمي، ويبدو أن «لوثر»، الذي وضع أسس المذهب البروتستانتي (ت1546م -953هـ) قد تأثّر في ذلك بأحد تلك النقول. إنّ كثيراً ممّا خالف «لوثر» النصرانية: - إلغاء الرهبنة، السماح لرجال الكهنوت بالزواج، إلغاء الصور والتماثيل، نجاة الإنسان يوم القيامة بأعماله هو لا بمغفرة القسّيس، إلغاء الاعتراف .... - لا يمكن أن تكون قد خطرت كلّها لـ«لوثر» إلاّ من خلال معرفته للإسلام.

أمّا تناول نقول القرآن نقلاً نقلاً فشيء لا يمكن أن يتّسع له هذا المقال.

ونقل المستشرقون إلى لغاتهم كنوزاً من التراث العربي.

كان «إيتان مارك كاترمير» الفرنسي (1782-1857) قد بدأ نقل **مقدّمة ابن خلدون** إلى اللغة الفرنسيّة ومات ولم يكن قد أتمّ نقلها، فأتمّ نقلها بعده البارون «دي سلان» (1801- 1879)، فكان لهذا النقل أثرٌ بالغ في بحوث فلسفة التاريخ في أوروبا. إن «هيغل» الألماني والفيلسوف الكبير (ت1831)، و«أوغوست كونت» الفرنسي والفيلسوف الوضعي الذي قصر نظره على الوقائع الجارية في البيئة الاجتماعية (ت1857) قد غفلا عن «عمر الدولة» (قانون تعاقب الدول). جعل «هيغل» الألماني أدوار الدول أربعةً: ثلاثةٌ منها تبتدئ ثم تنتهي، أمّا الدور الرابع الجرماني (الذي يكون الحكم والسيادة فيه للشعب الألماني) فلا ينتهي، بل كلّما اقترب من حافّة ضعفه تجدّد فعاد قويّاً وتكرّر. أمّا «أوغست كونت» فجعل الدور من التاريخ بمعنى يزول ثمّ يأتي بعده الدور الذي يليه. وعلى هذا سار التفكير الأوروبي زمناً طويلاً.

أمّا «عبد الرحمن بن خلدون» (ت808هـ -1405م) فجعل الدول عموماً طورين كبيرين وللدولة الجزئيّة أربعة أدوار. وقد رأى «ابن خلدون» أنّ كلّ جولة من أولها بداوة ثمّ تنتقل إلى طور الحضارة، وبينما كان «أغوست كونت» يرى أنّ الطور السابق في حياة الدول ينقضي فيتبعه طور جديد، قال «ابن خلدون» إنّ الأطوار كلّها تستمرّ في المجتمع. فبرغم انتقال دول (نظم حاكمة) إلى الحضارة، فإنّ دولاً تبقى في طور البداوة. والدليل عندنا اليوم أنّ معظم أشكال الحكم موجودة معاً، الملكية المطلقة والملكية الدستوريّة (المقيّدة) والجمهوريّة والاستبداد.

إنّ نقل مقدّمة ابن خلدون إلى اللغة الفرنسية (ثم نقلها «روزنتال» اليهودي

الألماني بعد خروجه من ألمانيا إلى اللغة الإنكليزية) قد صحّح مسير التفكير الإنساني في العالم. ولقد كان للاستشراق في ذلك باعٌ طويلة.

وكان «فريدريك روكّرت» الألماني (1788-1866) عبقرياً في اللغة، فنقل عدداً من الكتب إلى اللغة الألمانية. وكان فيما نقل **مقامات الحريري** بكلٍّ ما فيها من التلاعب بالألفاظ وبالمناحي الخياليّة. وكان «روكُرت» هذا أستاذاً للشاعر الألماني «غوته» (1749- 1822) - و«غوته» أكبر الشعراء في عصور أوروبا الحديثة («شكسبير» أعظم الروائيين، ولكن ليس أعظم الشعراء) - وأُعجِب «غوته» بالثقافة العربية الإسلامية فكان لذلك أثرٌ بالغ في أدبه، وكان له هو تأثير في النتاج الأدبي الألماني وغير الألماني. وكَثُر إعجاب «غوته» واتّسع فهمه للثقافة الإسلامية وللإسلام، فعبّر عن ذلك في كتابه **الديوان الشرقي والغربي** خاصّة فقال فيه:

إن يــكــن الإســـــلام تــســلــيــم الــقــضــا

نــحــن فـــي الإســـــلام نــحــيــا ونــمــوت

وكتب المستشرقون عدداً كبيراً جداً من البحوث في الموضوعات العربية المختلفة، في **دائرة المعارف الإسلامية** وفي المجلات التي أسّسوها لتلك البحوث خاصّة وفي كتبٍ مستقلّة. وجاؤوا بنظرياتٍ أثبتوها بالبراهين على فضل العرب وفضل الثقافة العربية، ممّا غفل عنه العرب أنفسهم أو قصّروا في مجاله. وسأورد فيما يلي عدداً من أسماء المستشرقين وعناوين الكتب لمحاً سريعاً:

- «إدوارد وليم لاين» (1801-1876) له **القاموس العربي الإنكليزي** ذكر فيه بعد كلّ معنى لكلّ كلمة فيه المصدر الذي وجد ذلك المعنى فيه.
- «راينهارت دوزي» الهولندي (1830- 1883)، له **تاريخ مسلمي إسبانيا**

(الأندلس) وله أيضاً **ملحق القواميس العربية** (ذكر فيه الكلمات التي غفل عنها واضعوا القواميس العربية الأولون).

- «الفرد فرايهرفون كريمر» النمساوي (1828 -1889)، له **تاريخ الثقافة الشرقية في أيام الخلفاء** (تاريخ التمدّن الإسلامي).

- «تيدور نولدكه» الألماني (1836 -1930) له **تاريخ القرآن**.

- «طوماس أرنولد» (1864 -1930)، له **الدعوة إلى الإسلام** (نقله نفر كثير من المسلمين إلى لغاتهم).

- «غوستاف لوبون» الفرنسي (1841-1931). له **الحضارة العربية** (وقد أخرجه باللغة الفرنسيّة مع صورٍ هي آية في الجمال وفي الدلالة على قيمة الحضارة العربية في العالم).

- «ليوني كاتيتاني» (1869 -1935) من الأسرة المالكة الإيطالية، التفت إلى دراسة تاريخ الإسلام ووضع كتاباً عنوانه **حوليّات الإسلام** سرد فيه أحداث التاريخ الإسلامي يوماً بيوم ولكن انتهى فيه إلى سنة 40 للهجرة (660م) فقط.

- «باول شوارتز» الألماني (ت1937م)، له دراسة في الشاعر «عمر بن أبي ربيعة»، لم يترك فيها زيادة لمستزيد، كما نشر **ديوان عمر بن أبي ربيعة** نشراً دقيقاً وافياً.

- الراهب اليسوعي «هنري لامنس» (1863-1937) البلجيكي الأصل الفرنسي اللغة (وسيأتي ذكره في المسيئين أيضاً). له عدد من الكتب في جغرافيّة لبنان وشبه جزيرة العرب، وله كتاب **معاوية الأول** («معاوية بن أبي سفيان»)، وهو غاية في الضبط والتحقيق. ثم له: **الإسلام عقيدة ومؤسسات** يبدو أنّه أراد أن يكفّر فيه عن أخطائه السابقة.

- «كارلو نلّينو» الإيطالي (1872-1928)، له علم الفلك: **تاريخه عند العرب في العصور الوسطى**، وفيه إحاطة وفهم للموضوع من جانبه التاريخي ومن جانبه العلمي.
- «هنري فارمر» الأرلندي الأصل الإنكليزي اللغة (1883-؟) له اختصاص في الموسيقى عموماً. ثمّ له **تاريخ الموسيقى العربية إلى القرن الثالث عشر الميلادي** (السابع الهجري).
- «راينولد آن نيكلسون» الإنكليزي (1868-1945)، له **التاريخ الأدبي عند العرب** نقل فيه مختارات الشعر شعراً (وكذلك نقل فيه عدداً من آيات القرآن الكريم شعراً). فحينما تقرأ نقوله الأدبية في الشعر، تعتريك هِزّة (بكسر الهاء) قريبة من الهِزّة التي تعتريك إذا قرأتها في اللغة العربية.
- «أوغست فيشر» الألماني (1865-1948) جمع الكلمات العربية مع الشواهد عليها، وكان يريد أن يجعل منها قاموساً تاريخياً للغة العربيّة **تطور معاني الكلمات في الأدوار المختلفة** ولم تسنح له الفرصة لذلك، فأوصى بالبطاقات التي كان قد جمعها لـ«مجمع اللغة العربية» في القاهرة. وقد أخرج مجمع اللغة العربية جزأين من هذا القاموس (حرف الألف وحرف الباء) بالطبع. والعمل مستمر على الأحرف الباقية.
- «أ.د. (عبد الرحمن) نيكل» (1885-؟) بوهيميّ الأصل (من تشيكوسلوفاكيا) أمريكي الجنسية يستطيع أن يكتب بعشرين لغة، وقد كان محرّراً في إحدى الجرائد اليابانية. نقل القرآن الكريم إلى اللغة التشيكيّة، وأشهر كتبه **الشعر الإسباني العربي (الأندلسّي) وصلته بشعر الشعراء، «التروبادور» (الشعر البروفنسالي: الفرنسي القديم)** دلّ فيه على أنّ الأدب البروفنسالي (أبا الشعر الفرنسي الحديث). نشأ بأثر من الشعر العربي عامّة والموشّحات الأندلسية خاصّة.

- «ميغل آسين بالاثيوس» الإسباني صاحب النظرية القائلة بأن «دانتي» أبا اللغة الإيطالية والشعر الإيطالي قد كتب رائعته **المهزلة الإلهية** متأثراً بكتاب **الفتوحات المكيّة** لـ«ابن عربي». وأنا لا أميل إلى ذلك وإن كنت أرى أن **المهزلة الإلهية** أقرب إلى **رسالة الغفران** لـ«أبي العلاء المعرّي».

- «كارل بروكلمان» (1868- 1956) عارف باللغات الأعرابية، وله كتاب في المقارنة بين هذه اللغات ثم له **تاريخ الأدب العربي** في خمسة أجزاءٍ كبيرةٍ لا يستطيع الباحث في تاريخ الأدب العربي أن يستغني عنه. والكتاب مبنيٌّ على المخطوطات الموجودة في المكاتب العامّة مع الإشارة إلى مكان وجودها وإلى مكان طبعها وتاريخ طبعها إذا كانت مطبوعةً مع الإحاطة بذلك كلّه، وقد يصف المخطوطة وصفاً كافياً، كما يشير إلى شارحي تلك المخطوطات والكتب مع تعيين سنوات وفيّاتهم، وينتهي الجزء الأخير بثلاثة فهارس: فهرس أعلام الأشخاص العرب، فهرس عناوين الكتب ثم فهرس أعلام المستشرقين وغيرهم.

- «جورج سارطون» (1880-1956) بلجيكي الأصل أمريكي الجنسية. وضع كتاباً ضخماً في ثلاثة أجزاء (الجزء الثالث منه قسمين صفحاتهما ألفان ومائة وخمس وخمسون صفحة) عنوانه **مقدمة إلى تاريخ العلم**. وقد جعل عنوان الفصل الذي يتناول العلم في القرن الرابع عشر للميلاد (الثامن للهجرة) «عصر ابن خلدون». والكتاب يكشف عن معرفةٍ واسعة بالعلم على اختلاف أنواعه وبتاريخ العلم (ولا شك في أنّه كان لـ«جورج سارطون» شركاء يساعدونه في جمع المعارف العلميّة من الكتب في جميع اللغات المكتوبة).

- «ليفي بروفنسال» (1894- 1956) له **تاريخ إسبانيا الإسلامية** (الأندلس) في ثلاثة أجزاء تتناول تاريخ الأندلس من الفتح العربي إلى سقوط الدولة الأموية (422هـ-1030م). وله أيضاً كتب أخرى تدور أيضاً حول الأندلس

وحول عدد من وجوه الثقافة الإسلامية. وكان له اختصاص بقراءة الكتابة على الخشب.

- «هانس هاينريش شيدر» الألماني (1896-1957)، كان له اختصاص باللغات العربية والشرقية الأخرى وبأصل المانويّة وتطوّرها. تولّى التدريس في جامعة كونيفسبرغ (1926 -1930)، وجامعة لايبزك (1930- 1931)، وجامعة برلين (1931-1945). وله كتب، منها **إحساس غوته (بروعة) الشرق** (1938).

أرجو أن يكون في هذه الأسماء دلالة على ما أردت، إذ ليس من الممكن أن أذكر كلّ من كان له فضلٌ في هذا الباب.

المسيؤون

أمّا المستشرقون الذين أساؤوا عفواً (وهؤلاء معذورون)، أو قصداً (وهؤلاء كثيرون جداً) فإنّ عددهم يعيا عن الحصر، وخصوصاً أولئك الذين يعاصروننا. وسأورد كلماتٍ موجزةٍ للدلالة لا للاستيفاء:

من الذين أساؤوا عفواً (من غير أن يقصدوا) «تيودور نولدكه» الألماني (ت1930) - برغم كتابه القيّم **تاريخ القرآن** ومقاله الواسع عن القرآن في الطبعة الحادية عشرة من **دائرة المعارف البريطانية** (1911). مرّ «نولدكه» بالآية الكريمة في سورة يوسف (12: 49): ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، فزعم أنّ كلمة «يغاث» هنا لا تدلّ على حالة الجوّ في مصر، فإنّ مصر لا تعتمد في خصبها على المطر، بل على فيضان النيل. ولقد غاب عن «نولدكه» أمر يسير في الصرف: إنّ الفعل المجهول «يُغاث» يمكن أن يكون مصوغاً من الفعل المجرد «غاث» (غاث الله البلاد: أنزل فيها الغيث؛ أي: المطر) ومن الفعل المزيد «أغاث» (أغاث الله عباده: أجاب دعاءهم وأنقذهم). وقد ظن

«نولدكه» أنّ المقصود بالآية الكريمة المعنى الأول، مع أنّ المقصود هو المعنى الثاني (وإن كان نفر من المفسرين أخطؤوا في مثل ذلك).

أمّا الذين أساؤوا قصداً أو جهلاً أشدّ من قصد السوء نذكر منهم «بكر» الألماني (1876-1933) وكان وزيراً للمعارف (1925 -1930) قبل مجيء «هتلر» إلى الحكم. أسس «بكر» مجلّة **الإسلام** (1910). وله كتاب عنوانه **دراسات في الإسلام** (جزآن 1924-1932). وله من الإساءات الجملة التالية:

«لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين ما دام هذا القرآن موجوداً».

ثمّ يأتي نفر كثيرون من المستشرقين من أمثال «وليم موير (ميور)» الإنكليزي (1819-1905)، وله كتاب **حياة محمد**، و«أغناطيوس غولدزيهر» المجري (1850-1921)، وله كتب من عناوينها: **الخرافات عند العبرانيين - دراسات محمّديّة** (إسلامية) - **محاضرات في الإسلام** (1910). ومن هؤلاء أيضاً «دافيد (داوود) صموئيل (السموال) مارغو ليوث» (1858 -1940). له **معجم الأدباء** لـ«ياقوت الحَمَويّ» (نشره بالتصوير الفوتوغرافي). كما نشر كتباً أخرى. ثمّ له **حياة محمّد**. و«مارغوليوث» كان يهودياً فصبأ إلى المسيحية (قيل: بل أبوه فعل ذلك).

إنّ هؤلاء المستشرقين المسيئين وأمثالهم يقولون: إنّ الإسلام شكلٌ من أشكالِ النصرانيّة - أو إنّ أحسن ما في الإسلام مأخوذٌ من النصرانيّة - أو إنّ ما في القرآن مأخوذٌ من التوراة... إنّ هؤلاء وأمثالهم مسيؤون إساءةً يحمل عليها الحقد وشيء من الجهل. أمّا المستشرقون السياسيّون فسأكتفي بالكلام على اثنين منهم، وهما «وليم مارسيه» (1872-1956) و«لويس ماسينون» (1883-1962) الفرنسيّان.

سأبدأ بـ«لويس ماسينيون»، الذي كان مستشاراً للشؤون الشرقية في وزارة

الخارجيّة الفرنسيّة. فالعنصر السياسي (والاستعماري) فيه ليس غالباً. ثمّ إنّ «ماسينيون» اهتمّ بالتصوّف المتطرّف. والتصوّف في جميع أشكاله مرضٌ نفسيّ معروفٌ. ولقد وصف الإمام أبو حامد الغزّاليّ (ت505هـ -1111م) هذا المرض بالتفصيل في كتابه **المنقذ من الضلال** وذكر بصراحة كيف أنه تخلّص من الشكّ وعاد إلى اليقين: «لمّا شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصّحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين» (دمشق -مكتب النشر العربي- الطبعة الأولى 1352هـ -1934م، ص12). فالتشجيع على دراسة التصوف المتطرّف والتشجيع على ممارسته وحدهما ضررٌ كبيرٌ.

وكان «وليم مارسيه» بارعاً جداً في اللغات واللهجات العربيّة، كبير الذكاء جيّد القول. ولكنّه كان يعمل للسياسة أكثر ممّا كان يعمل للعلم.

بعد أن حضرت في باريس (1936) على «ماسينيون» و«مارسيه» و«ليفي بروفنسال» وغيرهم مدّة، وأردت العودة إلى ألمانيا لمتابعة دراستي الأساسية. ودّعت الأساتذة، فأراد «مارسيه» أن يحادثني قبل أن أغادر بناء السوربون. قال لي: «يا عمر، أنت تدرس في ألمانيا فتدفع أقساطاً مدرسيّة وتنفق على معيشتك.... فتعال إلينا. ستتعلم مجاناً وسنعطيك منحة. ثمّ إذا أنت رجعت إلى بيروت... وجدت منصباً ينتظرك».

ليس من الضروريّ أن أذكر الآن ردّي على تلك الإهانة. ولكنّي أريد أن أقول: أنا أعرف أشخاصاً درسوا في فرنسا وفي غير فرنسا، ثمّ لما عادوا إلى بيروت (وإلى غير بيروت) وجدوا مناصب تنتظرهم قد فعلوا ما عجز المستشرقون والمبشرون عن تنفيذه، وزادوا في الشرّ على ما كان المستشرقون والمبشّرون يريدونه.

وهنا أعود مرّةً ثانيةً إلى الراهب اليسوعي «هنري لامنس» (ت1937). كان

«لامنس» يبحث عن تهمٍ يلفّقها: له مقالات في هذا التفتيش أذكر لك منها مقالته المشهورة «محمّد، أكان مخلصاً في دعوته؟»!

كان في المستشرقين يهود، وكان فيهم نصارى من الكاثوليك ومن البروتستانت. وكان فيهم المحسنون كما كان فيهم المسيؤون. ولكن أنا الآن أنظر إلى ما عملوا لا إلى ما كانوا. فالمحسن منهم من أحسن في دراسة الثقافة الإسلامية (وكان مخلصاً لوجه العلم) بقطع النظر عن أصله. والمسيء منهم مَنْ جانَبَ سبيلَ العلم. وأنا أقتدي في ذلك بقول الفيلسوف «ابن رشد» لمّا وقف مثل موقفي، فقال في كتاب **فصل المقال** (بيروت المطبعة الكاثوليكيّة 1961، ص33،31):

«يجب بالشرع النظر في القياس العقلي وأنواعه، كما يجب النظر في القياس الفقهي (الديني)... فبيّنَ أنّه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله مَنْ تقدّمنا في ذلك، سواء أكان (من تقدمنا) مشاركاً لنا في الملّة (الدين) أم غير مشاركٍ لنا في الملّة... وإذا كان هذا هكذا، فقد يجب علينا إذا ألفينا (وجدنا) لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك. فما كان منها موافقاً للحقّ قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه. وما كان منه غير موافقٍ للحقّ نبّهنا عليه وحذّرنا منه وعذرناهم».

وأنا و«ابن رشد» قد اقتدينا بقول الله تعالى (65:2، سورة البقرة): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (راجع أيضاً 67:5، سورة المائدة، ثم 17:22 سورة الحجّ).

هذه الكلمة، أرجو أن تكون وافيةً بموضوعٍ لا يجوز أن يُدرسَ من الجانب العاطفي في حياة الأفراد والجماعات.

الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم

ملخص كتاب «مصطفى السباعي» (1915-1964)[1]

لم يعن المصنّفون والكتّاب بدراسة الاستشراق وأهدافه ومراميه وحسناته وسيّئاته، والمستشرقين وطوائفهم وأعمالهم وما أصابوا فيه وما أخطؤوا. فما كتب في هذا الموضوع لا يخلو عن أن يكون تمجيداً لهم مثل كتاب المستشرقون للأستاذ «نجيب العقيقي» أو يكون كشفاً موجزاً عن أهدافهم التبشيريّة والاستعماريّة. لذا سنحاول في هذا الكتاب دراسة هذا الموضوع بأبعاده الرئيسة.

أوّلاً: تاريخ الاستشراق

لا يُعرف بالضبط من هو أوّل غربيّ عُني بالدّراسات الشّرقيّة ولا في أيّ وقت كان ذلك. ولكنّ المؤكّد أنّ بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبّان عظمتها ومجدها، وتثقّفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربيّة إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصّة في الفلسفة والطب والرياضيات... ومن أوائل هؤلاء الرهبان، الرّاهب الفرنسي «جربرت»(Jerbert) الذي انتخب بابًا لكنيسة روما عام 999م بعد تعلّمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده، «وبطرس المحترم» (1092 - 1156 Pierre le Vénérable) و«جيرار دي كريمون» (Gerard de Gremone 1187-1114). وبعد أن عاد هؤلاء الرّهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلّفات أشهر علمائهم، ثم أسّست المعاهد للدّراسات العربيّة أمثال مدرسة «بادوي» العربية،

---

(1) «مصطفى السباعي»: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، 1998.

كما للمؤلّف مناقشات موسّعة للمستشرقين في عددٍ من كتبه خاصّة كتابه السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي.

وأخذت الأديرة والمدارس العربيّة تدرس مؤلّفات العرب المترجمة إلى اللاتينيّة، واستمرّت الجامعات الغربيّة تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصليّة للدّراسات قرابة ستة قرون.

ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللّغة العربيّة، وترجموا القرآن وبعض الكتب العربية العلميّة والأدبيّة، حتّى جاء القرن الثامن عشر وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته. فإذا بعددٍ من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق، ويصدرون لذلك المجلّات في جميع الممالك الغربيّة، ويغيرون على المخطوطات العربيّة في البلاد العربيّة والإسلاميّة، فيشترونها من أصحابها الجهلة، أو يسرقونها من المكتبات العامّة التي كانت في نهاية الفوضى، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم. وإذا بأعدادٍ هائلةٍ من نوادر المخطوطات العربيّة تنتقل إلى مكتبات أوروبا. وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مئتين وخمسين ألف مجلّدًا، وما زال هذا العدد يتزايد حتى اليوم. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عُقد أوّل مؤتمر للمستشرقين في باريس عام 1873، وتتالى عقد المؤتمرات التي تتلقّى فيها الدّراسات عن الشّرق وأديانه وحضاراته وما تزال تعقد حتّى هذه الأيّام.

ثانيًا: ميدان الاستشراق

بدأ الاستشراق بدراسة اللّغة العربيّة والإسلام، وانتهى - بعد التوسّع الاستعماريّ الغربيّ في الشّرق - إلى دراسة جميع ديانات الشّرق وعاداته وحضاراته وجغرافيّته وتقاليده وأشهر لغاته، وإن كانت العناية بالإسلام والآداب العربيّة والحضارة الإسلاميّة هي أهمّ ما يُعنى به المستشرقون حتّى اليوم؛ نظرًا للدّوافع الدّينيّة والسياسيّة التي شجّعت على الدّراسات الشّرقيّة.

ثالثاً: دوافع الاستشراق

تتنوّع دوافع الاستشراق وبواعثه ما بين دينيّة وعلميّة وتجاريّة وسياسيّة استعماريّة، وهي كما يلي:

1 ـ الدّافع الدّيني: لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرّف إلى الدافع الأوّل للاستشراق عند الغربيين وهو الدافع الديني. فقد بدأ بالرهبان - كما رأينا - واستمرّ كذلك حتّى عصرنا الحاضر كما سنرى. وهؤلاء كان يهمّهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوّهوا محاسنه ويحرّفوا حقائقه ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينيّة أنّ الإسلام - وقد كان يومئذ الخصم الوحيد للمسيحيّة في نظر الغربيين - دينٌ لا يستحقّ الانتشار، وأنّ المسلمين قوم همجٌ لصوصٌ وسفّاكو دماءٍ، يحثّهم دينهم على الملذّات الجسديّة، ويبعدهم عن كلّ سموّ روحيّ وخلقيّ. ثمّ اشتدّت حاجتهم إلى هذا الهجوم في العصر الحاضر بعد أن رأوا الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين، وأخذت تشككهم بكلّ التعاليم التي كانوا يتلقّونها عن رجال الدين عندهم فيما مضى، فلم يجدوا خيراً من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدةٍ وكتبٍ مقدّسة. واستغلّوا خوف الغربيين من قوّة الإسلام وكرههم لأهله المترسّب في نفوسهم منذ الفتوحات الإسلاميّة الأولى ثمّ الحروب الصليبيّة ثمّ الفتوحات العثمانيّة في أوروبا، وازدادوا نشاطًا في الدّراسات الإسلاميّة.

2 ـ الدّافع التبشيري: لم يتناس المستشرقون هذا البعد في دراساتهم العلميّة، وهم قبل كلّ شيء رجال دين. فأخذوا يهدفون إلى تشويه سمعة الإسلام في نفوس روّاد ثقافتهم من المسلمين؛ لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلاميّة، والتشكيك في التّراث الإسلامي والحضارة الإسلاميّة وكلّ ما يتّصل بالإسلام من علمٍ وأدبٍ وتراثٍ.

3 ـ الدّافع الاستعماري: لمّا انتهت الحروب الصليبيّة بهزيمة الصليبيين، وهي في ظاهرها حروب دينيّة وفي حقيقتها حروب استعماريّة، لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد العرب فبلاد الإسلام. فاتّجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كلّ شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات؛ ليتعرّفوا إلى مواطن القوّة فيها فيضعّفوها، وإلى مواطن الضّعف فيغتنموها. ولمّا تمّ لهم الاستيلاء العسكريّ والسّيطرة السّياسيّة، كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحيّة والمعنويّة في نفوسنا، وبثّ الوهن والارتباط في تفكيرنا وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانيّة، فنفقد الثّقة بأنفسنا، ونرتمي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقيّة والمبادئ العقائديّة. وبذلك يتمّ لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعًا لا تقوم لنا من بعده قائمة.

4 ـ يرمي الاستشراق أيضًا إلى معاضدة الاستعمار في تفتيت وحدة الأمم والشعوب، كما حدث في العالم الإسلامي حيث طرحوا نظريّة وأفكار القوميات والوطنية «إنّهم ما برحوا منذ نصف قرن يحاولون إحياء الفرعونيّة في مصر، والفينيقيّة في سوريا ولبنان وفلسطين، والآشوريّة في العراق وهكذا؛ ليتسنّى لهم تشتيت شملنا كأمّة واحدة، وليعرقلوا قوّة الاندفاع التحرّريّة عن عملها في قوّتنا وتحرّرنا وسيادتنا على أرضنا وثرواتنا ودعوتنا من جديد إلى قيادة ركب الحضارة، والتقائنا مع إخوتنا في العقيدة والمثل العليا والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة».

5 ـ الدّافع التّجاري: ومن الدوافع التي كان لها أثرها في تنشيط الاستشراق، رغبة الغربيين في التعامل معنا لترويج بضائعهم وشراء مواردنا الطبيعية الخام بأبخس الأثمان، ولقتل صناعتنا المحليّة التي كانت لها مصانع قائمة مزدهرة في مختلف بلاد العرب والمسلمين.

6 ـ الدّافع السياسي: وهنالك دافع آخر أخذ يتجلّى في عصرنا الحاضر بعد استقلال أكثر الدول العربية والإسلامية، ففي كلّ سفارة من سفارات الدّول الغربيّة لدى هذه الدول سكرتير أو ملحق ثقافي يحسن اللّغة العربيّة؛ ليتمكّن من الاتّصال برجال الفكر والصحافة والسياسة فيتعرّف إلى أفكارهم، ويبثّ فيهم من الاتّجاهات السياسيَّة ما تريده دولته. وكثيرًا ما كان لهذا الاتّصال أثره الخطير في الماضي حين كان السّفراء الغربيّون - ولا يزالون في بعض البلاد العربيّة والإسلاميّة - يبثّون الدّسائس للتفرقة بين الدّول العربيّة بعضها مع بعض، وبين الدّول العربيّة والدّول الإسلاميّة، بحجّة توجيه النّصح وإسداء المعونة بعد أن درسوا تمامًا نفسيّة كثيرين من المسؤولين في تلك البلاد، وعرفوا نواحي الضّعف في سياستهم العامّة، كما عرفوا الاتّجاهات الشعبيّة الخطيرة على مصالحهم واستعمارهم.

7 ـ الدّافع العلمي: ومن المستشرقين نفر قليل جدًا أقبلوا على الاستشراق بدافع حبّ الاطّلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها. وهؤلاء كانوا أقلّ من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه؛ لأنّهم لم يكونوا يتعمّدون الدّس والتّحريف، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحقّ وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين، بل إنّ منهم من اهتدى إلى الإسلام وآمن برسالته. على أنّ هؤلاء لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد الماليّة الخاصّة ما يمكّنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانةٍ وإخلاص؛ لأنّ أبحاثهم المجرّدة عن الهوى، لا تلقى رواجًا، لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامّة الباحثين. ومن ثمّة فهي لا تدرّ عليهم ربحًا ولا مالاً؛ ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين.

رابعًا: أهداف الاستشراق ووسائله

تنقسم أهداف المستشرقين من الدّراسات الاستشراقيّة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: هدف علمي مشبوه، ويهدف إلى:

- التشكيك بصحّة رسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومصدرها الإلهي، فجمهورهم ينكر أن يكون الرّسول نبيًّا موحىً إليه من عند الله -جل شأنه- ويتخبّطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحيانًا، وبخاصّة «عائشة» أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فمن المستشرقين من يُرجع ذلك إلى «صرع» كان ينتاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حينًا بعد حين، ومنهم من يرجعه إلى تخيّلات كانت تملأ ذهن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومنهم من يفسّرها بمرض نفسيّ، وهكذا، كأنّ الله لم يُرسل نبيًّا قبله حتّى يصعب عليهم تفسير ظاهرة الوحي، ولما كانوا كلّهم ما بين يهود ومسيحيين يعترفون بأنبياء التوراة، وهم كانوا أقلّ شأنًا من «محمد» (صلى الله عليه وآله وسلم) في التّاريخ والتأثير والمبادئ التي نادى بها، كان إنكارهم لنبوّة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تعنّتًا مبعثه التّعصّب الدّيني الذي يملأ نفوس أكثرهم كرهبان وقسس ومبشّرين.

- ويتبع ذلك إنكارهم أن يكون القرآن كتابًا منزّلًا عليه من عند الله عز وجل، وحين يفحمهم ما ورد فيه من حقائق تاريخيّة عن الأمم الماضية ممّا يستحيل صدوره عن أمّيٍّ مثل «محمد» (صلى الله عليه وآله وسلم)، يزعمون ما زعمه المشركون الجاهليون في عهد الرسول من أنّه استمدّ هذه المعلومات من أناسٍ كانوا يخبرونه بها، ويتخبّطون في ذلك تخبّطًا عجيبًا. وحين يفحمهم ما جاء في القرآن من حقائق علميّة لم تعرف وتكتشف إلّا في هذا العصر،

يرجعون ذلك إلى ذكاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فيقعون في تخبّط أشدّ غرابة من سابقه.

- ويتبع إنكارهم لنبوّة الرسول وسماويّة القرآن، إنكارهم أن يكون الإسلام دينًا من عند الله، وإنّما هو ملفّق - عندهم - من الديانتين اليهوديّة والمسيحيّة، وليس لهم في ذلك مستند يؤيّده البحث العلمي، وإنّما هي ادّعاءات تستند على بعض نقاط الالتقاء بين الإسلام والدينين السابقين. ويلاحظ أنّ المستشرقين اليهود -أمثال «جولدتسيهر» و«شاخت» - هم أشدّ حرصًا على ادّعاء استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه. أمّا المستشرقون المسيحيون فيجرون وراءهم في هذه الدعوى؛ إذ ليس في المسيحيّة تشريعٌ يستطيعون أن يزعموا تأثّر الإسلام به وأخذه منه، وإنّما فيه مبادئ أخلاقيّة زعموا أنّها أثّرت في الإسلام، ودخلت عليه منها. كأنّ المفروض في الديانات الإلهيّة أن تتعارض مبادئها الأخلاقيّة، وكأنّ الذي أوحى بدين هو غير الذي أوحى بدين آخر، فتعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

- التشكيك في صحّة الحديث النّبوي الذي اعتمده علماؤنا المحقّقون: ويتذرّع هؤلاء المستشرقون بما دخل على الحديث النّبوي من وضعٍ ودسٍّ؛ متجاهلين تلك الجهود التي بذلها علماؤنا لتنقية الحديث الصحيح من غيره، مستندين إلى قواعد بالغة الدّقّة في التثبّت والتّحرّي، مما لم يعهد عندهم في ديانتهم عشر معشاره في التأكّد من صحّة الكتب المقدّسة عندهم. والذي حملهم على ركوب متن الشطط في دعواهم هذه، ما رأوه في الحديث النبوي الذي اعتمده علماؤنا من ثروة فكريّة وتشريعيّة مدهشة، وهم لا يعتقدون بنبوّة الرّسول، فادّعوا أنّ هذا لا يعقل أن يصدر كلّه عن «محمد» الأمّيّ، بل هو عمل المسلمين خلال القرون الثلاثة الأولى، فالعقدة النفسيّة عندهم هي عدم تصديقهم بنبوّة الرّسول، ومنها تنبعث كلّ تخبّطاتهم وأوهامهم.

- التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتيّة: ذلك التشريع الهائل الذي لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور. لقد سقط في أيديهم حين اطّلاعهم على عظمته وهم لا يؤمنون بنبوّة الرّسول، فلم يجدوا بدّاً من الزعم بأنّ هذا الفقه العظيم مستمدّ من الفقه الروماني، أي أنّه مستمدّ منهم. وقد بيّن علماؤنا الباحثون تهافت هذه الدعوى. وفيما قرّره مؤتمر القانون المقارن المنعقد بلاهاي من أنّ الفقه الإسلامي فقهٌ مستقلٌّ بذاته وليس مستمدًّا من أيّ فقه آخر، ما يفحم المتعنّتين منهم ويقنع المنصفين الذين لا يبغون غير الحق سبيلاً.

- التشكيك في قدرة اللّغة العربيّة على مسايرة التّطوّر العلمي: لنظلّ عالة على مصطلحاتهم التي تشعرنا بفضلهم وسلطانهم الأدبي علينا. ويلحق به تشكيكهم في غنى الأدب العربي، وإظهاره مجدبًا فقيرًا لنتّجه إلى آدابهم. وذلك هو الاستعمار الأدبي الذي يبغونه مع الاستعمار العسكري الذي يرتكبونه.

القسم الثاني: الأهداف الدينيّة والسياسيّة

وتتلخّص فيما يلي:

- تشكيك المسلمين بنبيّهم وقرآنهم وشريعتهم وفقههم، ففي ذلك هدفان: ديني واستعماري.

- تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، إذ يدّعون أنّ الحضارة الإسلاميّة منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلاّ نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، لم يكن لهم إبداع فكريّ ولا ابتكار حضاريّ، وكان في حضارتهم كلّ النقائص. وإذا تحدّثوا بشيءٍ عن حسناتها - وقليلاً ما يفعلون - يذكرونها على مضضٍ مع انتقاصٍ كبير.

- إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبثّ روح الشّكّ في كلّ ما بين أيديهم من قيمٍ وعقيدةٍ ومُثُلٍ عليا؛ ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم، ونشر ثقافته الحضاريّة فيما بينهم، فيكونوا عبيدًا لها، يجرّهم حبّها إلى حبّهم أو إضعاف روح المقاومة في نفوسهم.
- إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أقطارهم عن طريق إحياء القوميات التي كانت لهم قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم. وكذلك يفعلون في البلاد العربية، يجهدون لمنع اجتماع شملها ووحدة كلمتها بكلّ ما في أذهانهم من قدرة على تحريف الحقائق، وتصيّد الحوادث الفرديّة في التاريخ؛ ليصنعوا منها تاريخًا جديدًا يدعو إلى ما يريدون من منع الوحدة بين البلاد العربيّة والتّفاهم على الحقّ والخير بين جماهيرها.

القسم الثالث: أهداف علميّة خالصة:

هذه الأهداف لا يقصد منها إلّا البحث والتمحيص، ودراسة التّراث العربي والإسلامي دراسة تكشف لهم بعض الحقائق الخافية عنهم. وهذا الصّنف قليل عدده جدًا. وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إمّا لجهلهم بأساليب اللّغة العربيّة، وإمّا لجهلهم بالأجواء الإسلاميّة التّاريخيّة على حقيقتها، فيحبّون أن يتصوّروها كما يتصوّرون مجتمعاتهم، ناسين الفروق الطبيعيّة والنفسيّة والزمنيّة التي تفرّق بين الأجواء التاريخيّة التي يدرسونها، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها.

وهذه الفئة أسلم الفئات الثلاث في أهدافها، وأقلّها خطرًا؛ إذ سرعان ما يرجعون إلى الحقّ حين يتبيّن لهم. ومنهم من يعيش بقلبه وفكره في جوّ البيئة التي يدرسها، فيأتي بنتائج تنطبق مع الحقّ والصّدق والواقع. ولكنّهم يلقون عنتًا من

أصحاب الهدفين السابقين؛ إذ سرعان ما يتّهمونهم بالانحراف عن النّهج العلمي، أو الانسياق وراء العاطفة، أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتّقرّب إليهم، كما فعلوا مع «توماس أرنولد» حين أنصف المسلمين في كتابه العظيم **الدعوة إلى الإسلام**. فقد برهن على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدّين، على عكس مخالفيهم معهم. هذا الكتاب الذي يعتبر من أدقّ المراجع وأوثقها في تاريخ التّسامح الديني في الإسلام، يطعن فيه المستشرقون المتعصّبون وخاصّة المبشّرين منهم، بأنّ مؤلّفه كان مندفعًا بعاطفةٍ قويّةٍ من الحبّ والعطف على المسلمين، مع أنّه لم يذكر فيه حادثة إلا أرجعها إلى مصدرها.

ومن هؤلاء من يؤدّي بهم البحث الخالص لوجه الحقّ إلى اعتناق الإسلام والدفاع عنه في أوساط أقوامهم الغربيين، كما فعل المستشرق الفرنسي الفنّان «دينيه» الذي عاش في الجزائر، فأعجب بالإسلام وأعلن إسلامه، وتسمّى باسم «ناصر الدين دينيه»، وألّف مع عالم جزائريّ كتابًا عن سيرة الرسول ﷺ، وله كتاب **أشعة خاصّة بنور الإسلام** بيّن فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله. وقد توفّي هذا المستشرق المسلم في فرنسا، ونقل جثمانه إلى الجزائر ودفن فيها.

وسائل المستشرقين لتحقيق أهدافهم:

لم يترك المستشرقون وسيلة لنشر أبحاثهم وبثّ آرائهم إلا سلكوها، ومنها:

- تأليف الكتب في موضوعات مختلفة عن الإسلام واتّجاهاته ورسوله وقرآنه. وفي أكثرها كثير من التحريف المتعمّد في نقل النصوص أو بترها، وفي فهم الوقائع التاريخيّة، والاستنتاج منها.
- إصدار المجلاّت الخاصّة ببحوثهم حول الإسلام وبلاده وشعوبه.
- إرساليّات التبشير إلى العالم الإسلامي لتزاول أعمالاً إنسانيّة في الظاهر كالمستشفيات والجمعيات والمدارس والملاجئ، ودور الضيافة كجمعيات الشبان المسيحية وأشباهها.

- إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلميّة. ومن المؤسف أنّ أشدّهم خطراً وعداءً للإسلام كانوا يستدعون إلى الجامعات العربيّة والإسلاميّة في القاهرة ودمشق وبغداد والرباط وكراتشي ولاهور وعليكرة وغيرها ليتحدّثوا عن الإسلام!
- مقالات في الصحف المحلّيّة عندهم. وقد استطاعوا شراء عدد من الصحف المحليّة في بلادنا، وقد جاء في كتاب **التبشير والاستعمار** للدكتورين «عمر فروخ» و«مصطفى الخالدي» - وهو من أهمّ الوثائق التاريخية عن نشاط المستشرقين والمبشرين لخدمة الاستعمار - «... يعلن المبشّرون أنّهم استغلّوا الصحافة المصريّة على الأخصّ للتعبير عن الآراء المسيحيّة أكثر مما استطاعوا في أيّ بلد إسلامي آخر. لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصريّة، إمّا مأجورة في أكثر الأحيان، أو بلا أجرة في أحوال نادرة».
- عقد المؤتمرات لإحكام خططهم في الحقيقة، ولبحوث عامّة في الظاهر. وما زالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام 1783 حتى الآن.
- إنشاء موسوعة **دائرة المعارف الإسلامية**، وقد أصدروها بلغات عدّة، وبدؤوا بإصدار طبعة جديدة منها، وقد اطّلعت على الأجزاء الأولى للطبعة الثانية من سكرتير الموسوعة حين زرت أكسفورد عام 1956، وقد بُدئ بترجمة الطبعة الأولى إلى اللّغة العربيّة، وصدر منها حتى الآن ثلاثة عشر مجلّدًا. وفي هذه الموسوعة التي حشد لها كبار المستشرقين وأشدّهم عداءً للإسلام، قد دسّ السّمّ في الدّسم، وملئت بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلّق به.

خامسًا: نقد منهجيّة الاستشراق

يعتمد جمهرة المستشرقين في تحرير أبحاثهم عن الشريعة الإسلامية على ميزان غريب بالغ الغرابة في ميدان البحث العلمي. فمن المعروف أنّ العالم

المخلص يتجرّد عن كلّ هوى وميل شخصي فيما يريد البحث عنه ويتابع النصوص والمراجع الموثوق بها، فما أدّت إليه بعد المقارنة والتمحيص كان هو النتيجة المحتّمة التي ينبغي عليه اعتقادها.

إنّ أغلب هؤلاء المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معيّنة يريدون تصيّد الأدلّة لإثباتها. وحين يبحثون عن هذه الأدلّة، لا تهمّهم صحّتها بمقدار ما يهمّهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصيّة. وكثيرًا ما يستنبطون الأمر الكلّي من حادثة جزئيّة. ومن هنا يقعون في مفارقات عجيبة لولا الهوى والغرض لربؤوا بأنفسهم عنها، ويضرب لذلك بعض الأمثلة:

1 ـ محاولة المستشرق «جولد تسيهر» لإثبات زعمه بأنّ الحديث في مجموعه من صنع القرون الثلاثة الأولى للهجرة لا من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وادّعى أنّ أحكام الشريعة لم تكن معروفة لجمهور المسلمين في الصدر الأوّل من الإسلام، وأنّ الجهل بها وبتاريخ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان لاصقًا بكبار الأئمّة، وقد حشد لذلك بعض الرّوايات الساقطة المتهافتة.

ولا شكّ في أنّ أقلّ النّاس اطّلاعًا على التاريخ يردّ مثل هذه الرّواية، فـ«أبو حنيفة»، وهو من أشهر أئمة الإسلام الذين تحدّثوا عن أحكام الحرب في الإسلام - في فقهه الذي أثر عنه، وفي كتب تلامذته الذين نشروا علمه كـ«أبي يوسف» و«محمد»، - يستحيل على العقل أن يصدّق بأنّه كان جاهلاً بوقائع سيرة الرسول ومغازيه وهي التي استمدّ منها فقهه في أحكام الحرب، وحسبنا أن نذكر هنا كتابين في فقهه في هذا الموضوع يعتبران من أهمّ الكتب المؤلّفة في التّشريع الدولي، في الإسلام.

أوّلهما: كتاب الرّدّ على سير الأوزاعي لـ«أبي يوسف» رحمه الله.

وثانيهما: كتاب السير الكبير لـ«محمد» رحمه الله، وقد شرحه «السرخسي».

وهو من أقدم مراجع الفقه الإسلامي وأهمّها في العلاقات الدوليّة. وقد طبع أخيرًا تحت إشراف جامعة الدول العربيّة برغبة من «جمعيّة «محمد بن الحسن الشيباني» للحقوق الدوليّة».

وفي هذين الكتابين يتّضح إلمام تلامذة الإمام - وهم حاملو علمه - بتاريخ المعارك الإسلاميّة في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفائه الراشدين.

و«جولد تسيهر» لا يخفى عليه أمر هذين الكتابين، وكان بإمكانه لو أراد الحقّ أن يعرف ما إذا كان «أبو حنيفة» جاهلاً بالسّيرة أو عالمًا بها، من غير أن يلجأ إلى رواية «الدميري» في **الحيوان**، وهو ليس مؤرّخًا وكتابه ليس كتاب فقه ولا تاريخ، وإنّما يحشر فيه كلّ ما يرى إيراده من حكايات ونوادر تتّصل بموضوع كتابه من غير أن يعني نفسه البحث عن صحّتها. ولا يخفى ما كان بين «أبي حنيفة» ومعاصريه ومقلّديهم من بعدهم من عداءٍ منهجي فكري. وقد كان هذا العداء مادّة دسمة لرواة الأخبار ومؤلّفي كتب الحكايات والنوادر لنسبة حوادث وحكايات منها ما يرفع من شأن «أبي حنيفة»، ومنها ما يضع من سمعته. وأكثرها ملفّق موضوع للمسامرة والتندر من قبل محبّيه أو كارهيه على السواء، مما يجعلها عديمة القيمة العلميّة في نظر العلماء والباحثين.

2 ـ ومثال آخر عن هذا المستشرق أيضًا، فقد أعرض عمّا أجمعت عليه كتب الجرح والتعديل وكتب التّاريخ من صدق الإمام «محمد بن مسلم بن شهاب الزهري» رحمه الله (50-124هـ) وورعه وأمانته ودينه. وزعم أنّ «الزّهري» لم يكن كذلك بل كان يضع الحديث للأمويين، وهو الذي وضع الحديث: «لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد» إلخ... لـ«عبد الملك بن مروان»،

وكلّ حجّته أنّ هذا الحديث من رواية «الزهري»، وأنّ «الزهري» كان معاصرًا لـ«عبد الملك بن مروان»[1]!

3 ـ يحاول المستشرقون أن يؤكّدوا تعالي العرب الفاتحين عن المسلمين الأعاجم وانتقاصهم من مكانتهم. وفي ذلك يقول المستشرق «بروكلمان» في كتابه **تاريخ الشعوب الإسلامية**: «وإذا كان العرب يؤلّفون طبقة الحاكمين، فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية هم الرعيّة، أي القطيع! وجمعها رعايا، كما يدعوهم تشبيه سامٍ قديم كان مألوفًا حتى عند الآشوريين».

ويظهر تحامل «بروكلمان» في هذه المسألة، إذ أعرض عن جميع الوثائق التاريخيّة التي تؤكّد عدالة الفاتحين المسلمين ومعاملتهم أفراد الشعب على السواء من غير تفرقة بين عربي وغيره، وتعلّق بلفظ «الرعية» تعلّقًا لغويًّا فاسداً، فحمّل الكلمة ما لا تحتمل، واستنتج منها أنّ المسلمين نظروا إلى الأعاجم نظر القطيع من الغنم. ولو رجعنا إلى مادة «رعي» في قواميس اللّغة وجدناها تقول كما في **القاموس المحيط**: والراعي كلّ مَن وَلِيَ أمرَ قومٍ، والقوم رعية، وراعيته: لاحظته محسنًا إليه، وراعيت أمره: حفظته، كرعاه. فالراعي في اللّغة

---

(1) المحرّر: ذكر الدكتور «السباعي» قصّة حصلت له مرتبطة برأي «جولدتسيهر» حول «الزهري» (ص12 وما يليها من كتابه). وخلاصتها أنّه سمع محاضرة الدكتور «علي حسن عبد القادر»، الذي نقل رأي «جولدتسيهر» في «الزهري»، فطلب منه أن يترجم له نصّه حول المسألة بشكل دقيق. ثمّ عمد بعدها إلى البحث والتنقيب عن ترجمة «الزهري»، قال: «فلم أترك كتاباً مخطوطاً في مكتبة الأزهر وفي دار الكتب المصريّة من كتب التراجم إلّا رجعت إليها ونقلت منها ما يتعلّق ب«الزهري»، واستغرق ذلك ثلاثة أشهر كنت أشتغل فيها منذ مغادرتي كليّة الشريعة بعد الدرس حتّى أواخر الليل. فلمّا تجمّعت لديّ المعلومات الصحيحة، قلت لأستاذنا الدكتور «عبد القادر»: لقد تبين لي أنّ «جولدتسيهر» قد حرّف نصوص الأقدمين فيما يتعلّق ب«الزهري». فأجابني بقوله: لا يمكن هذا؛ لأنّ المستشرقين وخاصة «جولدتسيهر» قومٌ علماء منصفون لا يحرّفون النّصوص ولا الحقائق. عندها عمد الدكتور «السباعي» إلى عقد ندوة في دار جمعيّة الهداية الإسلامية فأرسلت الجمعية دعوات إلى علماء الأزهر وطلّابه، فحضر منهم جمع غفير منهم الدكتور «عبد القادر». فعرض الدكتور «السباعي» قول «جولدتسيهر» من «الزهري» وما ورد في الكتب التاريخيّة حوله. ثمّ ختم بدعوة الأستاذ «عبد القادر» إلى التعليق على ما أورده، فأقرّ الأستاذ بصحّة ما عرضه «السباعي» وخطأ «جولدتسيهر» في هذه المسألة.

يطلق على راعي الغنم، وعلى رئيس القوم وولي أمرهم، والرعيّة تطلق على الماشية، وتطلق على القوم، ومن معاني الرعاية: الحفظ والإحسان.

إنّ الإسلام عندما أطلق «الرعية» على القوم لم يخصّ بها الأعاجم ليشير إلى أنّه يراهم كالقطيع من الغنم، وإنّما أطلقها على الأمّة عامّة. والأحاديث في ذلك كثيرة معروفة، ومنها قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحديث الصحيح الذي رواه «البخاري» وغيره: «ألا كلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيّته، فالإمام الذي على النّاس راع وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته». قال الحافظ ابن حجر (**فتح الباري** 13/ 96) في شرح هذا الحديث: «والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه. وقد جاء في حديث آخر إطلاق الرعيّة على المسلمين في الحديث الذي رواه «البخاري» وغيره: «وما من وال يلي رعيّة من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرّم الله عليه الجنة».

فكيف أغمض «بروكلمان» عينيه عن هذا كلّه واستجاز لعلمه أن يدّعي بأنّ المسلمين نظروا إلى الأعاجم نظرة القطيع وأنّهم أطلقوا عليهم وحدهم لفظ «الرعيّة»؟ ليس له سند إلا أنّ لفظ الرّعيّة يطلق على الغنم أيضًا، وقد علمت معانيها اللّغويّة، أمّا تخصيص إطلاقها بالأعاجم فليس له سند ولا شبهة يتعلّق بها، وإنّما هو الهوى والغرض.

4 ـ زعم المستشرق «مايور» كما نقله عنه «مرجليوث» أنّ أهل البدو كانوا كثيري الاهتمام بتعلّم البلاغة وطلاقة اللّسان فلا يبعد أنّ النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مارس هذا الفنّ حتى نبغ فيه. إنّ ما تقدّم يُعطينا صورةً عن موازين

البحث عند هؤلاء، فالمسألة عنده تقوم على استنتاج وهميّ من أمر لم يقع، فلا العرب كانوا يتعلّمون البلاغة، ولا كانت لها مدارس وأساتذة يضعون قواعدها، ولا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عرف عنه قبل النبوّة فعل ذلك، وليس بين أيدينا نصّ واحد يثبّته، بل إنّ المؤكّد أنّ الرسول لم ينقل عنه أثرٌ من نثرٍ أو شعرٍ قبل النبوّة وقبل أن يتنزّل عليه القرآن الكريم.

وأمر آخر يكشف لنا عن أساسٍ ثالثٍ من أسس النّقد والبحث عند هؤلاء المستشرقين؛ هو إفراطهم في اختراع العلل والأسباب للحوادث التي يدرسونها اختراعًا ليس له سند إلا التّخيّل والتّحكّم. ويزيد في فساد أسلوبهم هذا أنّهم يتخيّلون أحداث الشّرق والعرب وعاداتهم وأخلاقهم بأوهامهم وخيالاتهم الغريبة عن الشّرق والعرب والمسلمين، ولا يريدون أن يعترفوا بأنّ لكلّ بيئة مقاييسها وأذواقها وعاداتها.

وقد أحسن المستشرق الفرنسي المسلم «ناصر الدين دينيه» في حديثه عن أسلوب المستشرقين وموازينهم في الحكم على الأشياء ممّا جعلهم يتناقضون فيما بينهم تناقضًا واضحًا في الحكم على شيء واحد؛ كلّ ذلك لأنّهم حاولوا أن يحلّلوا السيرة المحمّديّة وتاريخ ظهور الإسلام بحسب العقليّة الأوروبيّة فضلّوا بذلك ضلالاً بعيدًا؛ لأنّ هذا غير هذا، ولأنّ المنطق الأوروبي لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الأنبياء الشرقيين. ثم قال: إنّ هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النّبي بهذا الأسلوب الأوروبي البحت لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدقّقون ويمحّصون بزعمهم، حتى يهدموا ما اتّفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيّهم. وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة العميقة أن يتمكّنوا من هدم الآراء المقرّرة والروايات المشهورة من السيرة النبويّة، فهل تسنّى لهم شيء من ذلك؟ الجواب، إنّهم لم يتمكّنوا من إثبات أقلّ شيء جديد، بل إذا أمعنّا النّظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء

المستشرقون، من فرنسيين وإنجليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين.. إلخ، لا نجد إلا خلطًا وخبطًا، وإنّك لترى كلّ واحد منهم يقرّر ما نقضه غيره من هؤلاء المدقّقين بزعمهم، أو ينقض ما قرّره. فهؤلاء القُصّاص تخيّلوا أشخاصًا من أبناء جنسهم يقدرون أن يفهموهم، ولم يلحظوا إلاّ اختلاف الأدوار بينهم. أمّا أولئك المستشرقون فنسوا أنّه كان عليهم قبل كلّ شيء أن يسدّوا الهوّة السحيقة التي تفصل بين عقليّتهم الغربيّة والأشخاص الشرقيين الذين يترجمونهم، وأنّهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا في الوهم في كلّ نقطة[1].

وبالتالي يمكن تلخيص أهمّ خصائص منهجيّة الاستشراق فيما يلي[2]:

- سوء الظّنّ والفهم لكلّ ما يتّصل بالإسلام في أهدافه ومقاصده.
- سوء الظّنّ برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم.
- تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور، وخاصّة في العصر الأوّل، بمجتمع متفكّك تقتل الأنانيّة رجاله وعظماءه.
- تصوير الحضارة الإسلاميّة تصويرًا دون الواقع بكثير، تهوينًا لشأنها واحتقارًا لآثارها.
- الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي على حقيقته، والحكم عليه من خلال ما يعرفه هؤلاء المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم.
- إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم، والتحكّم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص.
- تحريفهم للنّصوص في كثير من الأحيان، تحريفًا مقصودًا، وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف.

---

(1) يراجع انتقاد «إيتيان دينيه» للأب «لامنس اليسوعي» في رسالة خاصّة بنقد الاستشراق بعنوان الشرق كما يراه الغرب. وتشكل هذه الرسالة الكتاب الرابع من هذه السلسلة وهي قيد النشر بعنايتنا.

(2) «مصطفى السباعي»: السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ص22.

- تحكّمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتاب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصحّحون ما ينقله «الدميري» في كتاب **الحيوان** ويكذّبون ما يرويه «مالك» في **الموطأ**، كلّ ذلك انسياقًا مع الهوى، وانحرافًا عن الحق.

سادسًا: مع المستشرقين وجهًا لوجه في أوروبا

نوضّح في هذا الجانب بعض خصائص المستشرقين وسماتهم، الذين تعرّفنا عليهم في رحلتنا العلميّة وناقشناهم فيما كتبوا عن الإسلام. ومن أهمّ تلك الخصائص: عدم تأهّل عددٍ من المستشرقين علميًّا من خلال نماذج عايشتها في أوروبا، وكيف أنّهم يصدرون مع ضعف علمهم بالعربيّة وباقي الشروط والقواعد العلميّة المؤهّلة للدّراسة في مصادر الإسلام وعلومه، يؤسّسون لدوريات ويُصدرون مؤلّفات تنقض المفاهيم الإسلامية وتنقدها دون وعي أو دراية حقيقيّة.

ويضاف إلى ذلك غياب الحياد العلمي عند من امتلك القدرة العلميّة للدرس والبحث في العلوم الإسلامية ومصادر الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية، مستبدلاً ذلك الحياد بالتعصّب والعصبيّة ضدّ الإسلام، ومن هؤلاء البروفسور «أندرسون»: «... إنّ أوّل من اجتمعت بهم هو البروفسور «أندرسون» رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصيّة المعمول بها في العالم الإسلامي - في معهد الدراسات الشرقيّة في جامعة لندن - وهو متخرّج من كليّة اللاّهوت في جامعة كمبردج، وكان من أركان حرب الجيش البريطاني في مصر خلال الحرب العالميّة الثانية - كما ذكر هو ذلك عن نفسه -، تعلّم اللّغة العربيّة من دروس اللّغة العربيّة التي كان يلقيها بعض علماء الأزهر في

الجامعة الأميركية في القاهرة ساعة في كلّ أسبوع لمدّة سنة واحدة. كما تعلّم العاميّة المصريّة من اختلاطه بالشّعب المصري حين تولّيه عمله العسكري الآنف الذكر، وتخصّص في دراسته الإسلام من المحاضرات العامّة التي كان يلقيها المرحوم «أحمد أمين» والدكتور «طه حسين» والمرحوم الشيخ «أحمد إبراهيم». ثمّ انتقل من الخدمة العسكريّة بعد الحرب إلى رئاسة قسم قوانين الأحوال الشخصيّة في جامعة لندن. ومن أمثلة تعصّبه ضدّ الإسلام أنّه أسقط أحد المتخرّجين من الأزهر أراد نيل شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة لندن؛ لسبب واحد هو أنّه قدّم أطروحته عن حقوق المرأة في الإسلام وقد برهن فيها على أنّ الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة، فعجبت من ذلك وسألت هذا المستشرق: وكيف أسقطته ومنعته من نوال الدكتوراه لهذا السبب وأنتم تدّعون حريّة الفكر في جامعاتكم؟ قال: لأنّه كان يقول: الإسلام يمنح المرأة كذا، والإسلام قرّر للمرأة كذا فهل هو ناطق رسميّ باسم الإسلام؟ هل هو «أبو حنيفة» أو «الشافعي» حتى يقول هذا الكلام ويتكلّم باسم الإسلام؟ إنّ آراءه في حقوق المرأة لم ينصّ عليها فقهاء الإسلام الأقدمون، فهذا رجل مغرور بنفسه حين ادّعى أنّه يفهم الإسلام أكثر مما فهمه «أبو حنيفة» و«الشافعي».

وفي جامعة أكسفورد كان رئيس قسم الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة فيها يهوديًا يتكلّم العربيّة ببطء وصعوبة، وكان أيضًا يعمل في دائرة الاستخبارات البريطانية في ليبيا خلال الحرب العالميّة الثانية وهناك تعلّم العربيّة العاميّة، ثم عاد إلى بلاده إنجلترا ليرأس هذا القسم في جامعة أكسفورد. ومن عجيب ما رأيت في منهاج دراساته التي يلقيها على طلّاب الاستشراق: تفسير آيات من القرآن الكريم من **الكشاف** لـ«الزمخشري» - وهو لا يحسن فهم عبارة بسيطة في جريدة عادية - ودراسة أحاديث من «البخاري» و«مسلم»، وأبواب من الفقه

في أمّهات كتب الحنفيّة والحنابلة، وأنّه يستقي مصادره في الفقه من كتابات المستشرقين أمثال: «جولد تسيهر»، و«مرجليوث»، و«شاخت»!

وبعد الرحلة إلى بلاد الغرب ومقابلة أعلام المستشرقين، نخلص إلى جملة من الأحكام على حركة الاستشراق، أهمّها:

أوّلًا: إنّ المستشرقين - في جمهورهم - لا يخلو أحدهم من أن يكون قسّيسًا أو استعماريًّا أو يهوديًّا، وقد يشذّ عن ذلك أفراد.

ثانيًا: إنّ الاستشراق في الدّول الغربيّة غير الاستعمارية - كالدول الاسكندنافية - أضعف منه عند الدول الاستعماريّة.

ثالثًا: إنّ المستشرقين المعاصرين في الدّول غير الاستعماريّة يتخلّون عن «جولد تسيهر» وأمثاله المفضوحين في تعصّبهم.

رابعًا: إنّ الاستشراق بصورةٍ عامّة ينبعث من الكنيسة، وفي الدّول الاستعماريّة يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجيّة جنبًا إلى جنب، ويلقى منهما كلّ تأييد.

خامسًا: إنّ الدول الاستعماريّة كبريطانيا وفرنسا ما تزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليديّة من كونه أداة هدم للإسلام وتشويه لسمعة المسلمين.

كما أنّ الاستشراق حالة من المواجهة الحضاريّة بين العالم الإسلامي والغرب، ومنذ أن انتهت الحروب الصليبيّة بالفشل من الناحية العسكرية والسياسية، لم ينقطع تفكير الغرب في الانتقام من الإسلام وأهله بطرق أخرى، فكانت الطريقة الأولى هي دراسة الإسلام ونقده. وفي جوّ هذا التفكير الذي ساد البيئة المسيحيّة في الغرب خلال القرون الوسطى، نشأت فكرة الاستيلاء على البلاد الإسلاميّة عن طريق القوّة والغلبة حين بدأ العالم الإسلامي يتدهور سياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا، وأخذ الغرب يسطو مرّة بعد مرّة على بلد

بعد بلد في العالم الإسلامي. وما كاد ينتهي للغرب استيلاؤه على أكثر أقطار العالم الإسلامي حتى بدأت الدّراسات الغربيّة عن الإسلام وتاريخه تنمو وتتكاثر بقصد تبرير سياستهم الاستعماريّة نحو هذه الشعوب، وقد تمّ لهم في القرن الماضي دراسة التّراث الإسلامي من جميع نواحيه الدينيّة والتاريخيّة والحضاريّة.

ومن الطبيعي أن تكون الدّراسة محجوبة عن إصابة الحقّ فيها بحاجبين:

الأوّل: التّعصّب الدّيني الذي استمرّ لدى ساسة أوروبا وقادتها العسكريين حتى إذا دخلت جيوش الحلفاء في الحرب العالميّة الأولى بيت المقدس، قال اللورد «ألنبي» كلمته المشهورة: «الآن انتهت الحروب الصليبية»؛ أي: من الناحية العسكريّة.

أمّا التّعصّب الدّيني فما يزال أثره باقيًا في كثير مما يكتب الغربيون عن الإسلام وحضارته. وأكثر ما نجد إنصاف الإسلام ورسوله عند العلماء والأدباء الغربيين الذين تحلّلوا من سلطة ديانتهم، ونضرب لذلك مثلاً بكتاب **حضارة العرب** لمؤلّفه «جوستاف لوبون»، فإنّه أعظم كتاب ألّفه الغربيون في إنصاف الإسلام وحضارته. هذا؛ لأنّ «جوستاف لوبون» فيلسوف ماديّ لا يؤمن بالأديان قطعاً؛ من أجل هذا ومن أجل إنصافه للحضارة الإسلاميّة، لا ينظر إليه الغربيون في أوساطهم العلميّة نظر التقدير الذي يستحقّه علمه. فهو - بلا شكّ - مِن أعظم علماء الاجتماع والتاريخ في القرن التاسع عشر ومع هذا فقد تحامل عليه الغربيون - وخاصّة الفرنسيين - لما ذكرناه.

الثاني: إنّ القوّة الماديّة والعلميّة التي وصل إليها الغربيّون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أدخلت في نفوس علمائهم ومؤرّخيهم وكتّابهم قدرًا كبيرًا من الغرور حتى اعتقدوا أنّ الغربيين أصل جميع الحضارات في

التاريخ - ما عدا المصرية - وأنّ العقليّة الغربيّة هي العقليّة الدقيقة التأمّل التي تستطيع أن تفكّر تفكيرًا منطقيًّا سليمًا. أمّا غيرهم من الشعوب - وخاصة الإسلاميّة - فإنّ عقليّتهم بسيطة ساذجة، أو بالأصح «ذرية» كما عبر بذلك المستشرق «جب» في كتابه **وجهة الإسلام**، ويقصد بذلك أن العقلية الإسلامية تدرك الأمور بواسطة الجزيئات ولا تدركها إدراكًا كليًا.

وبلغت خطورة الاستشراق وأعمال المستشرقين إلى أن أصبحت تهيمن على العقل المسلم، حيث إنّ مؤلّفات الاستشراق أضحت مصدرًا مهمًّا لكثير من المفكّرين والباحثين المسلمين منذ بدء الاتّصال بالغرب ونشاط حركة الاستشراق «...فلمّا بدأ اتّصالنا بالحضارة الغربيّة في أوائل هذا القرن، وانتشرت الثقافة بيننا، لم يجد المثقّفون - من غير علماء الشريعة - أمامهم طريقًا ممهّدًا للحديث عن تراثنا المبعثر في كتب قديمة غير منظّمة تنظيمًا يتّفق وتنظيم الكتب العلميّة عند الغربيين، إلا كتب المستشرقين الذين أفنوا أعمارهم في دراسة ثقافتنا وتتبّع مصادرها في خزائن الكتب العامّة عندهم، حتى ليظلّ أحدهم عشرين عامًا في تأليف كتاب عن ناحية من نواحي ثقافتنا، يرجع فيه إلى كلّ ما وصلت إليه يده من مصادر قديمة من كتب علمائنا الأوّلين. وبهذا الدأب المتواصل عند علمائهم، والتّفرّغ الكامل له، والرغبة الاستعماريّة والدّينيّة التي ألمحت إليها، استطاعوا أن ينظّموا الحديث عن ثقافتنا تنظيمًا بهر أبصار «مثقّفينا» واستولى على ألبابهم، وخاصّةً عندما قارنوا بين أسلوبهم وبين أسلوب كتبنا العلميّة القديمة، فاندفعوا إلى الاقتباس من كتب المستشرقين معجبين بعلمهم وسعة اطّلاعهم، ظانّين أنّهم لا يقولون إلّا الحقّ، وأنّهم - فيما خالفوا فيه الحقائق المقرّرة عندنا - أصح حكمًا، وأصوب رأيًا؛ لأنّهم يسيرون وفق منهج علمي دقيق لا يحيدون عنه». ولكن لم يُتح لهؤلاء المثقّفين أن يرجعوا إلى المصادر الإسلاميّة التي استقى منها

المستشرقون وغيرهم من الباحثين الغربيين، إمّا لصعوبة الرجوع إلى مصادرنا، أو الرغبة في سرعة الإنتاج العلمي، أو لشهوة الإتيان بحقائق مخالفة لما هو سائد في أوساطنا العلميّة والدّينيّة وغيرها.

ويرجع هذا التأثير الكبير للإنتاج الاستشراقي على العقل المسلم إلى الضّعف النّفسي الذي يعاني منه المسلم وشعوره بالتّخلّف الفكريّ والتّراجع الحضاري وتفوّق الغرب عليه ماديًا وعدم القدرة على ملاحقته «حيث كانت فترة من الزمان طغى علينا هذا الشعور بالنّقص والضّعف وعدم الثّقة بأنفسنا إزاء الباحثين الغربيين، وإعظامهم وإكبارهم وعدم سوء الظّنّ بهم، حتى إذا بدأت حركات الوعي السياسي وبدأ استقلالنا السياسي عن سيطرة الغربيين، ابتدأ عندنا الشعور بوجوب الاستقلال الفكري، الشعور بشخصيّتنا وقيمة حضارتنا وتراثنا، الشعور بالخجل لموقفنا السّابق من اتّكالنا على المستشرقين في معرفة ما عندنا من تراث وعقيدة وتشريع. وانتشر هذا الوعي في أوساطنا المثقّفة من دينيّة وغيرها، فبدأنا نكتشف الحقيقة، حقيقة هؤلاء المستشرقين في أبحاثهم وأهدافهم الدينيّة والاستعماريّة من ورائها».

الاستشراق والخلفيّة الفكريّة للصراع الحضاري لـ«محمود زقزوق»[1]

بقلم: «إبراهيم صغيرون»
أستاذ مساعد بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تمهيد

هذا كتابٌ جمّ الفائدة قام بتأليفه الدكتور «محمود حمدي زقزوق» أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعتي الأزهر وقطر، ووكيل كليّة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، وله عدد من المؤلفات والأبحاث في مجالات الفلسفة الإسلامية والفلسفة العامّة والأخلاق والدراسات الاستشراقية.

وهذا الكتاب هو الخامس في سلسلة «كتاب الأمّة» التي تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر إسهاماً منها في تحقيق الوعي والحصانة الفكرية في أوساط المسلمين. وقد تمّ نشر هذا الكتاب حديثاً في صفر 1404هـ\1983م، ويقع في حوالي 156 صفحة من القطع الصغير. وقد قدّم للكتاب الأستاذ «عمر عبيد حسنة»، الذي أشاد بالموضوع والمنهج العلمي الذي اتّبعه المؤلف في العرض والتحليل، كما نوّه بحاجة المكتبة الإسلامية لهذا النّوع من الكتب التي تعرض للقضايا الفكريّة التي يعاني منها عالم المسلمين.

عرض الكتاب

يحتوي الكتاب على مقدمة وثلاثة فصول وفهرس.

(1) «زقزوق، محمود حمدي»: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، (سلسلة كتاب الأمة، رقم5)، 1404 هـ 156ص.

تناول المؤلف في المقدمة الأبعاد والمفاهيم العامة المتعلقة بموضوع الاستشراق وأهميّة التصدي لهذه المسألة الفكريّة التي أصبحت في حقيقة الأمر جزءاً لا يتجزّأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي. وقد حدّد المؤلف منذ البداية منهجه الرامي لتوخّي الموضوعية والبعد عن المواقف الجدلية والانفعالية، ومن أجل ذلك أراد أن يخاطب القارئ واضعاً أمامه القضية بإيجابياتها وسلبياتها وإشراكه في البحث عن الحلول الجادة.

1- الفصل الأول (ويقع في 42 صفحة)، ويشتمل على مدخلٍ تاريخي حول نشأة الاستشراق وتطوّره. وقد قصد المؤلف منه إلقاء نظرة عامة تبرز بعض المعالم الرئيسية والخطوط العريضة في هذا الصدد. وقد بدأ بتسليط الضوء على البدايات الأولى للاستشراق في القرون الوسطى خاصّة عندما لفت الانتشار السريع للإسلام في الشرق والغرب أنظار رجالات اللاهوت النصراني إلى هذا الدين، كما بيّن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق، والذي كان يتمثّل في ذلك الصراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والنصراني في الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة الاشتغال بتعاليم الإسلام وعاداته. ثمّ واصل المؤلف موضّحاً بأنه قد كان هناك في هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الإسلام. اتجاه لاهوتي متطرف في جدله العقيم وهمّه نشر الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ، ناظراً إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية. أمّا الاتجاه الثاني الذي تعرّض له المؤلّف بالشرح والتحليل فقد كان نسبيّاً - بالمقارنة إلى الاتّجاه الأول - أقرب إلى الموضوعيّة والعلميّة، فنظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة. وفي هذا الإطار استعرض المؤلف بالتفصيل وعالج بالشرح الموضوعات التالية:

أ. الثقافة العربية في قصر الإمبراطور فردريك الثاني الذي أصبح إمبراطوراً لألمانيا عام 1215م.

ب. الاستشراق والتنصير.

ج. محاولات جادّة نحو فهم الإسلام.

د. عصر ازدهار الاستشراق.

ه. من مظاهر النشاط الاستشراقي.

و. الاستشراق والاستعمار.

ز. اليهود والاستشراق.

ح. مستقبل الاستشراق.

وقد ناقش المؤلف في هذه الموضوعات الارتباط الوثيق بين مصالح الغرب واهتماماته ودعمه للحركة الاستشراقية.

2- أمّا الفصل الثاني (ويقع في 64 صفحة)، والذي وصفه المؤلف في مقدمته بأنه الفصل الرئيسي في هذا الكتاب، لأنّه يتناول بالبحث مواقف المستشرقين بإيجابيّاتها وسلبيّاتها، فقد خصّصه للتعرف على الآراء والمواقف الاستشراقية المتّصلة بالدراسات الإسلاميّة. وفي هذا المجال فقد تعرّض المؤلف لأعمال المستشرقين وجهودهم والتي تتمثل على مدى تاريخهم الطويل في أعمالٍ مختلفة تشكّل في مجموعها كلاً واحداً، وقد لخّصها في عدة أمور، هي:

1 ـ التدريس الجامعي.

2 ـ جمع المخطوطات وفهرستها.

3 ـ التحقيق والنشر.

4 ـ الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية.

5 ـ التأليف في مجالات الدراسات العربية والإسلامية.

ومن ثمّ تناول المؤلف هذه الأعمال بالتّفصيل وتعرّض لمراكزها ومؤسّساتها الرئيسيّة في أوروبا والولايات المتحدة وإنتاجها في مجال البحث العلمي والدوافع التي أملت تأسيسها وأهدافها. ومن هنا تأتي أهميّة ما يحمله المستشرقون من أيديولوجيّة بالنسبة لما يخلّفونه من آثار في الدارسين على أيديهم، وما ينطبع منهم على غيرهم. وفي هذا الإطار أشار المؤلف إلى جهودهم في مجال ترجمة المئات من كتب التراث العربي والإسلامي إلى اللغات الأوروبية كافّة، هذا فضلاً عمّا أولوه من اهتمامٍ كبيرٍ بإعداد العديد من ترجمات القرآن إلى اللغات الأوروبيّة، وقد مهّدوا لترجماتهم بمقدّمات وضعوا فيها تصوّراتهم عن الإسلام، والتي لا تتفق في معظم الأحيان مع الحقائق الإسلامية بل تصطدم مع هذه الحقائق اصطداماً جوهرياً.

أمّا في مجال التأليف في الدراسات العربيّة الإسلاميّة لدى المستشرقين فقد أفادنا بإحصائيّة ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف فقط (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) حوالي ستين ألف كتاب. (انظر الصفحات: 58-65 من الكتاب).

وقد أورد المؤلّف في الفصل الثاني أيضاً بأنّ بعض مؤلفات المستشرقين ذات قيمة علميّة، واكتفى بالإشارة إلى **تاريخ الأدب العربي** من تأليف المستشرق الألماني «كارل بروكلمان»، الذي اعتبره كتاباً أساسيّاً في الدراسات العربية والإسلامية لا يستغني عنه باحثٌ في هذا المجال. كما أشار إلى **دائرة المعارف الإسلامية** على الرغم ممّا لنا معشر المسلمين على هذه الدائرة من

مآخذ كثيرة فإنها في نظر المؤلف تعد ثمرةً من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين.

ومن المؤلّفات ذات القيمة التي أشار إليها المؤلف جهود المستشرقين في مجال المعاجم والقواميس اللغوية، وخصّ بالذكر **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف**، الذي يشمل كتب الحديث الستة المشهورة. (انظر الصفحات: 66-70 من الكتاب).

ويمضي المؤلف في الفصل الثاني ليعالج أهداف المستشرقين والدوافع التي دعتهم لبذل كلّ هذا الجهد والعمر والمال في مجال البحث. وقد أسهب في شرح الدافع الديني كعنصرٍ أساسي وقوّةٍ محرّكة، ومن ثمّ تعرّض للأهداف الأخرى التي تدور في فلكه كالأهداف العلمية والتجارية والسياسية (انظر الصفحات: 70- 75من الكتاب).

ومن خلال العرض لأهداف المستشرقين المختلفة تمكّن المؤلف من تصنيفهم إلى فئات مختلفة تتراوح بين التعصّب والإنصاف، ومن لهم ميول تنصيرية إلى مستشرقين علمانيّين. ومنهم من التزم دراسته للإسلام بالموضوعيّة والنزاهة العلميّة، ومنهم فريق من المرتزقة الذين جنّدوا دراساتهم وبحوثهم في خدمة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والاستعمارية. (الصفحات: 75-76).

- وفي ختام الفصل الثاني تناول المؤلّف منهج المستشرقين من خلال كتاباتهم، والذي يبدو في الظاهر توخّيهم العلم والموضوعيّة والاهتمام بتقديم أدلّة وأسانيد لآرائهم ونظريّاتهم يستمدونها من المراجع الإسلامية نفسها. ولكنّ الفحص الدقيق أثبت أنّ كثيراً منه مصنوعٌ، والدافع إليه الرغبة في التجريح وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية. وقد أورد المؤلّف

أمثلةً من آراء هذه الفئة مثل المستشرق «جاستون فييت» في كتابه **مجد الإسلام**، والذي اختار فيه فقط النصوص التي تتّفق مع الاتجاه الذي ينضح بالكراهية والعداء للإسلام والمسلمين. وقد قام المؤلف بشرح الاختلاف في الرأي مع المسلمين حول الإسلام والمنطق الذي يستمدّ منه المستشرقون فكرهم الديني، وهذا ولا شك هو محور القضية الرئيسي، كما أشار إلى ألوان التحامل القديم على الإسلام والذي أصبح سمة في التراث الغربي تتوارثه الأجيال إلى يومنا هذا.

وليس من الظواهر الثقافية المألوفة في أوروبا أوضح وأكثر شمولاً من إهمالهم لمبادئ أوليّة للمنهج العلمي في معالجة المسائل التاريخيّة، ولعلّ من أخطر القضايا التي أشار إليها المؤلف بأنّهم «... يؤكّدون مثلاً أنّ القرآن من إنشاء «محمد». ثم يذهبون مذهباً بعيداً في تأسيس الأحكام التاريخيّة والعقدية والأدبيّة وغيرها على هذا التأكيد، وسرعان ما ترتفع هذه بمحض الشهرة إلى مرتبة الحقائق» (انظر ص 80).

وعليه فقد خصّص المؤلف حيزاً طيباً من نهاية الفصل الثاني استعرض فيه نماذج من آراء المستشرقين حول الإسلام اعتمد فيها المنهج العلمي الوثائقي وناقش هذه الآراء نقاشاً هادئاً موضوعياً بعيداً عن الانفعال، وقد شملت النماذج الموضوعات والقضايا الآتية:

أ ـ القرآن. (1) مصدر القرآن. (2) صحة النص القرآني. (3) خطورة القرآن.

ب ـ السنة النبوية.

ت ـ الشريعة الإسلامية والقانون الروماني.

ث ـ الفلسفة الإسلامية.

ج ـ ملاحظات على آراء المستشرقين.

(انظر الصفحات 82-121).

(3) الفصل الثالث (ويقع في 31 صفحة) في هذا الفصل وهو الأخير من كتابه، والذي اختار له عنوان: «موقفنا من الاستشراق». وبعد أن تعرّض في الفصلين السابقين لأبعاد المواقف الاستشراقية بايجابياتها وسلبياتها، لم يقتصر المؤلّف على تشخيص العلّة ورصد آثارها فقط وإنّما على حدّ تعبير الأستاذ «عمر عبيد حسنة» «يتجاوز ذلك إلى تحديد الأسباب التي أوجدتها ومن ثم يصف العلاج ويبيّن الخطة التي لا مناص من التزامها في معركتنا الفكرية التي تستهدف وجودنا حيث نكون أو لا نكون...» (ص10).

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب؛ ولذلك فقد طرح المؤلف منذ البداية وفي مستهل الفصل الثالث السؤال الكبير:

«ماذا فعلنا نحن؟

ما موقفنا في الحركة الاستشراقية؟

إنها حركة فكرية هائلة، وما تنتجه يخصّنا ويخصّ عقيدتنا ولغتنا وتراثنا وتاريخنا وذاتيّتنا. هل نكتفي بموقف المتفرّج في المسرح تعجبه بعض المشاهد فتهلّل أساريره، ولا تعجبه بعض المشاهد الأخرى فيقطّب جبينه ويمطّ شفتيه؟» (ص123).

وما دام الأمر خطيراً لأنّه يتعلق بأعمق أعماق المسلمين عقدياً وفكرياً وحضارياً فليس أمامهم من سبيلٍ إلّا المواجهة وقبول التحدي وإثبات الذات، وهذا يقتضي التسلّح بأدوات المعركة الفكرية وقبول التحدي والاستجابة له بانطلاقةٍ إسلاميّةٍ حضاريّة جديدةٍ. وقد حاول المؤلّف عرض بعض الأساليب التي يمكن أن تساعد المسلمين على الوصول إلى الأهداف المرجوّة، ويمكن تلخيصها في الآتي:

1 ـ موسوعة الردّ على المستشرقين: وقد كان هذا المشروع قد دعت له

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في القاهرة في نهاية عام 1979م. وقد أورد المؤلف - الذي كان مقرراً لندوة إعداد المشروع - نصّ التقرير الختامي على المنهج العلمي الواجب اتباعه في إعداد هذه الموسوعة. (صفحات130-137).

2 ـ مؤسّسة إسلاميّة علميّة عالية: تستقطب الكفاءات العلميّة الإسلاميّة في شتّى أنحاء العالم، وتقف ندّاً للحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلّات علميّة ذات مستوى رفيع، وتنشر بحوثها بلغات مختلفة وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الثقافة والفكر. لأنّ هذا الفراغ الهائل في حقل الثقافة العربية والإسلامية هو الذي يدفع الباحثين العرب والمسلمين عامّة إلى الاهتمام والاعتماد على المجلّات البحثيّة والمعاهد والجامعات في أوروبا والولايات المتحدة. (صفحات 137-142).

3 ـ دائرة معارف إسلامية جديدة: وذلك لكي لا نظلّ نقتات فكرياً من دائرة المعارف الإسلامية التي قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية؛ فهي تختلف عن موسوعة الرد على المستشرقين الموضّحة أعلاه والمحدودة في إطار الرد على شبهات معيّنة أثارها المستشرقون فـ دائرة المعارف الإسلامية المطلوبة ستكون عامّة وشاملة لكلّ جوانب الإسلام والفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية بوجهٍ عام مع التنسيق بين المؤسّسات العلميّة في العالم الإسلامي حتّى لا تتوزّع الجهود وتتكرر الأعمال. (صفحات 142-143).

4 ـ جهاز عالمي للدعوة الإسلامية: ومن الأمور الملحّة التي أشار إليها المؤلّف ضرورة إنشاء مؤسسة إسلامية تبشيريّة عالميّة لتتولّى أمر الدعوة الإسلامية في الخارج، ويكون من مهامّها إصدار سلسلة كتب إسلامية، وتعرض الإسلام

بأسلوبٍ علميّ يتناسب مع العقليّة المعاصرة، كما تقدّم الحلول لمشكلاتِ المسلمين العصريّة. ويرى المؤلّف أنّه من الممكن في هذا الصدد الاستفادة من أفكار وخبرات الشخصيّات الغربية الواعية التي اعتنقت الإسلام من أمثال المفكر الفرنسي «جارودي»، - الذي أسلم حديثاً - وذلك لوضع خطّة لنشر الإسلام والثقافة الإسلاميّة في الغرب وكشف أساليب التضليل الصهيوني السائد في أوروبا والولايات المتحدة (صفحات 143-146).

5 ـ ترجمة إسلاميّة لمعاني القرآن الكريم: في الوقت الذي يهتمّ النصارى والهيئات التبشيريّة النصرانيّة بترجمة كتابهم المقدس إلى كلّ لغات البشر، يترك المسلمون القرآن الكريم نهباً لجهاتٍ غير مسؤولةٍ أو للجهات النصرانية التي همّها التحريف والكيد والنيل من الإسلام. إنّ ترجمة معاني القرآن الكريم بإشراف إسلامي سَيُلَبّي حاجة الغالبية المسلمة في شتى أنحاء العالم من غير الناطقين بالعربية ويحميهم من الترجمات الفاسدة التي قام بها بعض المستشرقين والمُنصِّرين. (صفحات 147- 148).

6 ـ تنقية التراث الإسلامي: يرى المؤلف بأنّ التراث العربي الإسلامي، والذي يعد أغنى تراث في العالم جدير بالاهتمام به، وذلك بالاستفادة من كلّ الوسائل والأساليب الحديثة التي تفيد في تنميته وتطويره بما لا يتعارض مع مقوّماته الأساسيّة. والواجب الإسلامي يقتضي أن نعمل على تنقية هذا التراث من الجوانب الغثّة والسلبية لكي لا نعطي الفرصة للبعض في تغليب الجانب السلبي على الجانب الإيجابي في بعض الأحوال. ويشير المؤلف في هذا الصدد لبعض الخرافات والأوهام والإسرائيليات التي تضمنتها بعض كتب التراث. (صفحات 148-150).

7 ـ الحضور الإسلامي في الغرب: علّق المؤلّف على ضعف الحضور الإسلامي

في المؤسسات العلميّة مثل الجامعات في الغرب، واقترح إدخال العلوم العربيّة الإسلاميّة فيها، وذلك عن طريق الاتفاقات الثقافية وتبادل الأساتذة للتدريس في معاقل الاستشراق، وبذلك يمكن تصحيح التصورات الغربية عن الإسلام بالعمل العلمي (صفحات 150-152).

8 ـ الحوار مع المستشرقين المعتدلين: ومن الأساليب التي أشار إليها المؤلف فتح قنوات الاتصال المستمرّ مع المستشرقين المعتدلين في شكل لقاءات وندوات تجمع بينهم وبين العلماء المسلمين، وسيكون لهذا الاتجاه أثره الإيجابي دعماً لمواقف هؤلاء المستشرقين وتشجيعاً لاتّجاهاتهم حتى تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة تياراً عاماً في الغرب من ناحية وترشيداً للمثقفين المسلمين المتأثرين بالأفكار الاستشراقية في ناحية أخرى (ص 152).

9 ـ وفي ختام هذا الفصل وفي عرضه لبعض الأساليب التي يمكن أن تساعد المسلمين على الوصول إلى أهدافهم في مجابهة التيارات الفكريّة المناوئة للإسلام والمسلمين، يقترح المؤلّف إنشاء دار نشر إسلاميّة عالميّة لتقوم بنشر المطبوعات الإسلامية بكافة اللغات حتى لا تظلّ المؤلفات الإسلامية باللغات الأجنبية تحت رحمة الناشرين الغربيين. كما تقوم هذه الدار أيضاً بإصدار صحف ومجلات إسلامية بلغات مختلفة تكون وسيلةً للربط بين المسلمين في كلّ مكانٍ جمعاً وتوحيداً لصفوفهم والعمل على تعريفهم بقضايا الإسلام. وترتبط بهذه الدار وكالة أنباء عالمية تكون هي المصدر الذي يستقي منه الغرب معلوماته عن العالم الإسلامي وليس العكس (ص153).

الملاحظات والتعليقات:

(1) مما لا شكّ فيه أنّ هذا الكتاب يتضمّن آراءً طيّبة. فقد تناول المؤلف

بصورة علميّة دقيقة موضوعاً على درجة كبيرة من الأهميّة، يتعلّق بالتحدّي الفكري الذي يواجه العالم الإسلامي من قبل الدراسات الاستشراقية. وقد احتوى على معلوماتٍ قيّمة ومفيدة ومبثوثة في ثنايا الكتاب. واعتمد مؤلفه المنهج العلمي الوثائقي تحليلاً ودراسةً ووصولاً إلى النتائج، ومن ثمّ أحسن وأجاد في تشخيص الداء وقدّم السبل والأساليب الفكريّة التي ينبغي على المسلمين إنتاجها لإثبات ذاتيّتهم وحماية معتقداتهم وفكرهم وحضارتهم. هذا الجهد العلمي سيكون إضافة رائعة إلى الدراسات الجادّة والقيّمة التي وضعها نفرٌ من العلماء الغيورين من أمثال «عبد اللطيف الطيباوي»[1] و«محمد البهي»[2] و«إدوارد سعيد»[3] و«قاسم السامرائي»[4] و«سامي الصقار»[5] وغيرهم.

(2) يلقي الكتاب الضوء على التجاوب المتبادل بين الاستشراق والتنصير، وإن لم يكن هناك تماثل بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلي، ولكن يمكن القول بأنّ التحالف بين الجانبين لا يزال مستمراً بشكلٍ من الأشكال حتّى العصر الحاضر (صفحات 27-31). والمتأمّل لبعض الدراسات الاستشراقيّة الحديثة الخاصّة بالإسلام ودوره التاريخي في إفريقيا مثلاً يكتشف أنّ بعض المستشرقين مثل «سبنسر تريمنجهام» قد جمع بين الأكاديميّة والصليبيّة. ففي الوقت الذي تبشّر فيه الدول الاستعمارية بالعلمانيّة، تركت للكنيسة الغربية في

(1) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية وكان الكتاب قد صدر بالإنجليزية تحت عنوان English Speaking Orien— talists, (Islamic Centre- Geneve 1385-1965)، وقد نقله الدكتور «فتحي عثمان» إلى العربية. ونظراً لأهمية البحث ألحقه الدكتور «محمد البهي» بكتابه الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار.

(2) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار (بيروت -1973).

(3) الاستشراق وقد صدر هذا الكتاب بالإنجليزية تحت عنوان Orientalism (London 1978)، وقد نقله «كمال أبو ديب» إلى العربية – مؤسسة الأبحاث العربية بيروت 1981.

(4) الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع. الرياض 1403هـ - 1983م.

(5) «الجوانب الإيجابية لنشاط المستشرقين البريطانيين»، مجلة كلية الآداب –جامعة الملك سعود- المجلد التاسع، (1982).

أغلب أقطار إفريقيا الدور الأكبر لتوجيه التعليم والثقافة. ومن هذا المنطلق أصبح القس «تريمنجهام» العضو العامل النشط في جمعية الكنيسة التبشيرية (C.M.S.) التي كان سكرتيراً عاماً لها في السودان في مطلع الثلاثينات من هذا القرن - يشغل في الستينات كرسي الأستاذية للدراسات العربية والإسلامية في الجامعة الأمريكية ببيروت كما أصبح مرجعاً أساسياً لدراسة الإسلام في إفريقيا في المؤسسات الأكاديمية التي انتهجت التقليد الغربي[1].

(3) يفيدنا هذا الكتاب في تناوله لنشأة الاستشراق وتطوره بأن هناك اتجاهين مختلفين؛ أولهما الاتجاه اللاهوتي النصراني الذي نشط في وقت مبكر ضد الإسلام وراح ينشر الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ.

وتعرّض أيضاً بالتفصيل والشرح للاتّجاه الآخر الذي اتّسم بقدرٍ من الموضوعية، ولكن مع الهدف الواضح والمعلن؛ وهو محاربة التعاليم الإسلامية بطريقة «موضوعية موجهة» (صفحات 22-27). وقد أحسن المؤلف في عرض هذه المواقف الاستشراقية مع تباينها الطفيف في ذلك الوقت المبكر لحركة الاستشراق في القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد. وفي دراسة تحليليّة لهذه الظاهرة فقد قام الدكتور «قاسم السامرائي»، بإلقاء الضوء على الموقف

---

(1) انظر إسهام البروفسير «تريمنجهام» في حقل التأليف التاريخي الإسلامي في إفريقيا، والذي شمل جميع أنحاء القارة تقريباً والذي استهدف فيه باسم البحث العلمي نقاط الضعف والثغرات في المجتمعات الإسلامية في إفريقيا خدمة لأهداف العمل التنصيري. ومن كتبه في هذا المجال:

Trimingham, J.S., *The Christian Approach to Islam in the Sudan*, (London 1948).

Trimingham, *Islam In West Africa*, (oxford, 1975).

Trimingham, *A History of Islam In West Africa*, (Oxford, 1970).

Trimingham, *Islam In East Africa*, (oxford, 1964).

Trimingham, *The Influence Of Islam Upon Africa*, (London, 1968).

وقد قام كاتب هذه السطور بمحاولة لمعالجة التحديات التي توجه الباحث في هذا المضمار والذي يتعلق بغلبة المصادر النصرانية والاستشراقية في دراسة تاريخ الإسلام في شرق إفريقيا وإلقاء الضوء على المصادر المتاحة، وذلك ببحث كان قد نشرته عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض انظر: «صغيرون»: «مصادر تاريخ الإسلام في أوغنت «دراسة نقدية وتحليلية»» - مجلة كلية الآداب - جامعة الرياض. المجلد السادس (1979).

الاستعلائي للمستشرقين ونظرة الاحتقار التي جاءت من تأثير البابوية ووعّاظ الكنائس والقسس والرهبان، مما خلق فيهم حالة نفسية استعلائية صبغت العقلية الغربية والفكر الغربي في القرون الوسطى. هذه المشاعر انعكست علمياً على علاقة أوروبا بالإسلام والمسلمين، وأبرزت بوضوح البطش الكنسي والرمي بالزندقة وتحريم تداول الكتاب وعملية الإجهاض الفكري الذي مارسته الكنيسة والبابوية في أوروبا، والتي أدت لطرد الإمبراطور «فردريك الثاني» حاكم صقلية من الكنيسة عام 1239 لما أبداه من تعلّق وشغف بالثقافة العربية ومن مظاهر الودّ تجاه الإسلام[1]. كما أفادنا مؤلف هذا الكتاب الذي أشار في موضع آخر من كتابه للتشريد والاضطهاد الكنسي الذي تعرّض له المستشرق الألماني «يوهان رايسكه» في القرن الثامن عشر (صفحات 27 و35)، الذي أوجد مكاناً بارزاً للدراسات العربية في ألمانيا. وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى ما ذكره العلامة المسلم «أبو الحسن علي الندوي» عن شقاء أوروبا وجناية رجال الدين على الكتب الدينية واضطهاد الكنيسة للعلم والآثار الخطيرة التي ترتّبت عليه من بُعدٍ عن الدين والارتماء في أحضان المادية[2].

(4) ومن القضايا الرئيسيّة التي عالجها هذا الكتاب علاقة الاستشراق بالاستعمار. وفي تناوله لهذا الموضوع تعرّض المؤلف للدور الذي لعبه المستشرق الألماني «كارل هينريش بيكر» مؤسس **مجلة الإسلام**، الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في إفريقيا (صفحة 44). ويحضرني وأنا أطّلع على هذه المعلومة المفيدة البحث الذي كتبه «بيكر» عن الإسلام في إفريقيا الشرقية في الفترة التي هيمن فيها الاستعمار الألماني

---

(1) انظر: «السامرائي»: الاستشراق بين الموضوعية والافتعال. صفحات 28-30 و33-38.

(2) «أبو الحسن علي الحسني الندوي»: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار القلم بالكويت 1402- 1982- صفحات 190 194.

على منطقة تانجانيقا سابقاً والمعروفة بتنزانيا حالياً. إذ كان من ضمن همومه واهتماماته وهو يعمل في المعهد الاستعماري (Kolonoalinstitut) - الذي أصبح فيما بعد جامعة هامبورج - مشاكل وشؤون الاستعمار الألماني آنذاك. وقد اعتبر كثير من المستشرقين المعاصرين والباحثين في تاريخ الإسلام في إفريقيا في التقليد الأكاديمي الغربي أنّ إسهام «بيكر» في هذا المجال من الأعمال الرائدة، إذ احتوى هذا البحث على كثير من مصادر تاريخ الإسلام في تلك المنطقة. وقد أوضح «بيكر» نفسه بأنّ اهتمامه بهذه الدراسة نابعٌ من ظاهرة انتشار الإسلام بصورة مطّردة في المستعمرات الألمانية، ومفهوم الخلافة والجامعة الإسلامية السائد في ظل السلطان العثماني مما يشكل تهديداً مستمرّاً للرايخ الألماني[1].

(5) تعرّض المؤلف في كتابه أيضاً لدور المستشرق الهولندي «سنوك هورخرونية» في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق الهولندية في الهند الشرقية (صفحات 45-46).

كما أشار إلى **دائرة المعارف الإسلامية** من ضمن المؤلَّفات ذات القيمة العلميّة من أعمال المستشرقين على الرغم من المآخذ الكثيرة عليها (صفحة 68). ولعلّه من المفيد في هذا الإطار الربط بين جهود هؤلاء المستشرقين وإسهامهم في **دائرة المعارف الإسلامية** التي هي بحق مدوّنة الاستشراق الكبرى. وما دام الشيء بالشيء يذكر، فإن «سنوك هورخرونية» انبرى ليسخّر دراساته

---

(1) قد نشر هذا البحث في صورته الأصلية أول مرة في الدورية الألمانية (مجلة الإسلام - *Der Islam*) في عام 1911، الجزء الثاني، صفحات 1-48 تحت عنوان:

Laterialea, Z Kenntals des Islam in Deutseh –

وقد قام بترجمته إلى اللغة الإنجليزية الدكتور «ب.ج. مارتن»، الذي نشره بدوره في مجلة (تنزانيا في مدونات ورسائل) التي تصدر في دار السلام، المجلد رقم 68، عام 1968م، الصفحات 31-61 تحت العنوان الآتي:
Materials for The Understanding of Islam in German East Africa, *Tanzania Notes and Records*, No, 68, (1968), by H. Becker. (Edited and translated by B. G. Martin).

الاستشراقية في الذود عن مصالح الاستعمار الهولندي. وقد أفادنا الدكتور «قاسم السامرائي» بأنّه قد أبدى الوجه الاستعماري سافراً في قولته المشهورة: «إن الاستعمار الهولندي هو قضاء وقدر ويجب التسليم به». ومضى الدكتور «السامرائي» معلقاً على اتجاهات وأهداف «سنوك هورخرونية» الاستشراقية في الآتي:

«.. وليس عبثاً أن يُعَدَّ «كريستان سنوك هورخرونيه» رائد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوروبا؛ لأنّه لم يترك أيّة مناسبة في كتاباته دون أن يؤكّد على أنّ الشريعة الإسلامية المستندة على القرآن والسُّنة موجودة في الكتب النظرية؛ أمّا عملياً فإنها لا تصلح لإقامة نظام سياسي يقوم عليهما. فأنكر ولجّ في إنكار الدور السياسي للقرآن والسُّنة، لأنّ خطته الكبرى كانت تدور على ربط المستعمرات الهولندية في أندونيسيا بروابط ثقافية (أوروبية) بهولندا فتسلب هذه الوحدة «كلّ خلاف ديني من أهميته السياسية والاجتماعية»، وقصد «سنوك هورخرونية» إبدال الإسلام بثقافة أوروبية وعندها تسهل التبعية السياسية والدينية»[1].

ولعلّ حديث الأستاذين الدكتور «محمود حمدي زقزوق» والدكتور «السامرائي» عن هذا المستشرق الهولندي يدفعني أن أشير إلى الأخطاء وسوء الفهم للفقه والشريعة الإسلامية الذي برز في بعض المسائل التي تنسب إليه في دائرة المعارف الإسلامية. وهذا دليل آخر لأخطائه الفاضحة والمتعمّدة في إنكار دور الشريعة ومفهوم الوصاية الذي بلغ به حداً بأنّه مؤهل لأن يرى المسلم كيف ينبغي أن يكون مسلماً، وليس أدلّ على ادعائه بأنّ تحريم

(1) أفرد الدكتور «السامرائي» فصلاً كاملاً اتبع فيه منهجاً وثائقياً رائعاً للحديث عن الاستشراق في هولندا في كتابه: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، انظر الدراسة التحليلية الوافية عن المستشرق الهولندي «سنوك هورخرونية» في الصفحات 198-137.

أكل لحم الخنزير والختان مسائل شكلية استحوذت على اهتمام العامّة من المسلمين وغير المسلمين، وهي لا تجد سنداً شرعياً في كتب الفقه، وهما في نظره في مرتبة واحدة من الأهمية[1]. والمعروف بأنّ الختان هو سنّة رسول الله، أمّا تحريم أكل لحم الخنزير على المسلمين فقد ورد في محكم التنزيل. قال تعالى: «حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به...»[2].

(6) قد أحسن المؤلف وأجاد في الإشارة إلى التأثير الاستشراقي على العالم الإسلامي في الأخذ بالأنموذج الغربي في الإصلاح في جعل الدين مجرّد تعاليم خُلُقيّة لا تكاليف إلزامية، ويتمّ بذلك إبعاد الدين كليّة عن التدخل في الشؤون الحياتيّة. وقد قام الاستعمار بالتخطيط المدروس لإضعاف العالم الإسلامي ومنع أيّ محاولة لجمع شمل المسلمين مرّة أخرى. (الصفحات 97-99). وفي اعتقادي أنّ الموضوعات الملحّة التي ينبغي تصحيحها وتنقيتها من آثار الهجمة الصليبية والاستعمارية التي انعكست في مناهج دراسة التاريخ، تلك الحملة المسعورة والتشكيك في الخلافة العثمانية والجامعة الإسلامية وبخاصّة ضدّ السلطان «عبد الحميد الثاني». إنّ وجود هذه المناهج والكتابات الأخرى التي تتعلق بدراسة الإسلام في إفريقيا مثلاً، وبخاصة تلك المفاهيم والتصورات والمناهج المتمثلة في فروع علمية ثلاثة: هي الاستشراق والإفريقيّة (Africanisan) والأنثروبولوجيا

(1) جاء هذا الحديث على لسان «سنوك هورخرونية» في دائرة المعرف الإسلامية في النص الآتي:
«To the uneducated mass of Muslims» Says Snouck Hurgronje «as well as the great mass of non-Muslims, both of whom pay the greatest attention to formalities, abstention from pork together with Clucumcision, have even become to a certain extent the Critererion of Islam. The exaggerated estimation of the tow precepts find no support in the law, for here they are on the same level with numerous other precepts, to which the mass attaches less importance.» (Houtsma, M.T., and Wensinck edit., *Encylopaedia of Islam*, Vol.11, E-K, (Leyden and London, 1927), pp. 956-960.

(2) سورة المائدة: الآية 30 والأنعام: الآية 145 والنحل: الآية 115.

(Anthropology)، والتي نشأت والمدّ الاستعماري الثقافي والحضاري قد اشتدّ وبلغت نصوصها عندما وصل المد الاستعماري أوجه مع إتمام احتلال أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي[1]. إنّ الإبقاء على هذه المناهج توفّر على المستشرقين والمنصرين بذل الجهد في هذا السبيل، وبذلك يمكن تحقيق الأهداف التي عاشوا قروناً طويلة يعملون من أجلها. ولعلّ أخطر الأهداف التي أولتها حركة التنصير أهميّة قصوى هو عزل الأمّة عن ثقافتها وذاتيّتها ومزاجها النفسي فـ«صموئيل زويمر» كبير المنصّرين في العالم الغربي منذ فترة تربو على ستّين عاماً أوضح ذلك بجلاء ووضوح حين قال:

«إنّ أهم عملٍ لإخضاع العرب والمسلمين لا يتمّ عن طريق الجيوش والاحتلال، وإنّما يتم عن طريق الثقافة والدين بإخضاع المسلمين للثقافة الغربية، وذلك ينتزع منهم أبرز ما في الإسلام من علامات القوّة والجهاد

---

(1) تناول الدكتور «عز الدين عمر موسى» الأستاذ بجامعة أحمد بيلو-زاريا –نيجيريا. هذه الرسالة الظاهرة بالدراسة. وتعرّض للنتائج المنطقية المترتبة على الفرضيات النابعة من هذه المفاهيم على المجتمعات الإسلامية في مناطقَ إفريقيّة. وعلى الرغم من أنّ جهود هؤلاء العلماء الذين اهتمّوا بهذه الفروع الثلاثة من المعرفة قد أدّت خدمةً جليلة للشعوب المستعمرة لا تنكر، وذلك بما أحيت ما درس من تراثها المكتوب، وبما جمعت ودوّنت من تراثها المتناقل شفاهةً إلا أنّ الدكتور «عز الدين» يبدي هذه الملاحظات على المنهج الغربي الاستشراقي وأهدافه:

«ولكن من الخطأ العظيم والوهم الكبير أن تعمي هذه الإنجازات، على عظمها/ أبصار الدارسين في إفريقيا عما حققته دراسات الاستشراق وعلماء الأفريقيات والأنثروبولوجيا من مسخ لحضارة الإنسان المستعمر المستغل في إفريقيا، وتشويه معالم تلك الحضارة وخصائصها الأصلية، بغية الإبقاء على حالة الاستعمار بعد رحيل جيوش الاستعمار. وذلك باستخلاف خلف يرعون النبت ويتعهدون بالري والنماء. ولقد تم التشويه والمسخ باستخدام مفاهيم معينة، واختيار ظواهر تاريخية بعينها، وإثارة أسئلة موحية تفضي إلى إجابات متوقعة. وكل ذلك في إطار منهج معالمه تؤدي إلى نتائج مسبقة وتصورات موضوعة سلفاً.

وهذه الخصائص التي صبغت تلك الفروع من المعرفة الأوروبية سادت، ولا تزال تسود، دراسات علماء تلك الفروع الدراسية، مستترة أحياناً وسافرة في بعض الأحيان، محلاة بوشى الموضوعية ومتشحة بثوب المنهجية والعلمية، ولكن لا تختلف عن سابقاتها من دراسات إلا في رفض بعض التفاصيل والخروج بحقائق جديدة لا تنفي النتائج القديمة وإنما تؤكدها».

انظر: «عز الدين عمر موسى»: «الإسلام وإفريقيا» في ندوة العرب وإفريقيا 25-29 نيسان\إبريل 1983 – مركز دراسات الوحدة العربية – منتدى الفكر الأدبي، عمان، الأردن. ص12-13.

والمقاومة والوحدة. لذلك فإنّ علينا أن نضمّن مناهج التعليم والثقافة ما يؤدي إلى هذا الاتجاه...»[1].

في دراسته لنماذج من آراء المستشرقين حول الإسلام، تناول المؤلّف موضوع الفلسفة الإسلامية وميل بعضٍ من المستشرقين إلى تجريد العقليّة الإسلامية من كلّ لونٍ من ألوان الإبداع الفكري والأصالة، وتعرّض في هذا الصدد لـ«رينان» و«كارل هينريش بيكر» و«جوتيية» ودعواهم التي تقوم على أساسٍ عنصري، وقد أحسن في دحض هذه المفتريات بطريقة منهجيّة وموضوعية تنبع من الروح والفكر الإسلامي (صفحات 111-114). إلاّ أنّ المتأمّل للفكر الفلسفي في أوروبا والغرب اللاتيني يجد أنّه من الثابت تاريخياً بأنّ فلسفة «ابن رشد» قد انتشرت انتشاراً عجيباً وأثرت على علماء النصرانية وتلاميذهم إلى حدٍّ لم يصل إليه مؤلّف غيره. وفي حديثه عن تسرّب التحرّر الفكري وأثر فلسفة «ابن رشد» في الفكر الأوروبي يذكر الدكتور «السامرائي»:

«ظلّت فلسفته المذهب السائد، على الرغم من ردود الفعل العنيفة أربعة قرون. ولقد بقيت فلسفته بكلّ حسناتها وبكل ما أضيف إليها من أخطاء عاملاً حيّاً في الفكر الأوروبي حتّى ولادة العلم التجريبي الحديث. بل إنّ فلسفة ابن رشد العقلية أصبحت جزءاً لا ينفصل من الفكر الأوروبي اليوم».

ويضيف الدكتور «السامرائي» في مكان آخر من كتابه: «لقد تعلّمت أوروبا نهجاً جديداً من المسلمين، وهو «وضع العقل فوق الحكم». فرفض العلماء كلّ «المسلّمات» التي لم يجز النقاش فيها. وهم بذلك قد اتّخذوا الاستقلالية في الأحكام المبنيّة على الشكّ طريقاً إلى التسليم أو الرفض»[2].

---

(1) من كتاب «صموئيل زويمر»، وعنوانه الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله (1923)، وقد علّق عليه الأمير «شكيب أرسلان» في مقالة عنوانها «المبشر زويمر ومفترياته» في حاضر العالم الإسلامي، المجلد الأول، صفحات 278-282، (القاهرة 1394هـ - 1973).

(2) انظر: «السامرائي»: صفحات 25-27، 38-39، 46-49، 73-79، 80-83، 83-92.

(8) في استعراضه لما يتطلبه العمل الإسلامي من أساليبٍ لمواجهة التيارات الفكرية الغربيّة المعادية للإسلام، أشار المؤلف في كتابه إلى ضرورة إنشاء جهازٍ عالمي للدعوة الإسلاميّة، من أهدافه الدعوة للإسلام من ناحية، ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثانية، ويحمي المسلمين بالوراثة من ناحية ثالثة (صفحات 143-146). والمعروف أنّ هناك مؤسّسات إسلاميّة كبيرة قائمة تعمل الآن في حقل تأهيل الدعاة في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي وفي طليعتها المملكة العربية السعودية. فقد تمّ إنشاء معاهد متخصّصة في الجامعات الإسلامية تستقبل الدارسين من شتى الأقطار الإسلاميّة والأوروبيّة. على سبيل المثال لا الحصر «المعهد العالي للدعوة الإسلامية» بالرياض، الذي أنشئ في عام 1396هـ، كما تمّ إنشاء فرع له بالمدينة المنورة في عام 1398هـ، وهما من المعاهد التابعة لـ«جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية»؛ وقد جاء في أهداف التأسيس ما يلي:

1 ـ خدمة الدعوة الإسلامية والعمل على إيجاد جيلٍ من الدعاة الإسلاميّين على درجةٍ عاليةٍ من الكفاية والوعي ليحملوا رسالة الإسلام ويسهموا في نشرها في جميع أنحاء العالم.

2 ـ القيام بالبحوث والدراسات المتخصصة التي تقتضيها أهداف الدعوة.

3 ـ دراسة قضايا العلم الإسلامي دراسة مستفيضة.

ولمّا كانت الدعوة الإسلامية يضطلع بها القادرون عليها، مهما كانت ثقافتهم الأساسية فإنّ المعهد يقبل المتخرّجين من الجامعات، أياً كانت طبيعة دراستهم الجامعية نظريّة أم عملية. والدراسة بالمعهد أربع سنوات: السنتان الأولتان منها دراسة تأهيلية تعدّ الدارس للالتحاق بعدها بالدراسات العليا (مرحلة الماجستير) لمدة سنتين أيضاً، وأقسام المعهد هي:

1 ـ قسم الحسبة.

2 ـ قسم الإعلام[1].

3 ـ قسم الاستشراق (بالمعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة).

وبدعم من الدول الإسلامية يقوم المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم أيضاً بدورٍ واعدٍ في نشر الثقافة الإسلامية والعربية في إفريقيا. وبالتالي قد كنت أتوقع من المؤلف الكريم أن يُضَمّن كتابه الدور الكبير الذي تلعبه تلك المؤسسات الإسلامية في خدمة متطلبات العمل الإسلامي المنوط بها وتقويم هذا الدور بإلقاء الضوء على الجوانب الإيجابية والسلبية على حد سواء حتّى نتمكن من الإسهام في ترشيدها ودعمها بدلاً من تبديد الجهد والمال في مؤسّسات مكرّرة خاصّة والمؤلف نفسه قد ذكر: «... ومن الخير للإسلام والمسلمين أن تتوحّد الجهود وتتوفّر الإمكانات على إنجاز أعمال غير مكررة» (ص143).

(9) إنّ الاستشراق ليس كلّه شرّ محض. إنّ الروح الإسلامية التي تؤكّد النزاهة والحياد تقتضي الإشارة والتنويه بالجوانب الإيجابية والانتفاع بالأعمال الجيدة.

فقد أفادنا المؤلف في الفصل الثاني من كتابه بأنّ بعض مؤلّفات المستشرقين ذات قيمة علميّة، واكتفى بالإشارة إلى **تاريخ الأدب العربي** لـ«بروكلمان»، **ودائرة المعارف الإسلامية** وجهودهم في مجال المعاجم والقواميس اللغويّة، وأشاد بصفة خاصة بـ**المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف**، الذي يشمل كتب الحديث الستة (صفحات 66-70).

ولعلّه من المفيد أن أشير في هذا الصدد إلى البحث القيم الذي أسهم به

(1) انظر: دليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -1401هـ

الدكتور «سامي الصقّار» الأستاذ بكليّة الآداب جامعة الملك سعود عن الجوانب الإيجابية لنشاط المستشرقين البريطانيّين، والذي تناول فيه الجهود التي بذلوها في إنشاء الكراسي لتعليم اللغة العربية واللغات الشرقية في الجامعات البريطانية، وجهودهم في جمع كتب التراث العربي الإسلامي وفهرستها وصيانتها من التّلف في عددٍ من المكتبات الكبيرة، فضلاً عن تحقيقها ونشرها، ووضع أسس مناهج التحقيق وقواعدها الدقيقة، وكذلك جهودهم في ترجمة الكثير من الكتب العربية الإسلامية وتقديمها إلى العالم الغربي. علاوة عن التأليف في الموضوعات ذات العلاقة بالإسلام والتاريخ الإسلامي واللغة العربية وآدابها. وقد دعم الدكتور «الصقار» بحثه بنماذج لهذه الجهود وباستقصاء لمنشوراتهم التي تناولت تحقيق التراث الإسلامي والترجمات، وجهودهم في ميادين التصنيف عن تراث الشرق وجمع الآثار وإنشاء المتاحف[1].

(10) وقعت في الكتاب بعض الأخطاء المطبعية الضئيلة والتي لا تكاد تذكر، وهو أمر يهنأ عليه القائمون بأمر الطباعة، وفيما يلي الأخطاء التي عثرت عليها وتصويبها:

الصفحة 10 السطر 5. الخطأ: يعيف العلاجيين [illegible] . العلاج ويبين الخطة.

الصفحة 70 السطر 4. الخطأ: الفترة من عام 1936 حتى عام 1936. الصواب: الفترة من عام 1936 حتى عام 1969[2].

---

(1) «سامي الصقار»: «الجوانب الإيجابية لنشاط المستشرقين البريطانيين»، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد التاسع (1982) ص 159-228.

(2) قد تم نشر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف في سبعة مجلدات وتواريخها كالآتي:
المجلد الأول 1936. الثاني 1943، الثالث 1955، الرابع 1962، الخامس 1965، السادس 1967، السابع 1969، الناشر مطبعة بريل – مدينة ليدن هولندا.

الصفحة 115: الحاشية (72). الخطأ: انضر. الصواب: انظر.

هذه الملاحظات والتعليقات التي أبديتها بالطبع لا تقلّل من الجهد الكبير والإسهام المقدّر في هذا الكتاب، وإنما تؤكّد وتدلّل على أهمية الموضوع الذي تناوله المؤلف بالبحث خاصة في هذه الفترة التي يُتَرَبَّصُ فيها بالأمة الإسلامية الدوائر.

المستشرقون مالهم وما عليهم

بقلم د. «محمد يحيى خراط»

تتضارب الآراء كثيراً عند الحديث عن المستشرقين ما بين مادحٍ وما بين ذامٍ، وإنَّ التفاوت والتباين في تقييم المستشرقين وأعمالِهم يرجع إلى كثرة عدد المستشرقين وتعدّد أوطانهم، وتعدّد اتجاهاتهم وأهدافهم. فمنهم من كان يعملُ حبّاً بالعلم معتمداً برزقه على مصدرٍ خاصٍ به، ومنهم من كان يعملُ تابعاً لحكومته، يعمل بتوجيهاتها أحياناً، أو برؤيتهِ العلميّة أحياناً أخرى.

وإنّ وجود عددٍ كبيرٍ من المستشرقين في دولٍ ذات تاريخٍ استعماريٍ قد عزّز فكرة أنّ المستشرقين لا يعملون حباً بالعلم وفي دراسةِ تراث الأمم لنشره والتعريف به، وإنّما كانوا يعملون لأهدافٍ سياسيةٍ أو عسكريةٍ أو فكريةٍ خاصّة بدولهم.

وعلى كل حالٍ إذا دققنا في أعمال معظم المستشرقين نجد أن صفاتٍ مشتركةً تجمع بينهم، من أهمها:

المنهج العلمي

لقد أسّس للمنهج العلمي واتبعه عددٌ من مفكري الغرب أمثال «مونتسكيو» و«ديكارت» وغيرهما. وهذا المنهج يقومُ أساساً على الإحاطة والموازنة والترتيب للوصول إلى الحقيقة. ولقد التزم علماءُ الغرب بهذا الاتجاه التزاماً تاماً، وطبقه المستشرقون في دراسةِ وتحقيق علوم وآداب وفنون الأمم الأخرى.

وبادئ ذي بَدءٍ قامَ المستشرقون بدراسةِ اللغات الشرقية ساميةً كانت أو آريةً، فدرسوا اللغات الكلدانية والآشوريةَ والسريانية والعبريةَ والحبشيةَ والأرمينية والفارسية والتركيةَ وسائر لغات الشرق، وصنّفوا في قواعدِ كلٍّ منها

وفقهها ومعاجمها ولهجاتها وتاريخها، وقارنوا بينها وحدّدوا صلاتها باللغات الأخرى واللغات الآراميّة، وحلّوا لغز الكتابةِ الهيروغليفية والمسمارية والفينيقية والنبطيةِ الجنوبيةِ وغيرها، فأدى ذلك إلى اكتشافات أضاءت وجه التاريخ، والأدلة على ذلك كثيرةٌ. كذلك فقد حقّق المستشرقون التراث الإنساني في مجالاته كافّة: في لغاته وأديانهِ وفنونهِ وعلومهِ، فدرسوا تفاعله وتأثره وتطوره من بداياتهِ حتّى عصرنا.

ففي مجال الفلسفة، درسوا الفلسفة ذات الأصول اليونانية والسريانية والعربية والعبرية واللاتينية وسائر اللغات الغربية. كما درسوا علم الكلام لدى جميع الأمم على مرِ العصور. وقارنوا الفقه الإسلامي بالقوانين الدينيّة والمدنيّة العالميّة، وأرّخوا للحروب الصليبية نقلاً عن المؤرّخين العرب والأرمن واللاتين. كما كتبوا عن انتقال الفكر اليوناني إلى العرب، وما أضافهُ العرب في المجالات العلميّة إليه، وأثر الفلسفة الإسلاميّة في التفكير الأوروبي، ومساهمةِ الثقافة العربية في التراث العالمي.

والذي يميّز أكثر المستشرقين أنّ الواحد منهم يتخصّصُ بلغةٍ أو دينٍ أو علمٍ أو أدبٍ أو فنٍ، فهذا باللغة العربية وفقهها وبلاغتها، وذاك بالتشريع الإسلامي ونشأته وتطوره، وثالثٌ بالجغرافيا أو التاريخ، وسواه بالموسيقا العربية ومصادرها وآلاتها ومصنفاتها، وغيره بالنباتات أو الحيوانات المذكورة في المؤلفات العربية.

جَلَدُ المستشرقين ومثابرتُهم

يتميّز المستشرقون بِجَلَدهم على العمل، فلربما يقضي أحدهم عمره في تحقيق مخطوطٍ أو تصنيف كتابٍ فـ «إدموند كاستل» أمضى ثماني عشرة سنة في وضع معجم اللغات السامية، و«فلوجيل» أمضى في جمع مخطوطاتِ

كتاب **الفهرست** لـ«ابن النديم» من مكتبات فيينا وباريس ولندن خمساً وعشرين سنةً، وسلخ «دي مينار» و«دي كورتاي» عشرَ سنوات في تحقيقِ وترجمة مروج الذهبِ لـ« المسعودي».

دوافع المستشرقين

لم يكن الدافع للمستشرقين واحداً، بل كانت هناك دوافعُ مختلفةٌ، وإن غلب عليها الطابع العملي، ولذلك لا يمكن أن يكون التقييم واحداً.

1 ـ فأساتذةُ اللغات الشرقية في العصر الوسيط وتراجِمَتُه عملوا لقاءَ أجرٍ. وعلماءُ الجدل والموسرون نالوا جزاءهم بإرساء النهضة الأوروبية على التراث العربي، وبتفسيرهم وبترجمتهم للكتب المكتوبة باللغات الشرقية، التي مثّلتِ الثقافة الوسطى بين اليونانية القديمة واللاتينية الحديثة.

2 ـ ولما أرادَت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشرق والاعتراف في تراثه والانتفاع به والتزاحم على استعماره، أحسنت كل دولةٍ إلى مستشرقيها، فضمّهم ملوكهم إلى حاشيتهم أمناء سرٍ وتراجمة، وانتدبوهم في العمل في سلكي الجيش والدبلوماسية إلى بلدان الشرق، وولّوهم كراسيَّ اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصّةِ والمكتبات والمطابع الوطنية، وأجزلوا لهم العطاء ومنحوهم ألقاب الشرف وعضويّة المجامع العلميّة.

3 ـ ومن المستشرقين من هويَ الاستشراق واتخذه مهنةً كأيٍّ مهنةٍ أخرى، فعملوا في المعاهد والمكتبات والمتاحف والمطابع ودور النشر وتحرير المجلات التي تُعنى بالاستشراق، إلا ذوي اليسارِ منهم فحققوا وترجموا وصنفوا في تراثنا الذي أضحى جزءاً هاماً من تاريخ العلوم والآداب والفنون العالمية، لا مطمع لدولهم فيه، ولا إقبالَ لمواطنيهم عليه بعد ثورةِ المعلومات

وما استحدث من فنونٍ وعلومٍ، فلا ثراء للمهنةِ ولا أمل لصاحبها في ثراءٍ.

4 ـ ومن المستشرقين من تسلّلَ إلى مجامع اللغةِ العربية في حين كان عمله الأساسي في خدمة المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب، واتَّجه إلى غرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا «مستغربين».

5 ـ وهناك من حدد أهداف المستشرقين بالتبشير فادّعى بأنَّ طليعة هؤلاء المستشرقين كانت مستشرقين مبشرين، وأخذوا يستخدمون الإسلام في الطعن عليه، ويختارون الأشياء التي تثير الأوروبيين على المسلمين.

6 ـ ومن بعدهم جاء المستشرقون غير المبشّرين، ولكنّهم سلكوا مسلكهم واحتذوا حَذْوَهم، ولم يسلكوا مسلك البحث النزيه المجرّد، بل كانوا يضعون الاتّهام أولاً ثمّ يبحثون عن الأدلّة التي تقوّي هذا الاتّهام، ماعدا القليل منهم.

7 ـ ومن المستشرقين من اتُّهم بالتبشير والاستعمار معاً: حيث كانت الحروب الصليبية منبعاً مهماً من منابع الاستشراق، أطلعتِ الغربيين على مواطن في دينهم بعد مقارنة بين الإسلام وبينَه تحتاجُ إلى مراجعةٍ أو تعديلٍ، وهذا ما سمّاه بعضهم بحركةِ الإصلاح الديني... فاستدعت المراجعةُ نوعاً من الدراسات العبرية، ثمّ انتقلوا إلى الدراساتِ العربيّةِ والإسلاميّة، ثمّ كانت هناك الرغبة في التبشير بالمسيحيّة في الشرقِ، فاستلزم هذا دراسةَ اللغة العربية على أيدي المستشرقين، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار ووجهةُ التبشير ووجهةُ الاستشراق.

8 ـ وبهذا تكونُ الحروبُ الصليبيةُ قد أدَّت إلى ازدياد روح التعصب الدينيّ، وانعكست هذه الروح على الاستشراق فكان ثمرة للحروبِ الصليبية. وقد أُحسن تنظيم هذه الثمرة، فكانت أشبه بحركةِ مقاومةٍ علميّة للإسلام.. عن طريق الهَدمِ المعنويِّ في حركةٍ ظاهرها العلمُ والبحثُ وباطنها المكرُ والخبثُ.

9 ـ وهناك من جعل أهداف المستشرقين موزّعةً بين التبشير والسياسة.

10 ـ حيثُ نظرت أوروبا إلى هذه الحضارة - الحضارة العربية الإسلامية - نظرةَ إكبارٍ وتقديرٍ، ولكنّ الرهبان أخذوا يحاربونها بدافعٍ تعصّبي.. فبدأ جماعةٌ من الرهبان يدرّسون الثقافة الإسلامية، رائدهم في ذلك تتبّع العورات وتلمّسُ السيئات، إضافةً إلى أنّ هذه الدراسة كانت تدفع بهم إلى الرقيِّ في مجال الرهبنة.. وتعاونت الكنيسة وملوك أوروبا على شدّ أَزرِ المستشرقين والتمكين لهم في مهمّتهم، فنصفُها الأول سياسيٌ ونصفها الآخر تبشيري تعصبيٌّ.

11 ـ يُنسَبُ إلى بعض المستشرقين نوازع ثأرٍ قديمٍ بين الشرق وأوروبا، والذي بلغ ذروتَهُ في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. لقد رأى المستشرقون آثارنا ونقوشنا ومخطوطاتِ تراثنا، فنقلوا إلى بلادهم ما استطاعوا أن ينالوه منها إما بالسرقة أو بالشراء أو بالاستهداءِ. فبدؤوا بدراسةِ الدين الإسلامي ثم أهوى البعضُ عليه بمعاوله ليشوهوه أو ليقتلعوه، وحفروا كذلك حول تاريخنا وأدبنا ولغتنا. ونصَّبَ بعضهم نفسه لمخاصمة زملائه دفاعاً عن العروبة والإسلام، إمعاناً في التمويه والتضليل. فتراهم يضيّعون كثيراً من المال في نشر بعض تراثنا القديم.. فإذا نظرت فيما ينشرون وجدت أكثره من مؤلفات المتصوّفين أو المشكّكين أو دعاة الفرقةِ بين المسلمين.

أخطاء المستشرقين وأخطاؤنا

التمسَ بعضُ علمائنا العذر لأغلاط المستشرقين في التحقيق، فقالوا: «إنّ الأسفار الأدبية الأولى كانت تنسخُ نسخاً وكان سوق النسّاخ رائجاً، دفع بعضهم إلى الصنعةِ التجارية، فوقع تحريفٌ كثيرٌ، وظهرت الكتابات فما يستطيع المحقق اليوم بعد طول عهد الكتابةِ أن يتميّزها، فاستعصت بعضُ الكلمات

على بعض المستشرقين، وهذا وقع في ذيل المعاجم العربية لـ«دوزى»، منها: أتان وصحيحاً آثار، مؤدى - مودة، الإبرسيم - الإبريسيم، ألف مئة دينار - مئةُ ألف دينار. وقد صححها الشيخ «إبراهيم اليازجي».

وكذلك قابَلتهم تلك الصعوبة في الشرح على الطريقة الكلامية من دون معرفة القصد الذوقيِّ، منها: كشرح «كاترمير» الأحداث بالغوغاء، وفي ترجمة بعض النصوص، كجمع بعضهم لورد على لوردين، بدل لوردات، لأنها جمع مذكّر عاقل، وقد أجيزت من بعد. وترجمة «كازيميرسكي» قول الله للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ بـ«اعبدوا آدم».

وقد صحح الأب «أنستاس الكرملي» الأغلاط اللغوية لـ«فراتياج» في معجمه العربي اللاتيني، وللدكتور «ليكير» في مفردات ابن البيطار المترجم إلى الفرنسية. ولـ «كليمان هيار» في كتاب البدء، والتاريخ لـ«المقدسي»، ولـ «دي خويه» في كتاب فتوح البلدان لـ«البلاذري».

وقد ردّ المستشرقون أنفسهم على هذه التصحيحات والادعاءات، وكان لهم فيها استدراكاتٌ وتحقيقاتٌ وإصاباتٌ كتصحيح «بروكلمان» كتاب عيون الأخبار لـ«الدينوري» المطبوعُ في دار الكتب المصرية.

وقد وقعنا في مثل أخطائهم فيما نقلنا عنهم، وكتبنا في تراثنا على غرارهم: فنقلنا جبل هرمون بدل حرمون، والنزاري عوض الناصري، وفي تاريخ الآداب العربية لـ«بروكلمان»: تحوّل الأبُ «أنطون صالحاني اليسوعي» إلى «أحمد صالحاني»، و«ملحم الأسود» إلى «ملهم»، و«الغزيري» إلى «كاسبري»، و«السمعاني» إلى «اسماني»، وهي كتبٌ لنا منقولةٌ عنهم! أمّا مصنّفاتنا بالعربية فلا تقلُّ تحريفاً، فعلى سبيل المثال انقلب الدكتور «مندور» إلى «غندور».

ومن كتّابنا من وضع الحدَّ بين ما يستطيع المستشرقين النهوض به وما

يعجزون عنه بقوله: «إنه من تحصيل الحاصل أنْ يقال: إنّ المستشرقين نشروا كثيراً من كتب العرب المطويّة، وأنّهم وقفوا على طبعها فأحسنوا إخراجها وتبويبها، ولكنّهم في أصل صناعتهم حفّاظٌ مسجّلون يغلبُ على الجِلّةِ منهم الملكة الأدبية، ومن كان منهم ألمانياً أو فرنسياً أو إنجليزياً تسألُه عن أدباء قومه فلا تسمع منه رأياً يعوّل عليه، فليس من المعقولِ أن يعطيك رأياً يعوّلُ عليه في نقد البحتري والمتنبي والمعرّي لمجرد علمه باللغة العربيّة. وعلمُهُم بمعاني الأدب والبلاغة في الغالب علمٌ معجميٌ يضعُ الكلمة أمام الكلمة، ولا ينفذُ منها إلى اللبّ. وقد أُسيء الظن بالمستشرقين القدماء؛ لأنّ الاستشراق كان في نشأته الأولى مؤسّساً على التبشير، ولكنَّ المستشرقين اليوم من غير المبشرين كثيرون».

فضائل الاستشراق

إنّ للمستشرقين فضلاً على تراثنا لا يجحده إلا جاهلٌ أو مكابرٌ، إننا ندينُ لهم بجمع ذلك التراث وصونه من الضياع. ورُبَّ سائلٍ يسألُ ماذا لو تركوا تراثنا لنا؟ هل نحن أهلاً لجمعِهِ وصونِهِ؟ والجواب الأكيد هو: كلاّ... كنّا في غفلةٍ عنه لا نكادُ نحسُّ وجوده أو نعرف قيمتهُ أو نقدّر حاجتنا إليه! خدامُ دور العبادة يبيعون نفائسَهُ بالكوم لتجار الحلوى والبقول. ولم يقف جهد المستشرقين في الجمع على مجرد الاقتناء. بل فهرسوا ما جمعوا من تراثنا فهرسةً علميّةً دقيقة، ومن ثمّ انتقلوا إلى نشر ذلك التراث نشراً يعتمد على أدقّ منهجٍ للتوثيق والتحقيق. وصحونا من نومنا، محرّرة موثّقة نلوذ بها في دراستنا العاليةِ ونعدُّ الرجوع إليها في أبحاثنا المتخصّصة مدعاةً للفخر والمباهاة. وبلغوا في دراستهم للشرق والعربيّة حدّاً مذهلاً من العمقِ والتخصّص. فبعض المستشرقين تخصّص في شاعر من شعرائنا كـ«بلاشير»، الذي تخصّص في «المتنبي» وفَنّدَ آراء جميع

نقاده، من «إبراهيم اليازجي» إلى «شفيق جبري»، وقد نقل كتابه إلى العربية الدكتور «أحمد بدوي».

ومن يؤيد هذا الرأي ولو بعد حين فيحصي 4603 مخطوطة قديمة، يرجع بعضها إلى أكثر من ألف سنةٍ معرّضةٍ للضياع بسبب السوسِ داخل مكتبة الإسكندرية. ففي هذه المكتبة ترقد آلاف المخطوطات النادرة التي لا مثيل لها في العالم كمخطوط **القانون** لـ«ابن سينا» في الطب، **وعلم الهيئة والفلك** لـ«ابن الهيثم». والكثيرون من علماء العالم يحضرونَ للإسكندرية للاطلاع على مختلف فروع العلم من أصوله ولدراسته، وكان آخرهم الدكتور «دافيد كنج» الأمريكي و«همفري دافيد» الأستاذ بجامعة ييل وكثيرون من المستشرقين الغربيين.

وفي المكتبة مخطوطاتٌ نادرةٌ للقرآن الكريم يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام كُتب بعضها بماء الذهب على جلد الغزال. كما تضمُّ المكتبةُ مخطوطاتٍ أخرى لكبار العلماء مثل «البخاري» و«الزمخشري» و«ابن سينا» و«الفارابي»، ومخطوطاتٍ تبحث في ثلاثةٍ وستّين فرعاً من فروع العلم والدين والكيمياء والموسيقى والتنجيم والهندسة والطِّب.

ويقولُ «عبد الفتاح نوّار» مدير مكتبة الإسكندرية: «إنَّ تلك المخطوطات معرّضة للتلف لما أصابها من حشرة السوس التي انتشرت بصورةٍ مفزعة. وتعرض ذلك التراث الذي لا يُعَوَّضُ للضياع». ويتابع فيقولُ: «لقد حاولنا منذ ثلاث سنوات مقاومة السوس بطريقة التبخير. وكانت أعمال المقاومة تكلفنا القليل من ميزانيتنا الضئيلة، ولكن أسعار التبخير أخذت ترتفع حتى تجاوزت قدرات الميزانيّة. وتوقّفت عمليات التبخير، وأصبحت مخطوطات المكتبة تحت رحمةَ السوس!».

ومن قلائل الجامعين الذين أنصفوا المستشرقين من يقول: «إننا لا نستطيع أن نجحد جهود المستشرقين، ولا يمكن أن ننكر تماماً فضلهم، ولا يجوز لنا أيضاً أن نستغني مطلقاً عن دراسات المستشرقين وأبحاثهم، بل من واجبنا الاطلاع على وجهات النظر الغربيّة في موضوعات تاريخنا العربيِّ الإسلاميّ. وإنّ القارئَ المثقّف، والمطّلع الفطن، أو الباحث المتخصّص يستطيع أن يقيّم أبحاث المستشرقين تقييماً صادقاً يمكّنه أن يميّز بين الغثّ والسمين، وبين وجوه الإنصافِ والإجحافِ».

المثقفون العرب والمستشرقون

إنّ الدراسات التي يقوم بها المستشرقون الآن في جامعاتهم الأوروبية والأمريكية يقدّمونها غالباً لمواطنيهم. ولم يعد العرب والشرقيّون يهتمّون بها كثيراً فقد أغناهم العلماء والمفكّرون العرب في العصر الحديث ببحوثٍ قيّمة تبزّ أحياناً أبحاث المستشرقين. وأصبحت الجامعات العربية تمنح درجة الدكتوراة في مجالات الاستشراق. ويمكننا أنْ نلاحظ أنّ الكتب الأجنبية التي تتناول دراسات عربيةٍ وإسلاميّةٍ والتي تصلُ إلينا في الوقت الحاضر لا تَتَّصفُ غالباً بالعمقَ والدَّسامة، بل هي غالباً ما تكون سطحيةً كتبها المستشرقون لأبناء وطنهم، لأنّها لا تفيد العرب، ولا تُسمنُ ولا تُغني من جوع! ولذا، فإنّنا نقول: إنَّ الاستشراق غدا محدوداً، وإن مجالاته انكمشت وأصبحت كفّةُ الباحثين العرب هي الراجحة الآن، وأصبح العرب في غير حاجةٍ إلى فكرٍ مستورد، وباتَ المستشرقون يجترّون جهودهم السالفة، وانحصرت أبحاثهم الجديدة في دوائر محدودةٍ.

ومن الدارسين العرب من يقول عن المستشرقين أنّ كلّهم أو جُلَّهم يُقبلون على الدراسة طلباً للمعرفة الخالصة والعلم النزيه، وما هذا إلا مبالغةٌ. وهناك من يقول بأنّ الصلةَ بين الاستشراق والسياسة والاستعمار واضحةٌ تماماً وعكوف اليهود على الدراسة الإسلامية لا يمكن أن يكون كله خالصاً لوجه الله.

وهناك من يقول: إنّ الرهبان لو استهدفوا الجدل والتبشير فحسب لاكتفوا بتعلّم العربية، وأهملوا ما عداها من اللغات التي قلّ أو انقرض المتكلمون بها كاليونانية القديمة والعبريّة والسريانيّة والكلدانية، وما كلّفوا أنفسهم إنشاء بواكير مكاتب الترجمة والمعاهد والمكتبات والمطابع والمجلّات لحفظِ التراث ونشرِ ذخائره والتصنيف فيه وترجمته إلى لغات العالم. حتّى إذا استقروا في شمال إفريقيا منذ القرن الثالثَ عشرَ، وفي الشرق الأوسط في مطلع القرن السابع عشر أنشؤوا في عواصمه أولى المؤسسات على غرار ما في الغرب وأعادوا إلينا تراثنا الذي أخذوه عنّا في الأندلس والبرتغال وصقلية وغيرها لإرساء نهضتهم الأوروبيّة عليه، ونحن بدورنا أرسَينا عليه نهضتنا الحديثة. ثمّ لحقت بهم الإرساليات البروتستانية، والبعثات العلمانيّة، وزاحَمَتهُم في نشاطهم، من دون أن يفلح أيٌّ منها في منع نصرانيّ من إشهار إسلامه، أو فتن مسلمٍ عن دينه. وكان المبشر «كاتون ديل» أوّل وأدقّ من نقل القرآن الكريم إلى اللغة السواحلية، واتّخذ الدكتور «ليندون هاريس» كبير المبشرين في القارة الإفريقية قول «صموئيل جونسون» قاعدةً لتبشيره: وهي «إن المسيحيّة والإسلام في عالم العقيدة هما الديانتان الجديرتان بالعناية، وكلّ ما عداهما فهو باطل». ومن هنا وجدت اللغة العربية مؤهّلاً لها في المدارس الأجنبية والمدارس المسيحيّة الطائفيّة فانتشر تعليم الأدب العربي بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين، ثمّ فيما علّمونا إياه من علومٍ وآدابٍ وفنونٍ تعليمهم أبناء مللهم في أوطانهم، وقد رجح العلميّ على الدينيّ رجحاناً كبيراً.

أوروبا والمستشرقون

ولئن استجاب بعض الملوك والأمراء والوزراء إلى أتباع الفاتيكان فأعانوهم على مآربهم ببعض الوسائل فإنّهم لم ينقادوا لهم تمام الانقياد، ولهم أغراضٌ غير

أغراضهم. «فشارل مارتل» و«لويس التاسع» صادرا أموال الكنيسة للإنفاق على حروبهما، و«روجيه» الأول أضاف شارة «محمدٍ» إلى شارة المسيح في ضرب نقوده. والحملات الصليبية نفسها لم تكن جميعها خالصةً لوجه الدين، واتّهم الفاتيكان «فردريك» الثاني ملك صقلية بالتواطؤ مع المسلمين على المسيحية، وعندما تولى أمر الحملة السادسة وما زال محروماً أشادَ شعراء الفرنجة بنجاحها وإخفاق حملة الملك لويس القديس. وتعاون السلطان الغوري والبنادقةُ الكاثوليك على البرتغاليين الكاثوليك. وحرمَ البابا تجار البندقية وجنوى من التعامل مع المسلمين فلم يفلح، وخرجت بعض الجامعات التي أنشأها رجال الدين على الكنيسة، فذهب من جامعة بولونيا القول المأثور: «حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون منهم كافرين» أي مسلمين! وأقرّ «لويس الحادي عشر» ملك فرنسا تدريس أرسطو بشرح ابن رشدٍ في جامعة باريس، على الرغم من تحريم الفاتيكان إياها بقراراتٍ متواترةٍ. وأنفذ «كارلوس» ملك إسبانيا زعيماً تيرولياً على رأس فريق من المرتزقة فنهبوا روما، وهتكوا أعراض المحصنات، وأعملوا السيف في رقاب الناس حتى المرضى واليتامى والمحتمين بالكنائس.

ثمّ جاء عهد الإصلاح الديني الذي قَسَّم أوروبا إلى معسكرين داميين، حيث انفصل البروتستانت عن الفاتيكان، وتبع ذلك عصر المفكرين الأحرار والثورة الفرنسية والمذاهب المستحدثة من العلوم والفنون والآداب، وانفصال الدول عن الدين وازدهار الأفكار العلمية الحرّة. جميع ذلك يدلّ دلالةً واضحةً على أنّ الغرب لم يكن أو لم يبق على حالٍ واحدةٍ من التفكير الديني والتعصّب له مقروناً بالاستعمار، وأنّ ملوكه وأمراءهُ ووزراءهُ وحكامه استهدفوا التجارة والسياسة والفتح أكثر من أي شيء آخر.

ويمكن تصنيف المستشرقين العلمانيين الأوروبيين في الفئات التالية:

1- فئة طلاب الأساطير والغرائب فانقرضت بانقراض العصور الأولى.

2- وفئة من المرتزقة الذين وضعوا أقلامهم في خدمة مصالح بلدانهم الاقتصادية والسياسية والاستعمارية.

3- وفئة ثالثة من المتغطرسة الذين أعمتهم الضلالةُ عن الموضوعية المتفهمة، وقد غلب على نظرتهم الاعتقاد بأن الإسلام دينٌ قليل الشأن، شأن «بدويل» و«بريدو» و«سيل» من القرنِ الثامنَ عشرَ.

وجميعُ مصنفات هذه الفئات لا قيمةَ علميةً لها. ثم أضيفت إليها مؤلفات الملحدين الذين ينالون من الإسلام نيلهم من النصرانية، لأنّ الأديان في عرفهم عقبةٌ تعترض الرقيّ البشريّ!

4- وفئة رابعة تعرَّضت للإسلام من دون أن تقصد الطعن به، وإنما دَرَسته دراستها كتبها الدينية، فقد درج العلماء ومنهم الرهبان على نقد الكتاب المقدس مثل «رايموروس» المتوفى سنة 1768م أستاذ اللغات الشرقية في جامعة هامبورغ، الذي خلَّفَ مخطوطاً في نقد حياة المسيح في 1400 صفحة، نشر «ليسنج» أجزاءً منه بعد سنواتٍ. وهاجمَ المسيح «بوبر» 1840 و«رينان» 1863 و«القسُ لوازي» وغيرهم كثيرون. وليس أقلَّ منهم عدداً أولئك الذين تعرضوا للقدّيسين، فقد نقد «بور» رسائل القديس بولس نقداً عنيفاً مقذعاً. أما كيف كتبت أسفار العهد القديم؟ ومتى وأين؟ فأسئلةٌ صنّف للردّ عليها خمسون ألف مجلدٍ.

5- وفئة خامسة أنصفت الإسلام وإن لم تَدِن له قولاً وعملاً وكتابةً، فلم يُؤخذ عليها هفوة على كل ما دبّجته فيه. ومنها من ذهب به إخلاصه إلى اعتناقهِ من أمثال: «بوركهات»، و«كرنكوف»، و«زونستين»، و«شنيتسر»، و«فولري»، و«ميشو-بيللر»، و«مارمادوروك»، و«فيلي»، و«جومانوس»، والعديد من البولونيين، والأحد عشر ألمانياً الذين أشهروا إسلامهم في برلين وتَسمَّوا بأسمائه، والذين أسلموا

على يد الأستاذ شيخ الجامع الأزهر، ومنهم: الدكتورة «وارزولايان» الألمانية، وقد تَسَمَّت بـ«سامية الأزهريّة»، والأمريكيان «خديجة دلتك»، و«ليورس»، الذي تسمى بالشيخ «محمد الأزهري»، والسويسريان: «جميلة زوسترنج» و«ألبرت كادلر»، والبريطانيون: المستشرق «جونس» والصحفي «لويس هارد»، الذي أطلق على نفسه اسم «رمسيس محمد يوسف»، و«إيفون إيفيت كوكا»، وقد تسمت بـ«إيناس غلام قاسم». فهل عرفَ هؤلاء وغيرُهم الإسلام في ما كتبناه عنه أو في كتب المستشرقين الذين استهوتهم فاعتنقوه؟؟

وهكذا نرى أنّ الذين وقفوا ضد الإسلام قلّةٌ لا تساوي الذين وقفوا ضدّ النصرانية، ولا تُذكر بالنسبة إلى الذين أنصفوه، ولا تُحتسبُ بين مئات المستشرقين الذين تبرّأ معظمهم منها. وفي ذلك يقول «ستوري»: «إنكم في البلاد العربية تعتقدون أنّ المستشرقين متعصّبون ضدّ الإسلام، وما أرى هذا الاعتقاد صحيحاً دون قيدٍ. إنّ هناك فريقاً تعصَّب بحكم صنعته التي يرتزقُ منها، ولكنّ هذا الفريق معروفٌ عندنا كما هو معروف عندكم. وليس من الإنصاف أن يشمل الحكم جميع الباقين. إنّ الذين خدموا العربية كثيرون، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين في أبحاثهم بقدر ما يمكنُ لإنسانٍ أن يكون منصفاً، وإن أخطأ باحثٌ من غير قصدٍ فليس السبيل إلى تقويمهِ أن يُجَرَّحَ ويُقذَفَ. ثمّ إنا نبحثُ لغاتٍ بعيدةً عنا، ونخوضُ في موضوعاتٍ في غاية الدقّةِ مستعينين بالأساليب الحديثة. وكما أنّه يشفع للطبيب الجَّراح إن أخفق في عمليةٍ جراحيّةٍ حُسْنُ نيّته، كذلك يجب أن يَشفعَ للباحث طيبُ طويّته وحرصه على الوصول إلى النتائج من دون تعصبٍ».

خاتمة

لقد كان للمستشرقين أثرٌ في أساليب وتحقيق تراثنا وترجمته ودراسته والتصنيفِ فيه، وتقييمه بالنسبة للتراث العالمي. وإنَّه من العبث أن نضرب

صفحاً عن بوادر النهضة العلمية والأدبية والفنية العربية الحديثة التي بزغت في أفق العصر الحديث للنهضة العربيّة مستلهمةً بعضاً من أسلوبها وطريقتها من المستشرقين.

أمّا القولُ عن تراثنا بأنّنا في أهله وأصحابه، ولا يجوز لنا بعد اليوم أن نتخلى لسوانا من الأجانب الغرباء فقولٌ مردودٌ: لأنّه يحرمنا حقَّ درس التراث الإنساني، ولأولئك الأجانب الغرباء نصيبٌ فيه، ويُسقط في الوقت نفسه عن تراثنا صفَتَهُ الإنسانيّة في تأثره بالثقافة العالمية وأثره فيها. ولولا جهود المستشرقين لما أحطنا به أو اهتدينا إلى كلِّ عظمةِ أسلافنا وحققنا تواريخَ أُولى دولنا. وما دامت ثقافتنا عالميةً ومن سماءِ الشرق انبثقتِ الأديان الثلاثةُ المنَزّلَةٌ، حقَّ لعلماء العالم تمحيصها لمعرفة مصادر حضارتهم.

فهل قصدوا بهذه العملية الضخمةِ المنظّمةِ خدمة العرب والشرق والإسلام؟؟ وما نشهدُهُ بين الفينةِ والفينةِ من التواء أساليبهم في توجيه العبارات، واضطراب مناهجهم في سوق الأخبار، واعتسافهم في تأويلها بغيةَ استخلاص نتائج خطرة سامة، هل تمسُّ ديننا وتاريخنا؟ الحقُّ يقال: إنّه لا يجوز لنا بعد اليوم أن نتخلى عن تراثٍ غالٍ نحن أهلهُ وأصحابهُ لسوانا من الأجانب الغرباء، الذين كثيراً ما تعوزهم النزاهةُ والإخلاصُ بقدر ما يعوزهم ذوق العربية وإدراكُ أسرارها في التعبيرِ والأداءِ.

المراجع

1- حتي، فيليب، جرجي إدوارد، جبور، جبرائيل، **تاريخ العرب**. دار غندور للطباعة والنشر، بيروت 1974م.

2- سعيد إدوارد: **الاستشراق**، ترجمة كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1981م.

3- سعيد إدوارد: **تعقيبات على الاستشراق**، ترجمة وتحرير صبحي حديدي. دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان 1996م.

4- سعيد إدوارد: **تغطية الإسلام**، ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2005م.

5- سعيد إدوارد: **تعقيبات على الاستشراق**، ترجمة وتحرير صبحي حديدي. دار الفارس للنشر. د.ت.

6- العقيقي نجيب: **المستشرقون**. ثلاثة أجزاء. دار المعارف بمصر 1965م.

7- غارودي روجيه. **نحو حرب دينية وجدل العصر**. ترجمة صياح الجهيم، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع 1966م.

8- فروخ عمر ومصطفى الخالدي: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية** - المكتبة العصرية- بيروت 1982م.

9- قباني رنا: **أساطير أوروبا عن الشرق، لفق تسد**، ترجمة صباح قباني. دار طلاس، دمشق 1993م.

10- مروة حسين: **النزاعات المادية في الفلسفة العربية**، جزآن. دار الفارابي، بيروت 1979م.

11- الموسوي، محسن جاسم: **الاستشراق في الفكر العربي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2005م.

12- هونكه زيغريد: **شمس العرب تسطع على الغرب، «أثر الحضارة العربية في أوروبا»**، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. دار الآفاق الجديدة، بيروت ط6 سنة 1981م.



الفصل الخامس

نحو تعاون مشترك

ذهب البعض إلى المناداة بالتفاعل الإيجابي بين المستشرقين والمفكرين العرب. ويمكننا القول بأنّ هذا الموقف متفرّع عن الموقف المعروض في الفصل السابق، ولكنّه متّجه نحو استفادة العرب من التراث الاستشراقي، بحسناته وسيّئاته. وهذا الموقف قد نجده في ثنايا الكتابات التي تعنى بدراسة الاستشراق أو بنقده. ولكن يندر أن نجد من يفردها بالكتابة.

ويعتبر الدكتور «عبد النبي اسطيف» من أبرز أعلام هذا التوجّه، ويتميّز بكونه ممّن درس في الغرب وتتلمذ على أيدي المستشرقين، ودارت به أحوال الزمان بين العواصم الغربيّة، فخبر العالم الاستشراقي والثقافي الغربي، كما كتب بغزارة في هذا الباب، وساهم في التراث الاستشراقي والعربي على السواء. واخترنا ههنا مقالةً له تعرض خارطة طريق لاستفادة المفكرين العرب المثلى من التراث الاستشراقي وكيفيّة التفاعل معه[1]. وقد أشار في القسم الأول منها إلى طبيعة

---

(1) «عبد النبي اسطيف»: «مقدّمات في الاستعراب الجديد 1-- نحن والاستشراق»، مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، العدد4، أكتوبر 1982، ص648-665.

«نحن والاستشراق، ملاحظات نحو مواجهة إيجابيّة»، مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، العدد1، يناير 1984، ص116-137.

التواصل الحالي بين العالم الأكاديمي العربي ونظيره الغربي وما يشوب هذه العلاقة من ضعف هيكلي وعملي. كما أشار إلى أثر تطوّر الاتّصالات وسهولة التواصل بين الجانبين - أي المفكرين العرب والمستشرقين - في بروز أهميّة التعاون والتواصل وتعدّد صور التفاعل بينهما. ويعرض في القسم الثاني آليات التعاون المشترك في إطار من البحث العلمي والنقد الموضوعي والمنهجي، ممّا يؤدّي إلى نشأة وظهور استشراق عربي.

ويسيطر على الأذهان النظر إلى التراث الاستشراقي، القادم من الآخر، على أنّه محلّ شبهة، كما عرضنا سابقاً. ولنفترض أنّه شرّ محضٌ، ألا يمكن أن يحمل في طيّات «شروره» بعض الدروس التي يمكن استشفافها منه والتعلّم منها؟ يطرح «سامي خشبة» هذا التساؤل، ويحاول تحويل دور المفكرين العرب من المتّهم للآخر الرامي له بالخبث وسوء الطويّة إلى الباحث عن الاستفادة من هذا الآخر مهما كان «شريراً»[1]. وتتميّز هذه المقالة بعرضها لنموذج من استفادة الباحثين الهنود من التراث الاستشراقي في دراسة الثقافة الهنديّة، وبيانها ضرورة الانتقال إلى مرحلة الاستفادة من مخرجات الاستشراق دون الاكتفاء باتّهامه أو حتّى بشتمه ولعنه بغضّ النظر عمّا إن كان يستحقّ ذلك الاتّهام أم لا.

---

(1) «سامي خشبة»: «"شرور" الاستشراق كيف ننتفع بها؟»، إبداع، العدد8، أغسطس 1991، ص82-86.

مقدّماتٌ في الاستعراب الجديد
نحن والاستشراق: ملاحظاتٌ نحو مواجهةٍ إيجابيّةٍ

بقلم: «عبد النبي اصطيف»[1]

(القسم الأول)

ربما كان أخشى ما يخشاه صاحب هذه السطور من أن يؤدي ظهور كتاب **الاستشراق**[2] للأستاذ الدكتور «إدوارد سعيد» بترجمة[3] الدكتور «كمال أبو ديب» إلى غير ما أريد له من اطلاعٍ للقارئ العربي على هذا الكتاب الهامّ الذي يكاد يكون فريداً في نوعه في معالجة تأثير تراث أو تقليد ثقافي معين هو «الاستشراق» على تكوين ما ينتجه عقل معيّن يمارس فعاليّته ضمن هذه البنية الثقافيّة هو «المستشرق»، وفي تقديم نموذجٍ يحتذى في دراسة العلاقة بين هذا التراث الثقافي برمته كبنية عميقة محدِّدة (بكسر الدال المشددة) وبين ما ينتجه العقل الفردي من إنشاء، أو بعبارة أخرى من بنيةٍ فوقية.

إنّ الاستشراق كتقليدٍ ثقافي - هو فيما يبدو بالنسبة لسعيد - نظامٌ يشبه في تأثيره وقوّته النظام اللغوي (Langue)، وما ينتجه المستشرق من إنشاءٍ يشبه الكلام (Parole) في خضوعه لهذا النظام.

أقول: أخشى ما يخشاه المرء هو أن تؤدّي هذه الخدمة الجليلة (والشيّقة في

(1) أنا مدين بكتابة هذه الدراسة للدكتور «عدنان درويش» (مدير التراث في وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق). فعلى الرغم من أن نواتها تعود إلى جملة ملاحظات سجلتها هنا وهناك خلال السنوات الثلاث الماضية (أي إلى الفترة التي تلت ظهور كتاب الاستشراق في عام 1978)، إلا أنّ الحافز على تدوينها في صورتها هذه إنّما جاء إثر نقاش مطوّل معه عن وضع الدراسات العربية باللغة الإنكليزية، أثناء زيارتي الأخيرة لدمشق في صيف 1981.

(2) انظر: Edward W. Said, *Orientalism*, Routledge & Kegan Paul, London, 1980.

(3) انظر: «إدوارد سعيد»: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، نقله إلى العربية «كمال أبو ديب»، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1981.

حدّ ذاتها كتجربةٍ جريئةٍ في ميدان الترجمة من الإنكليزيّة إلى العربية ينبغي أن تدرس من هذه الوجهة)، التي قام بها الدكتور «أبو ديب» إلى مجرّد تزويد بعض الـمُعادين للاستشراق - وما أكثرهم - بذخيرةٍ حديثةٍ جداً على غاية ما تكون من التطور والفعاليّة في هجومهم على هذا التقليد الثقافي، بدل الإفادة من تضمّنات هذا الكتاب الذي سيكون له تأثيرٌ حاسمٌ على الطريقة التي تُدْرس بها الظواهر الثقافيّة المعاصرة وخاصّة ما اتّصل بقضيّة التأثّر المتبادل بين المعرفة من جانب، والقوة/السلطة من جانبٍ آخر. فالاستشراق هو نموذجٌ متطوّر جداً في التحليل الأيديولوجي القائم على افتراضٍ فحواه أنّ أيّ إنشاءٍ يخبرنا عن مُنتجِه والبنية الثقافية التي يعمل من خلالها أكثر ممّا يخبرنا عن موضوعه الذي يفترض فيه أن يعالجه ويحلّله ويصل إلى نتائج معيّنة تتّصل به.

ولهذا فإنّني سأحاول فيما يلي من سطورٍ أن أقدّم جملةً من الملاحظات التي تتّصل بعلاقتنا نحن العرب - الداخليين (Insiders) - بهذا التقليد الثقافي القوي وبما ينتجه المستشرقون أو الخارجيّون (Outsiders)، لِأَصِلَ إلى ما يبدو له أنّه الطريق الأجدى في التّعامل مع هذا التقليد، أو ما أودّ أن أسمّيه بالمواجهة الإيجابية له.

تنبغي الإشارة بادئ ذي بدءٍ إلى أنّه مهما اختلفت آراؤنا في الاستشراق، فإنّنا لا نستطيع أن ننكر حقيقة كونه تقليداً يتمتّع بعراقةٍ نسبيّةٍ، ويستطيع أن يمارس تأثيراتٍ بعيدة المدى على كلّ من يتّصل به بسببٍ، من خلال كونه مؤسّسةً ثقافيّةً وطيدةَ الأركان. أو بمعنىً آخر، إنّ كون الاستشراق بُنيةً ثقافيةً تتمتّع بقسطٍ معقولٍ من التماسك يجعل من الصعب على من يتحرّك من خلالها أن يهرب من ساحة تأثيراتها السلبيّة أو الإيجابيّة على حدٍّ سواء. فالنصوص التي تشكّل هذا التقليد

مثلها مثل أيّ نصوص توجد في سياقاتٍ معيّنة، وثمّة ما يشبه الإجماع الآن [على][1] أنّ هذه النصوص هي حصيلة تراكماتٍ جمعية، أو هي بعبارة أخرى حصيلة نظامٍ من الاقتباس من أعمالٍ ومؤلّفين[2] سابقين ومعاصرين، وإن لِنَصِّيَّةِ أيّ تقليدٍ ثقافي ضغطاً يمارس من خلاله المساهمون فيه، على اختلافهم، تأثيراتٍ معتبرة تحاول أن تقمع الصوت الفردي لصاحب الإنشاء الجديد. وبالطبع فإنّ ذلك لا يعني إهمال أثر الكتّاب الأفراد في هذا الجسد الجمعي للنّصوص التي تشكّل التقليد، رغم أنّ هذا الأثر يقتصر على فئةٍ قليلةٍ جداً.

إن أيًّ متتبع للاستشراق يستطيع أن يتلمّس أنّ هذا التقليد الثقافي الذي بدأ في منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب استطاع - ومن خلال جملةٍ من التطوّرات التي مرَّ بها - أن يتحوّل إلى مؤسّسةٍ ثقافيّةٍ بالغةِ القوّة لا تستطيع فقط أن تمارس تأثيرها على العاملين في دوائرها، أو من يتّصلون بها من قريبٍ أو بعيدٍ، بل أن تمتدّ بتأثيرها هذا إلى موضوع بحثها - الشرقيين أنفسهم -. ورغم كلّ ما يمكن للمرء أن يجده في هذا التقليد من مثالب وعيوب ونواقص وما يستشفّه في قراءاته له من أهواء ونزعات مغرضة، ورغم كلّ ما يقال عنه من أنّه كان شريكاً للأنظمة السياسيّة في الغرب المستعمر في السيطرة على الشرق والتحكّم بمقدّراته ومصائر أهله وشعوبه، وفي سماحه بتوظيف ما لديه من معرفةٍ لخدمة نزعة السيطرة، وتسويغ استخدام القوّة ضد الآخر الضعيف الذي لا يملكها، فإنّه لا يمكن له إلا أن يعترف -وربما بأسفٍ شديدٍ حقّاً- بأنّ دارس العرب خاصّة والشرق عامّة - سواء أكان من الشرق أم من الغرب - يظلّ يتحرّك ضمن بنيةٍ ثقافيّة خلقها الخارجيّون عن هذا الشرق، ومن منطلق التمحور حول

(1) المحرّر: ورد في الأصل «إلى»، وهو تصحيف، وأثبتنا ما يلزم اعتماده.

(2) انظر: «إدوار سعيد»: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص:56 (ومما تنبغي الإشارة إليه هو أن جميع الإشارات اللاحقة ستكون للترجمة العربية المذكورة أعلاه رغبة في التسهيل على القارئ).

الذات. فقد نجح هؤلاء رغم كلّ شيءٍ في خلق تقليدٍ ثقافيّ متماسكٍ أصبح له تاريخٌ يمتدّ على أكثر من قرنين من الزمان، ويستطيع بالإضافة إلى ذلك لا أن يشكل عقليّة الدارسين الغربيّين من المستشرقين فحسب، بل وعقلية الدارسين الداخليّين من الشرقيّين أنفسهم في أحايين كثيرة، سواءً أدرسوا في الغرب أم لا. وأكثر من هذا فإنّنا كما يقول إدوارد سعيد فإنّنا:

«إذا اتّخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطةً للانطلاق محدّدة تحديداً تقريباً» ... نستطيع أن نناقش الاستشراق ونحلّله «بوصفه المؤسّسة المشتركة للتّعامل مع الشرق -التعامل معه بإصدار تقريرات حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه، وبإيجاز: الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، وإعادة بنائه، وامتلاك السيادة عليه»[1].

وبالطبع فإنّه ليس ثمّة حاجة إلى القول أنّ هذه المؤسّسة ما كان لها أن تقوم، وأنّ هذا التقليد الثقافي ما كان له أن يغدو بهذه الفاعليّة ما لم يقدّم حصيلةً ثقافيّة على قدرٍ معقولٍ من الموضوعية، وعلى حدٍّ أدنى من مقتضيات البحث لم يكد يصلها إلا عددٌ محدودٌ جداً من دراسات الداخليّين ممّن يدّعون الغيرة الشديدة على تراثهم وثقافتهم. بل إنّ هذا التقليد غَدا فرعاً على غايةٍ من التنظيم، استطاعت من خلاله الثقافة الغربيّة «أن تتدبر الشرق -بل حتى أن تنتجه- سياسيّاً واجتماعيّاً، وعسكرياً، وعقائدياً، وعلمياً، وتخيُّلِيّاً في مرحلة ما بعد عصر التنوير[2]». والحقيقة التي تبعث على الأسى حقّاً هو أنّ هذا التقليد لا يكاد يفرّ من تأثيره حتّى الشرقيّون أنفسهم. ودع عنك المستشرقين الذين يؤسّسون في دوائره. وعلى الرغم من أنّ الاستشراق قد بدأ بعمليّةِ نقدٍ داخليّةٍ

(1) «إدوار سعيد»: الاستشراق، ص38-39.

(2) «إدوار سعيد»، نفسه، ص39.

منذ بداية العقد السابع، وأن ثمّة أصوات جديدة متعاطفة مع موضوع الدراسة أخذت تتردّد أصداؤها في رحابه، فإنّ المستشرق الذي يبدأ بدراسة الشرق ومن خلال جملة المكوّنات الثقافيّة التي تحكم إنتاجه في النهاية - كالقوالب الثقافيّة الجاهزة التي تراكمت من خلال أجهزة الإعلام، والتي يعتبر عالم ألف ليلة وليلة والحروب الصليبية وسواها من موادها الأساسية، ومن خلال التغطية الإعلامية للشؤون الشرقيّة، وخاصّة ما اتّصل منها بحياته اليومية؛ وبعد ذلك من خلال الكتب التي يقرؤها في دراسته الجامعيّة الأولى، ومن خلال المراجع المختلفة التي كُتبت بمختلف اللغات الأوروبية والتي أنتجها الأوروبيّون الخارجيّون الآخرون؛ وأخيراً من خلال التفاعل بين هذا الجانب الأكاديمي من هذا التقليد والجانب الإعلامي منه - يتقولب بفعل هذا التقليد الثقافي. ورغم محاولته دائماً البحث عن صوته الخاصّ به، ورغم محاولته أن يكسر هذه الدائرة المغناطيسيّة التي تحدّد حركته وتقيّده، فإنّه يظلّ أسير هذا النمط من النظام الفكري الذي يقوم عليه الاستشراق، هذا التراث النقابي/المهني كما يسميه «إدوارد سعيد»، إنّه بمعنى آخر يغدو منتَجاً - بفتح التاء - ثقافياً له.

والغريب أنّ الاستشراق، رغم إخفاقاته التي تحدّث عنها «أنور عبد الملك»[1]، و«عبد اللطيف الطيباوي»[2]، و«إدوارد سعيد» وآخرون[3]، «ورغم

(1) Anouar Abdel-Malek, *Orientalism in Crisis, In his Social Dialectics, Vol.1 Civilization & Social Theory*, State University of New York, 1981, pp.73-96.

(2) A. L. Tibawi, *English Speaking Orientalists*, London,1964.

«Second Critique of english speaking orientalists and their approach to Islam and the Arabs», The Islamic Qurterly Vol.XXIII, no.I, 1979.

«On the Orientalists Again», The Muslim World. Vol. LXX, no.I, January 1980, pp.56-61.

(3) د. «عزيز العظمة»، «إفصاح الاستشراق» في: المستقبل العربي (بيروت)، العدد22، تشرين الأول/ أكتوبر 1981، ص43-62.

وانظر أيضا كتابه: A. Al-Azmeh, Ibn Khaldun in Modern Scholarship; A Study in Orientalism, Third World Centre for Research and publishing, London, 1981.

مصطلحه المعاظل الذي يثير الشفقة، وعرقيّته التي لا تكاد تحجب، وجهازه الفكري الرقيق رقة الورقة، يزدهر اليوم»[1] ازدهاراً لا يمكن للمرء أن يغضي طرفه عنه. ولكنْ من المثير للقلق حقاً هو أنّ تأثيره قد انتشر إلى الشرق نفسه، «فصفحات الكتب والمجلات باللغة العربية.... تمتلئ بتحليلاتٍ من الدرجة الثانية لـ«العقل العربي» والإسلام وأساطير أخرى، يقوم بها كتّاب عرب»[2]. ورغم أنّ المرء لا يمكن أن يأخذ - وعلى النحو نفسه من التطرف - برأي «إدوارد سعيد» في تغلغل هذا التأثير عندما يقول: «إن الوطن العربي اليوم كوكبٌ تابعٌ فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة، وليس هذا في ذاته بشيءٍ يدعو إلى الرثاء، غير أنّ الشكل المحدّد بعلاقته الكوكبيّة نفسه يدعو إلى ذلك»، إلا أنّه من الجهة الأخرى لا يسعه إلا أنْ يعترف بأنّ رأي «سعيد» فيما يتعلّق بظروف إنتاج الثقافة العربيّة المعاصرة صحيحٌ في مجمله ويا للأسف. يقول سعيد:

> «خذ بعين الاعتبار أولاً أنّ الجامعات العربية في الوطن العربي تدار بشكلٍ عام تبعاً لنسقٍ ما موروثٍ عن، أو مفروضٍ مباشرة من قبل، قوّةٍ مستعمِرةٍ سابقةٍ. وتجعل الظروف الجديدة واقعيّات المنهج الدراسي قبيحةً حتّى الرعب تقريباً: صفوف يحتشد فيها مئات الطلبة، جهاز تدريسٍ مدرّبٌ تدريباً سيّئاً، ومرهقٌ بالعمل، ويتلقّى رواتب سيّئة، تعيينات سياسيّة، الغياب المطلق للأبحاث المتقدّمة ولوسائل البحث العلمي، وأهمّ من ذلك، الافتقار إلى مكتبةٍ واحدةٍ لائقةٍ في المنطقة بأسرها»[3].

والحقيقة أنّ هذا الوضع المزري لظروف الإنتاج الثقافي، وسائله وعلاقاته

---

(1) «إدوار سعيد»: الاستشراق، ص219.

(2) «إدوار سعيد»: الاستشراق، ص219.

(3) «إدوار سعيد»: الاستشراق، ص219.

وعناصره، في المؤسّسات الثقافيّة العربيّة - وخاصّة الجامعات منها، والتي يفترض منها أن تكون حضن القيم الثقافيّة في الوطن العربي - يقود بشكلٍ أو بآخر إلى شيئين: أولهما طُفيليّة المثقّف العربي، وثانيهما موقفه المتكافئ الضدّين من هذا التقليد الثقافي المعني بمنطقته وتاريخه وثقافته وأدبه وحضارته. وحتّى لا يكون هذان الحُكمان دون أساسٍ فإنّي سوف أتوقف عند كلّ منهما وأناقشه بشيءٍ من الإجمال.

الاستشراق وتطفّل المثقف العربي

ربّما كان من غير المبالغة القول إنّ الدارسين العرب المحدثين - إن لم تقل العرب جميعهم - كانوا وما زالوا (وربّما سيتابعون ذلك إن لم يستطيعوا تغيير الظروف الموضوعيّة للإنتاج الثقافي في مجتمعهم) عالةً على الغرب، ليس في مجال التقنية والعلوم النظريّة والتطبيقيّة أو في ميادين الفلسفة والعلوم الإنسانيّة وحدها، وإنّما في ميادين الدراسات المتعلّقة بتاريخهم وأدبهم وثقافتهم وحضارتهم بشكلٍ عام. فنحن نستورد هذه الدراسات المكتوبة بالإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الروسية أو الإيطالية أو الإسبانية أو غيرها من اللغات مثلما نستورد كتب الطبّ والهندسة والفيزياء والرياضيّات وغيرها، وأنا بالطبع أعنيها وأعني حصيلتها معاً هنا، وبالطريقة التي نستورد فيها الطائرة والسيارة والآلة الحاسبة والمدفع والدبابة والحاسب الآلي وغير ذلك. إنّ الوطن العربي يبقى كما يقول «سعيد»: قوة من الدرجة الثانية أو الثالثة على صعيد إنتاج الثقافة والمعرفة والبحث المتعلّق بأقرب الشؤون التي تتّصل بهويّته، أي ثقافته وتراثه وأدبه وتاريخه. ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّه ليس ثمّة من باحثٍ عربي أو إسلامي - جديرٍ بلقب باحث - يستطيع المخاطرة بتجاهل ما يحدث في المجلّات البحثيّة والمعاهد والجامعات في الولايات المتّحدة وأوروبا؛ غير أنّ العكس ليس بصحيح. فليس «ثمّة من مؤسّسة تعليميّة عربيّة واحدة قادرة على مضاهاة

أماكن مثل أوكسفورد وهارفرد وجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس في دراسة الوطن العربي، ودع عنك أي موضوع غير شرقي»[1]. لأنّ العرب فيما يتّصل بهذا الأخير - وأنا هنا أتحدّث عن العرب المحدَثين - لم يُسهموا إلّا بقسطٍ لا يكاد يذكر في دراسة حضارات الآخرين وثقافاتهم؛ بل ربّما شعر البعض أنّ الحديث عن مساهمةٍ كهذه للعرب في العصر الحديث شيءٌ من العبث، لأنّ المقصّر بحقّ نفسه لا يمكن أنْ يُلام إذا ما قصَّر بحقّ الآخرين. ولكن رغم ذلك تبقى النقطة قابلةً للإثارة. صحيحٌ أنْ ثمّة أسماء معيّنة قد ساهمت -من خلال كتاباتٍ جادّة وقيّمة عن الثقافات الأخرى - بقسطٍ لا يمكن إنكاره، إلا أنّ من الإنصاف أنْ نشير إلى جملة حقائق في هذا السياق:

1 ـ إنّ هذه الإسهامات محدودة جداً، ولا يمكن مقارنتها في أي وجه بإسهامات الخارجيين في دراسة ثقافة الشرق، وربّما كان من أهمّ ما يميّزها، فيما يتّصل بموضوع هذه الدراسة، كونها تخلو إلى حدٍّ كبيرٍ من أيّة نزعةٍ عنصريّة أو أيديولوجيّة تتّصل بهذا الفرق الوجودي بين الشرق والغرب (والذي يكمن وراء أغلب الآراء الاستشراقية المغرضة). ويستطيع المرء أن يشير في هذا الموضع إلى أسماءٍ كـ«محمد مصطفى بدوي»[2]، و«إيهاب حسن»[3]، و«إدوارد سعيد»[4]،

(1) «إدوار سعيد»: الاستشراق، ص220.

(2) M.M. Badawi, Coleridge : *Critic of Shakespeare*, Cambridge University Press, 1973,
Background to Shakespeare, Macmillan, London 1981.

(3) Ihab Hassan, *Radical Innocence; Studies in the Contemporary American novel*, Princeton University press, 1961.
The Dismemberment of Orpheus: Towards a postmodern Literature, Oxford University press, 1971.
Paracriticism: Seven Speculations of the Times, Urbana, University of Illinois Press, 1975.
وغيرها بالفرنسية أيضاً.

(4) Edward W Said, *Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography*, Harvard University press 1966.
Beginnings: Intention and Method, Johns Hopkins University press, 1978.
Literature and Society, Johns Hopkins University press 1980.
Criticism between Culture and System, Harvard University press, Forthcoming.
إضافةً إلى عددٍ كبيرٍ من المقالات.

و«عادل سلامة»[1]، و«سمر عطار»[2]، وآخرين. وهذا يقودنا إلى الحقيقة الثانية، وهي:

2 ـ أنّها نتاجٌ غربيّ مائة بالمائة؛ لأنّها حصيلة ممارسةٍ وتدريبٍ ونشاطٍ تمّ في الغرب، ولأنّها كتبت بلغةٍ أجنبيّةٍ. والحقيقة أنّه إذا ما تمّ تغيير أسماءِ مؤلفي هذه الكتب ووضع أسماءٍ أجنبية مكانها، فإنّ المرء لا يمكن أن يدرك أنّها كتبت من قبل باحثين عرب، لأنّها حصيلةٌ ثقافيّةٌ أجنبيّة.

3 ـ أمّا فيما يتعلّق بتلك المؤلّفات التي كتبت باللغة العربيّة فهي متفاوتةٌ في حديثها وقيمتها وتوثيقها، إلاّ أنّها يمكن أن تندرج تحت الفئات التالية:

أ- مؤلّفات تمّت عن طريق معرفةٍ واسعةٍ ومتعمّقةٍ وواثقةٍ واحتكاكٍ مباشرين بالثقافات الأخرى، وهذه قليلةٌ ومحدودةٌ جدّاً، وانتشارها يقتصر على فئةٍ محدودةٍ من الطلبة والدارسين.

ب- مؤلّفات تمّت عن طريق معرفةٍ واحتكاكٍ غير مباشرين، ويغلب عليها السطحيّة والتردّد أحياناً وشيءٍ غير يسيرٍ من الانتحال أحياناً أخرى.

جـ- مؤلّفات تعتمد على الترجمة وهي في مجملها تتخبّط في مسخها ونسخها عمّا تنقل عنه، إضافةً إلى مساهمتها الغريبَة حقّاً في نشر الكثير من سوء الفهم فيما يتعلّق بهذه الثقافات.

ومن الغريب أنّنا بعد هذا التقصير في حقّ ثقافة الآخرين - (والذي ربّما اغتفره البعض)، وفي حق ثقافتنا (والذي لا أظنّ أنّ أحداً يمكن أنْ يغفره لنا) - لا نرضى وفي كثيرٍ من الأحايين عمّا تنتجه المؤسّسات الثقافية الخارجيّة من

(1) للدكتور «عادل سلامة» كتاب عن «قصائد شيلي الطويلة» نشر في سلسلة «دراسات سالزبورغ في الأدب الإنكليزي»، لم يكن قريب التناول عند كتابة هذه المقالة.

(2) Samar Attar, *The Intruder in Modern Drama*, Peter Lang, Frankfurt, West Germany, 1981.

آراءٍ ونظريّات وننعتها باستمرارٍ بأنّها متعسّفةٌ مغرضةٌ وغير موضوعيّة ومتحيّزةٌ وعنصريّةٌ وغيرُ مستقصيةٍ أو غيرُ شاملةٍ أو سواها من الصفات، دون أنْ نستطيع أنْ نقدّم البديلَ عنها. وإذا ما كان عجزنا عن إنتاج سيّارة أو طائرة أو دبّابة أو حاسب آلي مسوّغ بسبب طبيعة الظروف التي مرّت بها الأمّة العربيّة خلال القرون الماضية، فإنّه من غير المسوّغ على الإطلاق أن نظلّ عاجزين عن تقديم دراساتٍ جادّة وموثّقة ورصينة عن أدبنا وثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا يمكن أن تنهض للمقارنة مع ما ينتجه الآخرون من أشياء تتعلّق بنا، ونحن أولى بها منهم، والأغرب من هذا أنّنا نتأثر بشكلٍ أو بآخر بحصيلةِ ما تقدّمه هذه المؤسسة الثقافية الخارجية.

فنحن نباشر دراستنا من خلال مناهج وطرائق ومداخل ابتكرها الغربيون في دراستهم لثقافتنا وحضارتنا وأدبنا وتاريخنا، وليس ثمّة من حاجة إلى الإشارة إلى أنّ هذه المناهج والطرائق والمداخل متخلفة بالقياس إلى نظائرها المستخدمة في المعارف الأخرى. والسبب في ذلك عائد لوظيفة الاستشراق في المجتمع الغربي، وللأعباء الكثيرة التي حمَلَها المستشرقون - تلك الأعباء التي كان من الصعب عليهم أنْ ينهضوا بها وهم على ما هم عليه من التأهيل الذي يقتصر في كثير من الأحيان على اللغة وفقهها فقط. يقول «ألبرت حوراني»:

«ولمّا كان المستشرقون من الجيل القديم الباحثين الوحيدين المهتمّين بحقّ بالعالم الإسلامي، والذين يملكون مفتاحاً أساسيّاً لكشف أسراره - وهو معرفة لغاته - فإنّهم كانوا يُدْعَون للقيام بأشياءَ عديدةٍ دون أن يكونوا مستعدّين تمام الاستعداد للقيام بها جميعاً: أن يعلّموا اللغات، ويتذوّقوا الأدب، ويُدرّسوا التاريخ، ويشرحوا النظم الدينيّة والقضائيّة، بل أن يشيروا على الحكومات ويُوَعُّوا الرأي العام حول القضايا السياسيّة، لقد كتب أعظمهم وعلّم في حقل واسعٍ سعةً

عجيبةً وأظهر سعةً ومعرفةً وفهماً لا يستطيع أنْ يطمح إلى بلوغهما إلّا القليل من الباحثين المحدثين، ولكنّهم قاموا بكل هذا بثمن»[1].

وما ذلك إلّا لأنّ عدتهم الوحيدة كانت معرفة اللغة فقط (وشيء عن الإسلام وتاريخه)، وهل هذه تكفي لسبر أغوار ثقافة الشرق أو في ارتياد آفاقها الرحبة الواسعة. وهكذا فإنّ معظمهم كان على اطّلاعٍ كافٍ عندما يتعلّق الأمر بفقه اللغة أو الدراسات الدينيّة، ودون ذلك اطلاعاً عندما يتعلّق الأمر بالأدب الصرف - بل إنّهم في رأي «سعيد» لم يدرسوا الأدب؛ لأنّهم لم يكونوا ليتقنوا اللغة[2] - وربما أقلّ من ذلك في التاريخ والعلوم الاجتماعية. ونأتي بعد ذلك لنتّخذ ممّا يقولون حجّة نوثّق بها كتاباتنا، ولنقلّدهم فيما ننتجه عن هذا الأدب وذاك التاريخ وتلك الثقافة رغم اعترافهم هم بقصوره منهجيّاً عن مضارعة ما ينتجه معاصروهم في ضروب المعارف الإنسانية الأخرى.

وهكذا فإنّ أكثر ما تنتجه مؤسّسات الثقافة العربية هو نسخةٌ ممسوخةٌ ومنسوخةٌ وربّما من الدرجة الثانية أو الثالثة مما ينتجه الآخرون، وما ذلك إلّا لأنّنا لم نستطع خلق تقليدٍ ثقافيّ متينٍ ومتماسكٍ في دراستنا لثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا، تقليدٌ يكون في جانبٍ منه تطويراً للتقاليد العربيّة الكلاسيكيّة من جهة، واستجابةً لما جدّ من مناهج ومداخل ونظم معرفيّة من جهةٍ أخرى، تقليدٌ يضارع هذا التقليد الثقافي المتماسك والقوي والفعّال الذي نسمّيه بالاستشراق.

موقف متكافئ الضدين تجاه الاستشراق

لا أظنّ أنّ ثمّة من يماري في أنّ المثقّف العربي كعاملٍ من عوامل الإنتاج أو

(1) Albert Hourani: *Europe and the Middle East*, Macmillan & St. Antony's College Series, 1980, p.180.

(2) انظر مقابلة مجلة دياكريتيكيس معه: Interview/Edward Said in: *Diacritics*, Fall, 1967, p.47.

الاستهلاك الثقافي في الوطن العربي، يقف موقفاً متكافئ الضدّين في تعامله مع هذا التقليد الثقافي المدعوّ بالاستشراق. فهو من جهةٍ يعرف - أو ربّما لا يعرف - أنّ هذا التقليد يشكّل بُنيةً ثقافيّةً شديدة الوطأة في تأثيرها عليه، ومن الصعب عليه تجاهلها أو الخروج منها دون إرادةٍ قويّة، وهيهات أن يتم ذلك دونَ خلقِ بُنيةٍ ثقافيّة مكافئةٍ في القوّة والمستوى تكون بديلاً عنها. وهو يشعر إضافةً إلى ذلك أنّها بعيدةٌ عن أن تقارب واقعه الذي يعيشُه وتظلّ تختلط فيها بقايا سياسيّة وأيديولوجية مغرضة، إلاّ أنّه من جهةٍ أخرى يعرف أنّه لا يملكُ إنتاج البديل الذي يتيح له أنْ يستغني عنها بسبب طبيعة ظروفه المحيطة، والتي سبق أن أشرت إليها. لذلك نجد أنّ كثيراً من المثقّفين العرب يتخبّطون في طريقة تعاملهم مع هذا التقليد، فهم يرفضونه لما فيه، رغم أنّهم في إنتاجهم الثقافي يتأثّرون بشكلٍ أو بآخر بهذا التقليد، سواء أكانوا على وعيٍ بهذا أم لم يكونوا. ويكفي أن يشير المرء إلى بعض مظاهر هذا التأثر:

1 ـ هنالك أوّلاً أولئك الذين يدرسون في الغرب، وهؤلاء يخضعون لما يخضع له أيّ دارس يتحرّك ضمن البنية الثقافيّة الغربيّة، ويتأثّرون بنحوٍ أو بآخر بالبُنى الثقافيّة الغربيّة. وبالطبع فإنّ هؤلاء (إذا ما شاء المرء أن يؤكّد على النواحي الإيجابيّة في مشروعهم) يبقون في موقعٍ متميّز - على أيّ حالٍ - لأنّهم يبقون على اطلاعٍ مباشرٍ ليس على هذا التقليد فقط بل وعلى ظروف خلقه ومعطياتِ إنتاجه، وعلى النقد الداخلي الذي يمارَس في داخله أيضاً. وهذه المعرفة المباشرة يمكن لها أنْ توظّف توظيفاً إيجابياً سأشير إليه بتفصيلٍ أكبر فيما بعد. وربّما كان من الضروري هنا أنْ نشير إلى خطرِ تبنّي آراءٍ كآراءِ «إدوارد سعيد» في هذه الفئة (عندما يدعو أصحابها بالـمُخْبرين الأصليين[1])؛ لأنّها تعني بشكلٍ أو بآخر سلبَ هؤلاء من حِسّ انتمائهم دونما سببٍ موضوعيّ

(1) «إدوارد سعيد»: الاستشراق، ص220.

مسوّغٍ من ناحية، ولأنّها من ناحيةٍ أخرى تعني التخلّي عن عاملٍ هامّ في تحويل مجرى الاستشراق، هو بالقوّة في صالح المواجهة الإيجابية لتقليد الاستشراق، ويمكن إذا ما أحسن استخدامه أن يساهم مساهمةً لها شأنها في خلق مستوياتٍ جديدةٍ داخل هذا التقليد تخلخل القيم السائدة فيه وتستطيع في النهاية أن تُدخِلَ قيماً وآراءً ورؤىً داخليّةً نافذةً يصعب معها للمستشرق أنْ يتمسّك بهذا التقليد، لأنّه لن يستطيع مقاومة رياح التغيير الداخليّة.

2 ـ هنالك ثانياً هؤلاء الذين أتيح لهم أنْ يطّلعوا على نحوٍ غير مباشرٍ على هذا التقليد وتعرّضوا لتأثيره. وهؤلاء - سواء في تحقيقهم لكتب التراث القديم وإعدادها للنّشر أو في دراستهم لضروب الثقافة العربية الكلاسيكية والحديثة والمعاصرة، أو في كتاباتهم عن التاريخ العربي أو المجتمع الغربي أو السياسة أو الفلسفة وما إلى ذلك - يحاكون المستشرقين ربّما في كلّ خطوةٍ يخطونها. فلست أظنّ أنّ طرق تحقيقنا لتراثنا هي تطويرٌ للطرق التي استخدمها العرب القدماء في تدوينه وتوثيقه وحفظه ونقله؛ ولست أظنّ أنّ دراستنا للأدب العربي في عصوره المختلفة أو في دراستنا لبيئاته أو مذاهبه تفيد الفائدة التي يفترضها المرء من طرق دراستنا الكلاسيكية لهذا الأمر بعد تطويرها التطوير المناسب؛ ولست أظنّ أنّ مناهج البحث التاريخي والاجتماعي والسياسي وغيرها مأخوذةٌ عن أسلافنا القدماء مثلما هي مأخوذةٌ - وإلى حدٍّ كبيرٍ - عن الغرب. وبمعنىً آخر، إنّنا في دراستنا الإنسانية المعاصرة نتابع التقليد الغربي تقريباً، وإنّنا إلى حدٍّ بعيدٍ ننظر إلى تراثنا وثقافتنا وأدبنا بعيونٍ غربيّةٍ، مصدرها تكويننا الثقافي الذي تنعدم فيه المشاركة العربيّة الفعّالة التي تستند إلى تقليدٍ يكون استمراراً لما ساهم فيه أسلافنا العرب.

3 ـ وهنالك أخيراً هذه الفئة الثالثة التي ترفض الاستشراق رفضاً كاملاً، ولا تدع أيّ فرصةٍ تفوتها دون أن تحاول النيلَ من هذا التقليد أو تفنيدَ ما ينتجه

من آراء. وهي ترى فيه على وجه الإجمال تقليداً مُغرضاً ما فتئ منذ بداياته الأولى المرتبطة بالعهود الاستعمارية يحاول الانتقاص من ثقافة الشرق وأدبه وحضارته، ويسعى جهدَه لتشويه تاريخه وإعطائه شتّى التفسيرات البعيدة عن مدارك الشرقيين وآفاق تخيلاتهم.

والمفارقة في موقف هذه الفئة تتبدّى في أنّها في محاولتها نقد الاستشراق وتفكيك بناه تلجأ إلى الأطر الثقافيّة نفسها، وتنتهي إلى تبنّي منطقه واعتقاداته وافتراضاته ومسلّماته وأنظاره. وإذا ما شاء المرء أن يُدلّل على هذا فحسبه أن يشير مثلاً إلى أنّ الكثير من الباحثين العرب شُغِلَ إلى وقت طويلٍ بتفنيد جوانبَ من التراث الاستشراقي المتّصل بفلسطين، وهو بالتحديد الجانب المعني بتسويغ الحقّ التاريخي للصهاينة في الاستيطان في هذه الأرض العربية، وهم في محاولتهم هذه تبنّوا المنطق نفسه، والأطر النظريّة نفسها التي استخدمها المنظّرون الصهاينة في تسويغ ما يرتكبونه من اضطهادٍ وظلمٍ ضدّ العرب من سكّان فلسطين المحتلّة. وكذلك فإنّ الكثيرين من أفراد هذه الفئة وجدوا أنفسهم في معرض الردّ على الاتّهامات التي يلصقها بعض المستشرقين بالعرق السامي، والتي تنبع من الاعتقاد بتفوّق العرق الآري - يلجؤون إلى المنطق نفسه، ويحاولون أن يثبتوا أنّ العكس هو الصحيح وأن العرق السامي عرقٌ متفوّق، وأنّ الشرق الذي يسكنه هؤلاء الساميّون هو مهد الديانات السماوية وموطن الأمن والسكينة الروحيّين ومنبع الحضارات الكبرى في تاريخ الإنسانية وما إلى ذلك من بياناتٍ تعتمد أساساً على الإطار النظريّ نفسه الذي يستخدمه المستشرقون. وهكذا فإنّهم يقعون في الشرك نفسه الذي أرادوا أن يُخرجوا الآخرين منه، لأنّهم ينطلقون من المسلّمات نفسها التي ينطلق منها الآخرون، وبالتالي فإنّهم وعلى نحوٍ سلبيٍّ يثبتون صحّة هذه المسلّمات عن غير وعيٍ منهم. وهناك أمر آخر، وهو أنّه نتيجة الموقف الرافض الذي تتّخذه هذه الفئات

من الاستشراق جملةً وتفصيلاً، تغضي طرفها عن كثيرٍ من الإنجازات الإيجابيّة فيه؛ وهي لذلك تحرم نفسها دونما سببٍ من الإفادة ممّا يمكن - لو مُحِّصَ - أن يكشفَ عن سمينٍ فيه. فالاستشراق - كما لا يستطيع أنْ يُنكرَ ذلك أيّ باحث منصفٍ - فيه الغثّ والسمينُ. ورغم أنّه يوجد فيه الكثيرُ من الأساطيرِ والأوهام، إلا أنّه يستند إلى شيءٍ ما، استطاع أن يحفظ عليه وجودَه حتّى يومنا هذا. ويكفي أنْ يشير المرءُ هنا إلى أنّ التسهيلات المتاحة للباحث الغربي، والتي تتراوح بين المكتبة المستوعبة للكتب والدوريات والنشرات والوثائق والأوراق الخاصّة والمخطوطات، وبين الحاسب الآلي مروراً بخدمات رجال سلك الأمن وأجهزته المختلفة ومعلوماتهم - المصنّفة - والتي تقدّم له على أساس المنفعة المتبادلة، إضافةً إلى الأموال الطائلة التي ترصدها المؤسّسات الثقافيّة ومعاهد البحث والدراسة والخدمات، أو التي توقفها عليه المؤسّسات الاقتصاديّة والتجاريّة المهتمّة بالمنطقة، ودع عنك بعد ذلك الظروف المعيشيّة للباحثين أنفسهم والتي لا تكاد تفكّر فيها المؤسسات الثقافية أو التعليمية أو التربوية العربية. إنّ الثقافة إنتاجٌ في مجملها، وليست إبداعاً مطلقاً، وما لم يتمّ توفير وسائل هذا الإنتاج وتنظيم علاقاته، وتعبئة موارده من أجل دفع الحصيلة النهائيّة كمّاً وكيفاً، فإنّه لا سبيل إلى تعليق آمالٍ كبيرةٍ على مستقبلها. ولذلك فإنّ القائمين على أسباب إنتاج الثقافة العربيّة ينبغي أن ينتبهوا إلى ضرورة القيام بشيءٍ ما، من أجل تغيير ظروف هذا الإنتاج، حتى يكفلوا إنتاجاً ثقافياً يمكن أن يعتبر إسهاماً عربيّاً من ناحيةٍ، وأن ينتمي إلى العصر الذي نعيش فيه من ناحيةٍ أخرى.

أعود فأقول: إنّ حصيلة هذه التسهيلات الخارجيّة (التي تُمنح للمستشرق)، والمتمثّلة بما يكتبه المستشرقون، لا بدّ وأن تكون على حدٍّ أدنى من الجدّية

والرصانة، وبل والاطّراد والاتّساق الداخليّين[1]. ولربما كان من المفيد هنا أنْ نشير إلى رأي أكثر نقّاد الاستشراق فاعليّةً وأهمّيةً في تماسك هذا التقليد، وما يتمتّع به من قوّة داخليّة، يقول «إدوارد سعيد»:

«ينبغي على المرء ألا يفترض أبداً أنّ بُنية الاستشراق ليست سوى بنية من الأكاذيب أو الأساطير التي ستذهب أدراج الرياح إذا كان للحقيقة المتعلّقة بها أن تجلى. وأنا نفسي أؤمن بأنّ الاستشراق أكثر قيمةً بشكلٍ خاصّ كعلامةٍ على القوّة الأوروبيّة-الأطلسية بإزاء الشرق منه كإنشاءٍ حقيقيّ عن الشرق (وهو ما يدعى الاستشراق، كونه في شكله الجامعي أو البحثي). على أيّ حال، إنّ ما علينا أن نحترمه ونحاول أن ندركه هو القوّة المتلاحمة للإنشاء الاستشراقي، وعلاقاته الوثيقة بالمؤسّسات الاجتماعيّة والسياسيّة المعزّزة، وقدرته المهيبة على البقاء. فأيّ نظامٍ من الأفكار قادرٌ، بعد كلّ حسابٍ، على أن يبقى دون تغييرٍ كحكمةٍ قابلة للتدريس (في المجامع والكتب والمؤتمرات والجامعات ومعاهد السلك الخارجي) من زمن إرنست رينان في أواخر 1840 (1ث) إلى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة، لا بدّ أن يكون شيئاً أكثر صلابةً ومتانةً من مجرّد مجموعةٍ من الأكاذيب»[2].

ويكتب في موضعٍ آخر:

«إنّ لتاريخ الاستشراق - في آنٍ واحدٍ - اتّساقاً داخليّاً وجملةً من العلاقات، على درجةٍ عاليةٍ من الفصاحة والوضوح، مع الثقافة المسيطرة المحيطة به»[3].

---

(1) «إدوارد سعيد»: الاستشراق، ص41.

(2) «إدوارد سعيد»: الاستشراق، ص41.

(3) «إدوارد سعيد»: الاستشراق، ص55.

وبالطبع، فإنّ الحديث عن تماسك الاستشراق وقوّته الداخليّة واتّساقه لا يعني بحالٍ من الأحوال إنكار وجود أبعادٍ أيديولوجيّة وسياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة لهذه الحصيلة. فالمعرفة المتعلّقة بالمجتمع الإنساني هي معرفةٌ تاريخيّةٌ ومحكومةٌ بالضرورة بظروفِ إنتاجها، وهي لذلك قائمةٌ على المحاكمة والتفسير. ولا يعني هذا أنّ الحقائق والمعطيات غير موجودةٍ، ولكنّه يعني أنّ الحقائق تستحوذ على أهمّيّتها ممّا يصنع بها في التفسير[1]. إلاّ أنّه من الأهميّة بمكانٍ أن يكون العرب المعاصرون على وعيٍ بوجود هذه الحصيلة الثقافية ويفيدوا منها. وليس ثمّة من حاجةٍ إلى أنْ يؤكّد المرء من جديدٍ على أنّ هذا الموقف السلبي الرافض الذي تتّخذه هذه الفئة الثالثة من هذا التقليد يحرمُها - دونما مسوّغٍ معقولٍ - من فرصة الاحتكاك به، وبالتالي الإفادة منه: هذه الإفادة الموجودةُ بالقوّة فيه بالتأكيد.

على ضوء ما تقدّم عن واقع العلاقة بين الاستشراق كتقليدٍ ثقافيّ وبين العرب، هذه العلاقة المحكومة بالثنائيّة والتي تمّت مناقشتها فيما سبق من سطورٍ، كيف يمكن لنا نحن العرب - الداخليين - أنْ نتعامل مع هذا التقليد؟ وما هي الخيارات المتاحة أمامنا؟ وكيف السبيل إلى مواجهتِه مواجهةً إيجابيّة؟ هذا ما آملُ أن أتحدّث عنه في القسم الثاني من هذه المقالة.

«عبد النبي اصطيف»
كليّة سانت أنتوني - جامعة أكسفورد
كانون الأول/ 1981

(1) انظر:
Edward W. Said, *Covering Islam: How the Media and the Experis Determine, how we See the Rest of the World*, pantheon Books, New York, 1981, p.154.

نحن والاستشراق:
ملاحظات نحو مواجهة إيجابية

بقلم «عبد النبي اصطيف»

(القسم الثاني)

ثلاثة خيارات

كيف يمكننا نحن العرب، في ضوء ما تقدم عن واقع العلاقة بين الاستشراق والعرب - هذه العلاقة المحكومة بالثنائية وتكافؤ الضدين - أن نتعامل كداخليين (Insiders) مع هذا التقليد الثقافي العريق، وما **الخيارات** المتاحة أمامنا؟

يبدو لي - وبغرض تبسيط الأمور - أنّنا أمام خيارات ثلاثة:

أولها: أن نرفض هذا التقليد جملةً وتفصيلاً ونوفّر على أنفسنا حتّى عناء مناقشته.

وثانيها: أن نقبله دون تحفّظ وأن نُغضي طرفنا عما فيه من تضمّنات أيديولوجية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية.

وثالثها: أن نتعامل معه تعاملاً نقدياً، وأن نأخذ ونرفض على هدي البصيرة النقديّة، والتفحص المتمعّن أو قل: أنْ نواجهه مواجهةً إيجابية.

الخيار الأول، أو الرفض المطلق

يبدو لي أنّ هذا الخيار هو أسهل الخيارات فهو يريحنا من الكثير من العناء. وهكذا نجد أنفسنا أنّنا لسنا بحاجة إلى تتبع ما يصدر عنه من حصيلة ثقافيّة. وعلى أي حال «فالاستشراق - كما يقول الدكتور «حسام الخطيب» - هو علم أوروبي، أي أنه كتب باللغات الأوروبية من أجل الأوروبيين، إنّه صورة ما توصلت إليه أوروبا في معرفة الشرق. وهو يعكس موقفاً أوروبياً وعقلية

أوروبية»[1]. ولذلك، فإنه -وإن كنا موضوعه- لا يعنينا في شيء، ولا يضيرنا إن تجاهلناه. وقد يقول قائل: لم نضيع الوقت والمال والجهد والطاقة في سبيل ما لا جدوى منه ولا عائد؟ وماذا يفيدنا أن نتتبع أخبار الاستشراق، أو أن نترجم كتبه، ونناقش ما فيها، وننقدها، ونفند ما نراه غير صحيح مما تضمه من آراء، ونغضب فيما لا طائل منه؟ هل كان الاستشراق غير نتاج خارجي، كتبه خارجيون، لا يكاد معظمهم يحسن اللغة التي نتكلم بها؟ فكيف بهم عندما يناقشون ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وتاريخنا وثقافتنا وأدبنا واقتصادنا وسياستنا؟ إنهم بالتأكيد لن يصلوا إلى حقيقة ذات قيمة تصل بنا، وبالتالي فلا ضير علينا إن أغضينا طرفنا عما يعملون.

وإضافةً إلى ما قدّمت من عقابيل تبنّي خيارٍ كسولٍ كهذا عندما تحدثت عن موقف الفئة الثالثة من المثقفين العرب من الاستشراق، أجدني مضطراً إلى الإشارة إلى أنّ نظرة الآخرين لنا وتعاملهم معنا، ونظرهم في أمورنا ومناصرتهم - أو معاداتهم - لقضايانا المصيرية وما إلى ذلك من أمور، هي متّصلة وعلى نحوٍ وثيقٍ بهذا التقليد ومتأثّرة به سواء أسَرَّنا ذلك أم أغضبنا، قبلناه أم رفضناه.

وحتّى أقنع أصحاب هذا الخيار الكسول، فإنني أشير إلى ظاهرة تلمّستها بنفسي وبوضوح خلال إقامتي في الغرب وتعاملي مع الدراسات العربية المكتوبة بالإنكليزية، ظاهرة تحدّثت عنها في غير هذا الموضع، وأجدني بحاجة إلى الإشارة إليها مجدداً في هذا السياق. فقد لاحظت أنّ ثمة اهتماماً متزايداً بالأدب العربي الحديث ضمن أوساط المثقّفين الأجانب عامّة، وضمن دوائر الدراسات العربية على نحو خاصّ. ولاحظت كذلك أنّ كثيراً من باحثي الأدب المقارن بدأ يلتفت إلى هذا الأدب ويدرس علاقاته بالآداب الأخرى،

(1) د. «حسام الخطيب»: «الاستشراق في ثوبٍ جديد»، البعث (دمشق)، العدد 5522، 1981/2/1.

ويقارن ألوان التجارب الإنسانيّة التي يقدّمها أدبنا مع غيره من الآداب الأخرى. وبالطبع فإنّ كثيراً من هؤلاء لا يحسنون اللغة العربية، وهم (وإن أحسنها بعضهم) أميل إلى التسهيل على أنفسهم، ومن ثمّ تراهم يلجؤون إلى ترجمات هذا الأدب أو النظر في دراساته باللغات التي يحسنونها. وليس ثمة من شكّ في أنّ الإنكليزية تكاد تكون لغة الاستشراق الرئيسيّة، وهذا لا يعني بأي حال النظر باستخفاف إلى ما يصدر باللغات الأخرى كالفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والروسية، ولكنه مجرد إشارة إلى أنّ ما ينشر بالإنكليزية يكاد يفوق ما ينشر بأية لغة أخرى، إضافة إلى كون الإنكليزية من أوسع اللغات انتشاراً في عالمنا اليوم، (إذا ما استثنينا اللغة الصينية بالطبع).

ويبدو أنّ المؤسسات الثقافية الصهيونية في الكيان العنصري وخارجه شعرت بهذا منذ زمن (ومن المؤسف أنهم أخبر منا؛ عندما يتعلق الأمر بهذه النواحي، فهم يحاربوننا في كل المجالات، وليس على جبهة القتال وحدها، ويفيدون من كلّ الوسائل المتاحة لديهم مهما كانت، ومهما كان مصدرها وشكلها). ورأت فيه ثغرةً يمكن أن ينفذ منها، وهكذا شرع الكثيرون من الباحثين الصهاينة بالاهتمام بهذا الأدب ودراسته ونشر دراسات جادّة عنه تنشرها أكبر دور النشر الاستشراقية بمساعدة تقدّمها الجامعات الصهيونية[1].

وأنا لا يهمني أن أناقش مضمون هذه الدراسات، ولا أن أحلّل دوافعها

(1) انظر:

«ساسون سوميخ»، الإيقاع المتغير: دراسات في روايات نجيب محفوظ، ليدن، 1973.

«دافيد صميح»: أربعة نقاد أدب مصريين، ليدن 1974.

«شموئيل موريه»: الشعر العربي الحديث 1800-1970؛ تطور أشكاله وموضوعاته تحت تأثير الأدب الغربي، ليدن 1976.

وجميعها بالإنكليزية، نشرت من قبل الناشر المعروف «بريل» بمساعدة الجامعات الصهيونيّة (تل أبيب، حيفا، والعبرية).

هنا (علماً أنّ أغلبها رسائل جامعية أجيزت من أفضل الجامعات الأوروبية والأمريكية)، ولكنّي أودُّ أن أشير إلى أنّ هؤلاء الباحثين الصهاينة -سواء أعترفوا بذلك أم لم يعترفوا، قصدوه أم لم يقصدوه، اندفعوا إليه بحبّ هذا الأدب والاهتمام به كأدبٍ جديرٍ بالبحث والدراسة أم بغايةٍ أخرى أكاديميّة أو غير أكاديمية - يريدون للمستعربين والمهتمّين بدراسة الأدب العربي الحديث أن ينظروا إلى هذا الأدب من خلال العيون الصهيونية، وأن يقبلوا بشكلٍ غير مباشر آراء الصهاينة فيه وتقويمهم له وتحليلاتهم. وبالطبع فإنّ ثمة تضمّنات أخرى لهذه العناية يمكن أن يفيد منها السياسيّون الصهاينة ورجال آلة الحرب في كيانهم، أهمها القول للعالم أجمع بلغة البحث الأكاديمي «الموضوعي»: نحن أكثر اهتماماً بالعرب وثقافتهم وأدبهم وتاريخهم منهم بأنفسهم، ونحن نقوم بهذه المهمّة خير قيام، ونتحمّل عبء الرجل الأوروبي في تمدين المنطقة وتحضيرها، والحفاظ على تراثها الثقافي والتعريف به ونشره بين قرّاء الغرب، ولا نلقى مقابل ذلك من هؤلاء العرب غير الحقد والتهديد والتلويح بالحرب والدمار والإلقاء بالبحر[1].

ولا شك أنّ رأياً عاماً غربياً محمّلاً بالإحساس بالذنب تجاه من اضطهد من اليهود في أيام النازية والفاشية، ومفعماً بإحساس الحسد والغيرة من العرب للثروة التي يتمتّعون بها، والتي ألقيت بين عشيةٍ وضحاها بين أيديهم وهم الشعب المتأخر البربري والمتوحش والبدوي و«الإرهابي»، ما يفتأ يهدّد بها الغرب المتمدّن المتحضّر. أقول: إنّ شعباً كهذا يتقبّل هذا ويفهمه لأنّه اللغة التي يعرفها ويخاطب بها.

هل تقول بعد هذا إنّ الأمر لا يعنينا، وأنّه لا يؤثر فينا، وأنّنا نستطيع أن

(1) انظر: «عبد النبي اصطيف»: «تحت عيون صهيونيّة»، الدستور (لندن)، السنة العاشرة، العدد 456، الاثنين 10-16 مارس، ص62.

نتجاهله؟ أو أن نتركه كما في هذه الحالة إلى الباحثين الصهاينة ليغدوا حجّة في ثقافتنا وأدبنا وحضارتنا على حساب كسلنا الفكري وتقصيرنا بحقّ أنفسنا؟

وهناك أمر آخر أشار إليه باحث عربي معروف بنظرته المتزنة إلى تقليد الاستشراق، تلك النظرة التي تستند إلى خبرةٍ مباشرةٍ به امتدّت على فترةٍ طويلةٍ من الزمن معه. يقول الدكتور «حسام الخطيب»:

«إن العالم المتقدم غرباً وشرقاً لم يعد يعتمد على البحوث العامة الشاملة الآخذة من كل شيءٍ بطرفٍ. بل اتّجه - كما هو معلوم - إلى التخصّص الدقيق جداً. وهكذا ألغيت تقريباً كلمة مستشرق، وحلّت محلها كلمة مستعرب أو Arabist، أي متخصّص بالدراسات العربية. وأصبحت هذه الدراسات تجري في مراكز بحث علمية، متعدّدة التخصّصات المتعلّقة بالبلاد العربية، وهذه المراكز تضمّ مكتباتٍ غنيّة جداً، وتضمّ أيضاً فرقاً مدرّبة على البحث والإحصاء والتأليف المشترك. ويجد فيها الإنسان اليوم معلوماتٍ وتحصيلاتٍ غزيرة حول نواحي الحياة العربية من اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وفنية.

وهذه المراكز ذات خطورةٍ واضحةً ليس لأنّها تقدّم «معلومات خاطئة» أو لـ «تشويهها» لما هي عليه الأمور في البلاد العربيّة، بل لأنّها تقدّم صورةً علميّةً دقيقةً تزوّد المختصّين السياسيين وغيرهم بما يريدون أن يعرفوه عن أيّة منطقةٍ عربيّة أو ناحيةٍ من نواحي الحياة العربيّة التي تكون موضع اهتمامهم، وبذلك ليس بعيداً عن الصحّة ما يقال عادة من أنّ (الآخرين) يعرفون عنّا أكثر مما نعرفه عن أنفسنا»[1].

وهكذا فإن ثمّة سميناً يمكن أن نجده في اهتمامنا بهذا التقليد وفي تتبع

(1) د. «حسام الدين الخطيب»، المرجع السابق.

أحدث ما يقدّمه، وخاصّة فيما أشرت إليه في غير هذا الموضع على أنّه من ملامح الاستعراب الجديد[1]، وأهمّ إسهامات المستعربين العرب، أولئك الذين قُدّر لهم أن يعيشوا في الغرب وينشروا بلغاته ويدرّسوا في جامعاته.

الخيار الثاني أو القبول غير المشروط

أمّا الخيار الثاني فهو قبول كل ما يأتينا به الاستشراق على عواهنه، وإغضاء الطرف عما فيه من تضمّنات أيديولوجيّة وسياسيّة، واعتماد بياناته أساساً لفهم أنفسنا. ولم لا، وهو حصيلة ثقافةٍ غربيّةٍ رفيعةٍ تصدر عن حضارةٍ غربيةٍ نحاول جهدنا الوصول إلى ما وصلت إليه ونسعى إلى محاكاتها بكلّ ما أوتينا من قوة.

وفوق ذلك فإنّه لا يسعنا أن نستخدم الطائرة التي ينتجها الغرب، ونفيد من تسهيلات الأقمار الصناعية في اتّصالاتنا والحاسبات الآلية في مختلف مرافق حياتنا، ثمّ نرفض بعد ذلك ما يقوله عنّا. وهو على أيّ حال أكثر معرفةً منّا بأنفسنا. إنّه يملك التسهيلات والمنهج فلماذا لا يملك حصيلتهما؟ أو قل: إنّه يملك القوّة والسلطة التي يمارسها بشكلٍ أو بآخر في هذا الوجه أو ذاك من الحياة العربيّة المعاصرة، فلماذا لا يملك المعرفة، وهو يملكها حقاً؟

وأكثر من هذا، فإنّنا بذلك نوفر على أنفسنا المال والوقت. إنّ إنتاج كتاب عربيّ بحاجةٍ إلى عدّة سنواتٍ من التفرغ نتيحها للباحث العربي، وإلى

(1) انظر على سبيل المثال:

«عبد النبي اصطيف»: «المؤتمر السنوي السادس للجمعيّة البريطانيّة لدراسات الشرق الأوسط وقائع وهوامش»، مجلّة مجمع اللغة العربيّة (دمشق)، المجلّد 55، العدد 4، 1980.

«بيبليوغرافيا إسلاميّة عربيّة: دليل مجلس مكتبة الشرق الأوسط وقصّة ستّة عقود»، المرجع السابق، المجلد 55، العدد1، ص164-188.

«نحو استعراب جديد، مجلّة الأدب العربي»، الموقف الأدبي (دمشق)، العددان 107-108، آذار-نيسان 1980، ص207-215.

«سفراء دون اعتماد: مؤلّفون عرب»، المعرفة (دمشق)، السنة 22، العدد 255، أيار 1983، ص207-213.

تسهيلاتٍ كثيرةٍ، وأموالٍ طائلةٍ ننفقها عليه. وترجمة كتاب لا تقتضي أيّاً من هذا. صحيحٌ أنّنا قد نقع على آراء لا تسرّنا، ولكن هذا متوقّع فنحن أمّة متخلّفة، ومن الصعب أن نجد في أوضاعنا الراهنة كبير راحةٍ واطمئنانٍ ورضىً لأنفسنا بله نفوس الخارجيين من المستشرقين.

فلنتخلّ إذن عن المشاعر القوميّة الشوفينيّة، وعن العاطفيّة والذاتيّة، فما ينتجه الغرب إنتاج على قدر كبير من الموضوعية. والحكمة ضالّة المؤمن، وإضافةً إلى ذلك أليس تراثنا نفسه ينصحنا بأن نطلب العلم ولو في الصين. والحقيقة في نهاية الأمر لا ترضي. ومن يحب الحقيقة على أيّ حال؟

وعلى رغم كلّ ما يمكن أن ينفع خياراً كهذا الخيار من مظاهر الواقعية والعمليّة والانفتاح وسعة الأفق، فإنّه موقفٌ على غاية ما يكون من الجرأة في اللامبالاة بعاقبته. وأكثر من هذا فإنّه يبدو أكثر غرابة عندما نتذكر أنّ الاستشراق اليوم يخضع لعمليّة نقد أساسيّة من قبل المستشرقين أنفسهم، وإذا كانوا هم أنفسهم - أو جملةً صالحةً منهم وخاصّةً من المستشرقين الشباب - لا يعتقدون بعصمة هذا التقليد الثقافي العريق ويُعمِلون يد مباضعهم فيه ليطهّروه من الكثير ممّا علق به من أهواء ونزعات وتضمّنات عرقيّة وعنصريّة وأيديولوجيّة، فإنّ من الغفلة حقّاً أن يقبله الداخليّون هكذا دون تمحيص.

وحتى لا يكون الحديث عن أمرٍ كهذا حديثاً نظرياً بحتاً، فإنّني أودّ أن أشير إلى مثالٍ قريب العهد هو كتابٌ ألّفه مستشرقان لامعان، هما: «باتريشا كرونه» و«مايكل كوك» تحت عنوان **الهاجرية: صنع العالم الإسلامي**، يمكن وصفه بأنه تمرينٌ فكري عابث وعديم الجدوى، إذا ما أُحسن الظنّ به، أو بأنّه تهجّمٌ أكثر ما يكون بُعداً عن اللباقة والتهذيب على جوهر العقيدة الإسلامية، واستعراض عضلاتٍ منهجيّ على غايةٍ من نقص الحساسيّة الإنسانيّة إذا ما نُظر إليه نظرةً غير متعاطفة. فهما يكتبان مقدِّمَين كتابهما:

«إنّ العرض الذي نقدم لأصول الإسلام ليس ذلك الذي يستطيع أن يقبله أيّ مؤمن... لقد كتب هذا الكتاب لكفرةٍ ومن قبل كافرين، وأقيم على ما يجب أن يبدو من منظور أيّ مسلم أنه تقديرٌ مُغالَىً فيه لشهادة مصادر الكفرة»[1].

والواقع أنّ ما يروع في هذا الكتاب هو **الانتقائية المغرضة التي تسود اختيار مادّته، وتحكم محاجّته**. ففضلاً عن إهمال المؤلّفَين غير المسوّغ لمراجع أساسية في التاريخ الإسلامي بعضها لمستشرقين معروفين بطول باعهم في حقل الدراسات التاريخية الإسلامية، فإنّهما لا يثقان مطلقاً بالمصادر الإسلامية، وهكذا يكتبان:

«من المعلوم تماماً أنّ المصادر الإسلامية ليست مبكّرة بشكل يمكن التدليل عليه، وليس هناك أيّ دليلٍ صلبٍ على وجود القرآن في أيّة صورة قبل العقد الأخير من القرن السابع، كما أنّ الحديث الذي يضع هذا الوحي الغامض في إطاره التاريخي لم يخضع للتمحيص قبل منتصف القرن الثامن. وهكذا فإنّ تاريخيّة التراث الإسلامي خلافيّة إلى حدٍّ ما: فبينما لا توجد أيّ أسسٍ داخليةٍ مقنعةٍ لرفضه، ليس هناك على قدم المساواة أيّة أسسٍ خارجيّة مقنعة لقبوله. وفي مثل هذه الظروف فإنّه ليس من المعقول أن يُمضَى بالطريقة المعهودة إلى تقديم رواية محقّقة بشكل معقول للتراث كحقيقةٍ تاريخية. ولكن، وعلى النحو نفسه تماماً، فإنّ المعقول اعتبار الحديث وكأنّه دون مضمونٍ تاريخيّ محدّدٍ، والتأكيد على أنّ ما يفهم أنّه رواياتٌ للحوادث الدينية في القرن السابع غير ذي فائدة إلا في دراسة الأفكار الدينية في القرن الثامن.

(1) P. crone and M. Cook. *Haggarism: the Making of the Islamic world*. C.U.P. 1977.

إنّ المصادر الإسلامية تتيح مجالاً رحباً لتطبيق هذه المداخل المختلفة، ولكنّها تقدّم القليل مما يمكن استخدامه بأيّة طريقةٍ حاسمة للتحكيم فيما بينها. وهكذا فإنّ الطريقة الوحيدة للخروج من هذه المعضلة هو المضي خارج التراث الإسلامي كلّه، والبدء من جديد»[1].

ويمضي المؤلّفان خارج هذا التراث ويبدآن من جديد، ويخرجان على الناس بقصّة جديدة، بل أصيلة في خيالها الجامح. فالهاجريّة أو البديل الجديد للإسلام الذي يقترحانه، والذي يتّخذانه عنواناً للكتاب نسبةً إلى «هاجر» أمّ «إسماعيل» وزوج «إبراهيم» عليهما السلام، والمقصود به هو الدين الإسلامي الذي يفضّلان أن ينعتا أصحابه أو أتباعه بالهاجريين Hagarenes أو Hagarites. وأمّا النبي العربي «محمد» ﷺ فهو شخصيّة أسطوريّة، لفّقها المهاجرون. وأمّا القرآن فهو نتاج مجهود الهاجريين الجماعي التراكمي. وأمّا الذي كان وراء هذه الأسطورة فهو المهدي «عمر الفاروق» المخلّص. وأمّا أساس هذه القصة فهو المصادر غير العربيّة والمعاصرة لظهور الدين الإسلامي، والتي تشمل المصادر العبرية والسريانية والسامرية والنسطورية واليعقوبية والأرمنية والقبطية وغيرها[2] (وجميعها بالطبع كانت مناهضة للدين الجديد في ذلك الوقت). ولما كانت «المصادر التي نستخدم تساعد على تحديد التوكيد الذي نموضعه ضمن الكلّ المعقد للعملية التاريخية»[3]. فليس من الغريب أن يستطيع المؤلّفان أن يخرجا علينا بهذه القصة المبتكرة.

والمهمّ هو أنّ هذه القصة التي وصفها أحد المستشرقين المنصفين

---

(1) *Ibid*.P.3.

(2) انظر: «عبد النبي اصطيف»، «الهاجرية: بديل جديد للإسلام»، المعرفة (دمشق)، السنة السابعة عشرة، العدد 204، شباط، 1979، ص201.

(3) Albert Hourani: *The Emergence of the modern middle East*, University of California Press. Berkly. 1981. p.37.

بأنها «أضغاث أحلام» و«ضلال مبين»، وأنّها جديرة حقّاً بأن تصبح «نسياً منسياً»[1]، قد وجدت طريقها إلى الناس، وأنّها بعد النقاشات التي أثارتها بين صفوف المستشرقين، صدرت بطبعة ذات غلاف ورقي وأنّ صاحبيها بعد نجاح محاولتهما الأولى قد تابعا مجهودهما فخرجت «باتريشيا كرونه» بكتاب آخر يحمل عنواناً موحياً هو: **عبيد على الخيل**[2]، وخرج «مايكل كوك» بكتاب آخر هو: «**العقيدة الإسلامية المبكرة**»[3] وكلا الكتابين من نشر مطبعة كامبريدج، وما أدراك ما أهمية ما تنشره هذه الجامعة.

ترى هل يظلّ أصحاب هذا الموقف أو الخيار بعد اطّلاعهم على عيّنة من هذا النوع من الاستشراق المغرض المسفّ على شيءٍ من الاطمئنان لهذا التقليد وقبوله قبولاً أعمى؟ لا أظنّهم كذلك. وعلى أيّ حال فإنّ ثمّة حدوداً للكسل الفكري الذي يمكن أن تعاني منه أمّة.

الخيار الثالث أو المواجهة الإيجابية

ولكن ماذا عن الخيار الثالث، والذي أودّ أن أعنونه **بالمواجهة الإيجابيّة** لهذا التقليد الثقافي - هذه المواجهة التي ينبغي أن تتّسم بالوعي والمعرفة والحسّ النقدي والثقة بالنفس؟

يبدو لي أنّ هذه المواجهة يجب أن تهدف إلى قلب الأوضاع القائمة في الدراسات العربيّة ووضعها مرة أخرى على قدميها. فبدلاً من أن تكون الدراسات الاستشراقيّة الخارجيّة هي التيار الرئيسي، والمرجع الأساسي لدراسة الثقافة العربية في حين تبقى الدراسات التي يقوم بها الداخليّون هي الروافد، يجب أن

(1) انظر، «ألن جونز»: «الهاجرية»، المعرفة (دمشق)، السنة السابعة عشرة، العدد 204، شباط، 1979، ص: 203-207.

(2) Patricia Crone: *Slaves on horses: the Evolution of the Islamic polity*, C.U.P. 1980.

(3) Michael Cook: *Early Islamic Dogma: A Source-Critical Study*, C.U.P. 1981.

تصبح إسهامات العرب أنفسهم هي التيّار الرئيسيّ والمجرى المحدّد، في حين تصبح إسهامات المستشرقين هي الروافد.

وبالطبع فإنّ طموحاً كهذا ليس حلماً أو مستحيلاً. ولكنّه كذلك ليس أمراً سهلاً يمكن تحقيقه في عشيّةٍ وضحاها. وهو كذلك ليس نوعاً من الرغبة المغرورة، لأنّه هدفٌ مشروعٌ أخلاقيّاً وعلمياً. فدارس الأدب الإنكليزي على سبيل المثال - رغم تقديره لإسهامات الباحثين غير الإنكليز في دراسة هذا الأدب - لا يمكنه إلاّ أن يعتمد بشكلٍ أساسيّ على إسهامات الإنكليز أنفسهم في دراسته له. وإذا كان هذا الأمر مسوّغاً ومقبولاً في دراسة الثقافات الأخرى، فما الذي يمنع قيامه في الثقافة العربيّة إذا ما توفّرت التسهيلات والعزيمة والصبر وبعد النظرة والرغبة الصادقة؟

ولكن كيف الوصول إلى هذا الوضع الذي يطمح إليه كل دارس عربي غيور؟

يتراءى لي أنّ ثمّة خطوات مختلفة على المدى القريب والبعيد يمكن أن نبدأ بها، ويمكن أن تقودنا إلى الوصول إلى هذا الطموح. وبالطبع فإنّ هذه الخطوات هي مجرّد اقتراحاتٍ شكّلتها أساساً التجربة الشخصيّة لصاحب هذه السطور، وهي تجربة، مهما بولغ في أهميّتها، لا تزال محدودة في إطار المقدرة الإنسانيّة للفرد العربي في ظروفنا الحالية. ولذلك فإنّ دارسين آخرين يمكن أن يقترحوا خطواتٍ أخرى يرونها أفضل وأسرع للوصول إلى الهدف ذاته - وهو أن ينهض العربُ الداخليّون بدراسة ثقافتهم وأدبهم وحضارتهم، وأن يصبحوا الحجّة الأولى والمصدر الأساسي الذي ينهل منه الآخرون في معرفتهم لهذه الثقافة وذاك الأدب وتلك الحضارة. أو إذا ما شئنا استخدام كلمات الدكتور «الخطيب»: «عند ذلك يمكن أن نضع الاستشراق قديمه وحديثه في الموضع الذي يستحقّه، أي بوصفه رافداً يصبّ في بحر الدراسات العربيّة المتمكّنة

الواثقة من القيمة العلميّة لما تقدّمه، وليس بديلاً عنها بأيّ حال من الأحوال»[1].

1 ـ في البدء كانت المعرفة

ربّما كانت أولى خطوات هذه المواجهة الإيجابية التعرّف على موضوع هذه المواجهة، أي النتاج الاستشراقي. فدون المعرفة المتبصّرة، المميّزة للغثّ من السمين في هذا التقليد الثقافي، ليس ثمّة أمل في أن تقوم أيّة مواجهة ذات جدوى.

وبالطبع، فإنّ طرق التعرّف على هذا التقليد عديدةٌ، منها على سبيل المثال: تخصيص دوريّة أو عدة دوريّات لمتابعة جوانب نشاطاته المختلفة؛ ومنها: إعداد الدراسات والمسوح والتقارير عن وضع الدراسات الاستشراقيّة في الدول الأجنبية المختلفة، في مختلف حقول المعرفة المتّصلة بالعرب، ومنها: تخصيص جزءٍ من الدوريّات العربيّة المعنيّة لمتابعة آخر تطوّراته ومراجعة آخر ما يصدر عنه من كتب ومجلّات ونشرات؛ ومنها: الترجمات بمختلف أنواعها؛ ومنها: الزيارات المباشرة لمراكز هذا الاستشراق والاطلاع عن كثب عمّا يجري فيها والاحتكاك المباشر مع القائمين على مؤسساته. والمهمّ في الأمر هو عدم دفن الرأس في الرمال، والقيام بتتبّع ما ينجزه هؤلاء الخارجيّون. والنظر في مجالات الفائدة التي يمكن أن تعود بها على العرب في مختلف النواحي.

2 ـ المشاركة

وثاني هذه الخطوات هي المشاركة في مختلف فعاليّاته ونشاطاته، هذه المشاركة التي تحمل معها - بالإضافة إلى تعميق معرفتنا بهذا التقليد - فائدتين هامّتين:

-**أولاهما:** لفت نظر العاملين في ميدان الاستشراق إلى ما يقوم به الداخليّون

(1) د. «حسام الخطيب»، المرجع السابق.

من نشاطاتٍ وأبحاثٍ لا يُحسنُها غيرهم، ولا يستغني الخارجيّون عنها، وإلى إسهامات هؤلاء الداخليّين في مختلف الجوانب المتّصلة بالحياة العربيّة قديمها وحديثها أدباً وثقافةً وتاريخاً وحضارةً.

-وثانيتهما: خلخلة معاييره ومقاييسه الداخليّة التي أكل الدهر عليها وشرب. فمع ازدياد إسهامات الداخليّين إلى هذا التقليد، تنبثق مفاهيم جديدة، ومعايير مستويات مختلفة عمّا هو سائد في ميدان الاستشراق نتيجة طبيعته الخارجية.

والمشاركة هذه يمكن أن تتخذ أشكالاً عدَّة، منها:

أ- النشر في الدوريّات الاستشراقيّة باستمرار، وباللغات الاستشراقيّة ذاتها. ويمكن التغلّب على صعوبات الكتابة بلغةٍ أجنبيّةٍ عن طريق اللجوء إلى الترجمة. فليس ثمّة ما يمنع من ترجمة الإسهامات العربيّة إلى الإنكليزيّة والفرنسيّة وغيرها من اللغات، ومن ثمّ نشرها في الدوريّات الاستشراقيّة إذا ما كانت على مستوى مقبول، مثلما يمكن أن يحدث العكس.

وكذلك فإنّ عدداً لا بأس به من الداخليّين يتقنون الكتابة باللّغات الأجنبيّة، ومن الأهميّة بمكان تشجيعهم على النشر بهذه اللغات بل ربما تفريغهم لهذه المهمة.

ب- المشاركة الفعّالة في المؤتمرات والندوات التي تقام حول الشؤون العربية في مختلف أنحاء العالم، والتي تساهم المؤسسات الاستشراقية في الإشراف عليها أو تنظيمها أو الإعداد لها. ومن الضروري التشديد هنا على مسألة توفر الكفاية والجديّة في صفوف المشاركين فيها من الداخليين.

ج- نشر الكتب والرسائل العلميّة والترجمات باللغات الأجنبية. صحيحٌ أنّ الأصل هو أن يترجم ما هو صالح ممّا يصدر بالعربية إلى اللغات الأخرى، وأن يقوم بهذه الترجمة الخارجيّون أنفسهم إذا ما شعروا بالحاجة الماسّة له،

والضرورة الملحّة لمراجعته وتبيّنوا الفائدة المرتقبة منه، ولكن ليس ثمّة ما يمنع في حال توفر هذه الدراسات أو من يقوم بها من نشرها باللغات الأجنبية، وإتاحة فرصة قراءتها لعدد أكبر من القرّاء للإفادة منها.

وكذلك فإن كثرة من الدارسين العرب قد أنهوا دراستهم في الجامعات الأجنبية، وقدّموا رسائل باللغات الأجنبية، وبسبب جملة من العوامل لم تتح الفرصة لهذه الرسائل أن تنشر، ذلك أن النشر في كثير من الأحيان مسألة تجاريّة بحتة، وأبحاثٌ كهذه محدودةُ السوق لا تغري بالنشر. إنّ محاولة إصدار هذه الرسائل بعد إعدادها وتحريرها على شكل كتبٍ باللغات الأجنبية أمرٌ هامّ، بل إنّه ربما يشكّل خطوةً من أهمّ الخطوات في زعزعة القيم الداخلية للاستشراق.

النقد الواعي

وهو على نوعين: **نقد الداخليّين له**؛ وذلك من خلال مجالات المشاركات التي قدمتها، ومن الضروري أن يكون هذا النقد نقداً موضوعيّاً علميّاً بعيداً عن التهجّم الشخصي أو الطعن. **ونقد الخارجيين** الذاتي لتقليدهم، إذ أنّ من الأهمية بمكانٍ تشجيع هذا النقد ونشره والأخذ بيد أصحابه.

وربّما كان يحسن بالمرء في هذا السياق أن يشير إلى أنّ من أكبر الخدمات التي قدمها كتاب «إدوارد سعيد» لهذا التقليد أنّه فتح عيون أصحابه على حقيقةٍ طالما أغفلوها، وهي أنّهم بشرٌ وأنّهم يخطؤون، وأنّ ثمّة عالماً يتطوّر باستمرارٍ من حولهم في مختلف الميادين وأنّهم ينبغي أن ينفتحوا عليه، ويطوّروا هذا التقليد الذي أزرت به الأبعاد الأيديولوجيّة والسياسية. والأهمّ من ذلك، أنّه شجع المتنورين منهم على نقد الآخرين ممّن سلبهم هذا التقليد حريّتهم وإرادتهم كباحثين. لقد مضى زمنٌ لم يكن يجرؤ فيه أيّ مستشرق أن ينتقد «غيب»، أو «برنارد لويس»، أو «فون غروبناوم»، أو «شاخت»، أو

«ماسينيون» أو غيرهم. ولكن أيّ متتبّع لما ينشر في دوريّات الاستشراق يستطيع أن يلاحظ أنّ هؤلاء لم يعودوا كما كانوا بعيدين عن متناول النقد، وأنّ أفكارهم وآراءهم غدت عُرضةً للتفحّص والمراجعة والنقض والتنفيذ والردّ.

لقد خلق كتاب «سعيد» جواً صحيّاً في ميدان الاستشراق. ومن المفارقة حقّاً أنه لم يُجزَ الجزاء الذي يستحقه على هذه الخدمة الجليلة التي أدّاها لهم، وهو الخارجي البعيد عن هذا التقليد، بل راح بعضهم (بما فيه بعض العرب) يتسقّط عثرات كتابه ويهاجمه بعنفٍ حيناً وبشراسةٍ حيناً آخر وبانفعاليّةٍ محمومةٍ حيناً ثالثاً، وما ذلك إلا لأنّه فجعهم بواقع حالهم إذ فتح عيونهم على هذه الحقيقة وهي أنّ الشرق الذي يدرسونه، ويكتبون حوله، ويناقشون شؤون أهله، بعيدٌ جداً عن الشرق الحقيقي؛ إنّه مجرّد تصوّر خلقوه، وعاشوا معه، وصحبوه طويلاً، والطريق التي سلكوها منذ أن خلق الاستشراق حتى اليوم لن تقودهم إلى شيء[1].

تشجيع المؤشرات الإيجابية في النتاج الاستشراقي الجديد

وخاصة الذي ينتجه الجيل الجديد الذي يحاول أن يزعزع روابطه بهذا التقليد...

البديل أو خلق تقليد مكافئ

والواقع أنّ كلّ ما تقدّم من خطواتٍ لا يكفي، لأنّه إنّما يعالج المشكلة على المدى القريب، ولا يحقّق الهدف البعيد الذي نسعى إليه، وهو خلق تقليدٍ

(1) انظر تقديم: «عبد النبي اصطيف»، «الاستشراق»، الذي مهد به لدراسة «ألبرت حوراني» لكتاب الاستشراق والمعنون بـ«الطريق إلى المغرب: قراءة في الاستشراق» التراث العربي (دمشق)، السنة الثانية. العدد7، نيسان، 1982، ص163.

مكافئٍ في القيمة والمستوى يستطيعُ أن يحلّ محلّ الاستشراق، أي: خلقُ البديل لهذا التقليد الإشكالي.

ومن هنا فإنّ ثمّة خطواتٍ أخرى لا بدّ منها على المستوى البعيد، سأحاول أن أوجزها غاية الإيجاز بسبب ضيق المجال المتاح. ولعلّ الفرصة تتاح لمناقشتها على نحوٍ أفضل في دراسةٍ مستقلّةٍ. وربما كان من أهم هذه الخطوات ما يلي:

***النهوض بمستوى الدراسات العربية بشكل عام مادّةً وإخراجاً**

لا أظن أن ثمّة من يماري في أنّ الكثير ممّا ينشر في دوريّاتنا، وممّا تخرج به مطابعنا على الناس لا يقوى إلا بشقّ الأنفس على مزاحمة نتاج الأمم الأخرى في أيّة مكتبة تهتمّ بالنوعيّة دون الكميّة. وهو بالتأكيد لن يقوى على تحدّي الزمن الآتي لأن زبده كثير، وما ينفع الناس فيه يكاد يكون كآوى الذي لم نر منه إلا ابنه.

ولا شكّ أن ثمّة أسباباً مختلفةً تكمن وراء تدنّي مستوى الدراسات العربية جملةً. فالباحثون العرب على وجه الإجمال لا يتاح لهم التدريب الكافي لكتابة الأبحاث العلمية، وكثرةٌ منهم تعتمد مبدأ المحاولة والخطأ والتجربة الشخصية التي تكتسب عن طريق الممارسة وحدها.

وكذلك فإنّ وسائل البحث العلمي الجادّ كالمكتبة الجيّدة المزودة بالفهارس والمعاجم والكتب المساعدة وآلات التصوير وآلات قراءة الأفلام والحواسب الآلية وغير ذلك لا يكاد يتوفر على الغالب لهؤلاء الباحثين.

وأكثر من هذا، فإنّ معظم باحثينا غير متفرّغٍ، إذ أنّ أغلبهم ينفق معظم وقته في طلب الرزق بالتدريس أو بالعمل الإداري أو الوظيفي، ولا يكاد يتاح له الوقت الكافي لإنتاج عملٍ علميٍّ ممتازٍ، يحتاج أول ما يحتاج إلى فراغٍ في الوقت والنفس معاً لا يتوفر لجلّ دارسينا...

**توفير التسهيلات الضرورية لقيام بحث علمي عربي

وربما كان في طليعة هذه التسهيلات: المادة - المصدر - التي تشمل الكتاب، والدورية، والنشرة، والأوراق الخاصّة، والوثائق الرسمية وغير الرسمية، ومراكز البحث والدراسة، وذلك إضافة إلى توفير المنح والمكافآت للباحثين ورفع مستواهم المعيشي وتفريغهم بدل الإثقال عليهم بالأعباء الإدارية والتدريسيّة، وغير ذلك مما يشكّل القاعدة التي لا غنى عنها لقيام بحثٍ عربيّ ينتمي للعصر الذي نعيش فيه بدل العيش عالة عليه.

***تحسين مستوى تعليم اللغات الأجنبية

إنّ رفع مستوى تعليم اللغات الأجنبية في الجامعات العربيّة بشكلٍ عام ونشرها ضمن صفوف الباحثين لأمر ضروريّ بالفعل. والواقع أنّه إضافةً إلى متطلّبات استقصاء المادة العلمية، فإنّ القراءة بلغةٍ أخرى تخلق في نفس الباحث نوعاً من الرقابة على مستوى ما يكتب، إذ أنّه عندها لا يقيسه فقط بما يكتب في تراثه وثقافته في الموضوع الذي يطرقه، بل بما يكتب باللغات الأخرى أيضاً. وإذا ما أمل المرء أن يكون كلّ الباحثين على درجةٍ كبيرةٍ من الطموح في رفع مستوى دراساتهم، فإنّ هذه المعرفة تغدو حافزاً مستمراً للباحث على تطوير نفسه، وبالتالي على تطوير التقليد الثقافي الذي ينتمي إليه كدارس.

«شرور» الاستشراق
كيف ننتفع بها؟!

بقلم: «سامي خشبة»

***بمناسبة مرور قرنين على تأسيس الجمعية الآسيوية البنغالية.**

تحتفل دوائر الاستشراق الأكاديميّة في الغرب - خلال الشهور الأخيرة - بمرور قرنين على تأسيس أول «جمعية آسيوية»، كان هدفها: «تطوير وتنظيم دراسة الثقافات القديمة في آسيا، وميراثها من الأديان والشرائع والآداب والفنون» حسبما جاء في إعلان قيام «الجمعية الآسيوية البنغالية The Bengal Asiatic Society»، الذي كتبه وألقاه، مؤسّس الجمعية في كلكتا، عاصمة البنغال البريطاني في ذلك الوقت (عام 1784) سير «ويليام جونز» (Sir William Jones). وتعتبر تلك الجمعية أقدم الجمعيات الاستشراقية المنظمة لهذا الغرض، وسبقت زميلتها الهولندية التالية لها بنحو عشر سنوات.

ولقد بدأت الاحتفالات بالفعل منذ شهر نوفمبر عام 1985، في نيودلهي، باجتماع «اللجنة العليا للجمعية الآسيوية البريطانية الملكية»، التي اندمجت فيها جمعيّة البنغال منذ عام 1835، وبمشاركة مجلس أساتذة «معهد الاستشراق البريطاني Institute British oriental»، ومجالس الإدارة، وأساتذة الجمعيات، وأقسام الجامعات الهنديّة التي تتخصّص في نفس الدراسات التي بذرها «جونز» قبل قرنين، وعلى رأسها دراسة «الشرائع الهندية القديمة»، ومعها ديانات ولغات الهند والآثار المكتوبة، الدينية والأدبية والفكرية، التي ارتبطت بتلك اللغات والديانات.

وقد يكون المهمّ منذ البداية، هو أنْ ألفت النظر إلى «الأسلوب العلمي» للغاية الذي يتّبعه الأكاديميون والعلماء الهنود في التعامل مع مؤسسة

«الاستشراق» الغربية، التي تخصّصت في دراسة ثقافات الهند وتراثها الديني والفلسفي والأدبي. إنّهم لم يتوقفوا أبداً عند ما يمكن وصفه بـ «الاستشراق وخبائثه» بدءاً من تشويه صورة تراث هذه الحضارة المشرقيّة العظيمة، وحتّى توظيف المعلومات والمفاهيم التي توصّل إليها المستشرقون الغربيّون أنفسهم، ووضعها في خدمة الإدارات الاستعماريّة التي بدأت تسيطر على الهند، منذ أواخر القرن السادس عشر.

ورغم أنهم - فيما هو واضح كلّ الوضوح - قد تبيّنوا تلك الشرور وأدركوا تفاصيلها ومغزاها، فإنّهم لم يشغلوا أنفسهم طويلاً بالردّ على التشويهات التي اصطنعها الاستشراق وفرضها على ثقافات الشرق القديمة، أو بمحاولة إقناع الشعوب الأوروبية بخبث نوايا المستشرقين الأوروبيين، أو بسوء طويّة مؤسّسة الاستشراق الأوروبية وتعاونها مع الإدارات الاستعمارية، فهذا عملٌ - من وجهة نظر الأكاديميّين والعلماء الهنود - لا طائل من ورائه: فهم من ناحيةٍ، لن يستطيعوا التأثير على وعي القارئ الأوروبي المثقّف، ولن يستطيعوا أن يدخلوا في منافسة مع أجهزة صنع الوعي الغربي - للتأثير على الجمهور الأوروبي نفسه؛ وهم من ناحيةٍ أخرى، لن يستطيعوا مواصلة الانتفاع من المنجزات العلمية الحقيقية للاستشراق الغربي إذا هم انشغلوا بمحاولة تصحيح التصوّرات النهائيّة التي صاغها هذا الاستشراق عن الثقافات الهندية نفسها.

ولا شكّ في أن الفقرة الاعتراضية الأخيرة تتضمّن عبارة سينظر إليها الكثيرون باعتبارها نموذجاً للوقوع في فخّ الخبث الاستشراقي نفسه، أقصد عبارة: الانتفاع من المنجزات العلمية الحقيقية للاستشراق الغربي.

ولكنّ كاتب هذه السطور يحبّ أن يوضّح ببساطة، أنّ هذه العبارة، لم تكن وقوعاً في الفخّ ولم تصدر عن غفلةٍ، وإنّما هي مقصودةٌ لمعناها الحرفي

الواضح. وليسمح لي القارئ العزيز بعرض بعض «المعلومات» المحايدة، قبل استخلاص أيّة معانٍ، وقبل إصدار أيّة أحكام.

فالحقيقة، هي أنّ سير «ويليام جونز» نفسه، الذي درس القانون، وبعض اللغات الشرقية في لندن - منها العربية والعبرية والفارسية والتركية والهندية والأوروبية[1] - قبل أن يعيّن قاضياً وعضواً في المحكمة العليا للبنغال البريطاني - الحقيقة أنّ هذا الرجل، كان أوّل «مثقف» غربي، يتمكّن من دراسة اللغة السنسكريتية (الهنديّة القديمة، شبه المقدّسة، والتي كتبت بها كلّ النصوص الدينيّة للديانات الهندوسية والبراهمانية، وكلّ الآثار الأدبية والفلسفية المرتبطة بهاتين الديانتين).

والحقيقة، أنّ هذا الرجل، بفضل معرفته اللغوية الواسعة، التي ضمّت - غير اللغات الشرقية المذكورة - اللغات: اللاتينية واليونانية القديمة، والسلتية والقوطية الجنوبية (من لغات القبائل الأوروبية القديمة ذات الأصل الآسيوي)، إضافةً إلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة... الحقيقة، أنّ هذا الرجل بفضل المعرفة اللغوية الواسعة، وبفضل تعرّفه على أسس علم اللغويات القديم، كان هو المؤسّس الأوّل لعلم اللغويّات الحديث في مرحلته الأولى، في القرن التاسع عشر، وكان واضع الأساس الأول لنظرية «العائلات اللغوية»، التي راجت في القرن التاسع عشر، وواضع أسس نظرية عائلة اللغات التي عرفت باسم «العائلة الهندو أوروبية».

ففي عام 1786، أي بعد عامين من تأسيسه للجمعية الآسيوية البنغالية، ألقى «سير ويليام جونز»، محاضرة في المجمع العلمي للجمعيّة، وردت فيها فقرة كانت لها نتائج علميّة بالغة الخطورة في الأعوام التالية. تقول هذه الفقرة -

(1) المحرّر: هكذا ورد في الأصل، وهو مستغرب، إذ يعرض الكاتب للغات الشرقيّة التي يتقنها السير «ويليام جونز». ربما كان يجدر وضع اللغة الصينية بدلاً من الأوروبية.

التي أنقلها عن كتاب صدر منذ شهور عن «ويليام جونز» ونشرته دار كانبرياج البريطانية من تأليف أحد حلفائه «جارلاند كانون» عضو الجمعية الآسيوية البريطانية، الملكية الآن - ما ترجمته:

... «إنّ اللغة السنسكريتية، مهما كان من قدمها، ذات بناءٍ رائع، أكثر اكتمالاً من اللغة اليونانيَّة (القديمة) وأكثر ثراء وتنوّعاً من اللغة اللاتينية، ولكنّه أكثر صفاء ودقة منهما معاً؛ ولكنها مع ذلك تتّصل بهما اتّصالاً قويّاً في كلّ من جذور الأفعال، وفي قوالب الأجرومية، وهو اتّصال أقوى من أن يكون قد أنتجته المصادفة. إنّه اتّصالٌ من القوة، بحيث أنّه لا يسع أيّ عالم في فقه اللغات إذا ما درس اللغات الثلاث إلاّ أن يعتقد أنّها قد نبعت جميعاً من أصلٍ واحدٍ قد لا يكون موجوداً بعد؛ بل إنّ هناك سبباً مشابهاً، يدفع إلى افتراض - وإن لم يكن بنفس قوة الافتراض السابق - أنّ اللغتين السلتية والقوطية، تنبعان من نفس الأصل الذي نبعت منه اللغة السنسكريتية (واليونانية واللاتينية) رغم امتزاجهما بصياغات مختلفة للغاية. وقد يكون ممكناً أن نضيف اللغة الفارسيّة - القديمة - إلى تلك العائلة نفسها».

ويقول «جارلاند كانون»: إنّ أحكام القيمة التي يبدأ بها «جونز»، قد تكون مقبولة الآن، فاللغات لا توصف بأنها «رائعة» ولا بأنها «صافية ودقيقة»، ولا توجد لغة «أحسن» من أخرى. ولكنّ «جونز» - يقول «كونان» - في سياق فقرةٍ واحدة، يؤسّس الوجود الأوّل للغةٍ قديمةٍ (الهندو/ أوروبية)، ويشير إلى أنّ بعض اللغات الأوروبيّة والشرقيّة يربطها - تحت جلدها الظاهر - رباط الأخوّة، ثم يصله مصطلح «العائلة اللغوية» بشكلٍ عفويّ تماماً، وهو المصطلح الذي تأسّست عليه نظريّة لغويّة قويّة سادت القرن التاسع عشر وزمناً طويلاً من القرن العشرين.

صحيحٌ أنّ اللغويين الذين ساروا في الطريق الذي فتحه «وِيليام جونز» تناسوا من بعده جانبي الاتّصال الرئيسيّين - بين السنسكريتيّة وكلّ من اللاتينيّة واليونانيّة - وهذان الجانبان، هما: جذور الأفعال وقواعد الأجرومية (أو النحو أساساً والصرف)، وصحيحٌ أنّ هؤلاء وعلى رأسهم «فرانتز بوب» و«جاكوب جريم» الألمانيان و«رزاموس راسك» الدانمركي - قد أسرفوا في الكشف عن جانب اتّصالٍ واحدٍ، وركّزوا عليه، وهو جانب التشابه في بعض تصريفات لمجموعةٍ بعينها من المفردات، ولبعض أفعال الربط وأسماء الإشارة وغيرها (أو أهملوا طويلاً، جذور الأفعال وقواعد الأجروميّة)، الأمر الذي قادهم إلى أخطاء شهيرة لم تصحّح إلا في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين بناءً على عمل اللغوي الألماني العظيم «فون همبولت» مؤسّس فرعٍ آخر من لغويّات القرن الماضي، ومن تبعه أو تأثر بأفكاره من «سوسير» إلى «تشومسكي» في هذا القرن. كلّ هذا صحيح، ولكنّ الأساس الذي وضعه «وِيليام جونز» لم يضعه هباءً، على الأقل بالنسبة لتطبيقات العلوم اللغويّة (وعلم المعاجم) في كلٍّ من أوروبا - والدول التي تستخدم لغاتٍ أوروبية في أمريكا الشمالية والجنوبية وجنوب إفريقيا وأستراليا - والهند أساساً. ولكن العلماء الهنود قرّروا أن ينتفعوا بما أسّسه «جونز» من معرفة.

فالحاصل أنّ «وِيليام جونز» ترك كتاباً هامّاً، ومخطوطاً لكتاب أكثر أهمية: أمّا الكتاب فقد ضمّ ترجمةً إلى الإنجليزية لـتعاليم مانو (Institutes of manu) ودراسةً مستفيضةً حولها، من النواحي اللغوية واللاتينية والفقهية والاجتماعية. ولهذه التعاليم أهميّة خاصّة في الكشف عن الأصول الأولى للديانة الهندوسية وتطبيقاتها القانونية وتأثيرها ومنشئها الاجتماعي؛ وربطها - أو في الحقيقة تأثيرها في فكرة «الطوفان» التي تبدأ عندها المرحلة الثانية من التاريخ البشري حسب التصوّر الديني. أمّا المخطوط، فكان ترجمةً أيضاً، ودراسةً ضخمةً

حول: الشرائع الهندية Laws Hindu. وقد ترك بالطبع أعمالاً أخرى كثيرةً، على رأسها كتابٌ ضخم حول **أجرومية اللغة الفارسية** وترجمة ودراسة مطوّلة حول سبع من **المعلقات** العربية (وكانت هذه هي أوّل ترجمة إلى الإنجليزية لتلك المعلّقات الشهيرة)، وغيرها.

ولكنّ العلماء الهنود، اهتمّوا أساساً بما يعنيهم: **تعاليم مانو، والشرائع الهندية**، إضافةً إلى بعض الاهتمام بكتابه **الأجرومية الفارسية**، لاكتشاف «جونز» فيه أسس العلاقة الفوقية، أو السابقة، بين تلك اللغة «الأم» التي ولّدت السنسكريتية واليونانية القديمة واللاتينية، واللغة التي أصبحت تدعى: «الآرية - الإيرانية أو الفارسية» (Asian - Persian)، والتي يعتقد أنّها كانت تستخدم في المنطقة التي تضمّ الآن شمال إيران وغرب باكستان وجنوب غرب تركيا وشمال العراق، وأنّها كانت «الأب» المباشر للغة «الأناتولية»، التي استخدمها الحيثيون (الآريون بدورهم) في أواخر الألف الثاني - حتى أوائل الألف الأول قبل الميلاد.

اهتمّ العلماء الهنود بهذه الأعمال الثلاثة، ولم ينشغلوا أبداً بمحاولة «دحض» بعض الأخطاء أو الأوهام - المغرضة أو البريئة - التي وقع فيها «جونز» ولم يهتمّوا بإثبات خبثه أو براءته، وإنّما اهتمّوا بأن يستفيدوا بـ «المعرفة» التي أسسها؛ وهي معرفة ذات شطرين:

الأول: والأكثر أهمية، والأبعد مدىً، هو الذي يتمثّل في الكشف عن **معجم اللغة السنسكريتية**، وإخراجه من ظلمات مخازن المعابد القديمة، (وكان تعلّم هذه اللغة قد أصبح محرّماً على غير الكهنة من مرتبةٍ معيّنةٍ منذ القرن الثالث، ربّما مع بدء الفتوح الإسلاميّة والخوف المحلّي من تعرّف «الغزاة» على علومٍ وأسرارٍ بعَينها) حيث كانت هذه اللغة الغنيّة تتلاشى بالتدريج وتضعف معرفة حتّى أصحابها الباقين بها لتضاؤل استخدامها وتضاؤل «وظائفها» الاجتماعيّة. ولقد أدّى «اشتغال» العلماء

الهنود بتطوير المعرفة بهذا المعجم (من المفردات والتراكيب وقواعد النحو والصرف) إلى الكشف عن كنوزٍ معرفيّةٍ هامّة، تتعلّق بكلٍّ من أديان الشرق القديم ومعتقداته (القارّة الهندية وفارس أساساً، ثمّ اليونان القديمة بعد ذلك) وأصول بعض تصوّرات دياناتٍ أخرى هامّة، وتتعلق بأصول مؤلّفاتٍ بالغة الأهمّيّة في تطوّر كلّ من العلوم الرياضيّة والفلكيّة والعلوم الاجتماعية وتاريخها خصوصاً عند مسلمي شمال القارة الهندية (منذ «البيروني» و«الخوارزمي» وغيرهما)، وتتعلّق بالكشف عن الأسباب التي فرضت تطوّر العلم - خصوصاً في ظلّ الحضارة الإسلاميّة - في طريقه «النظري»، وعزلته النسبيّة عن التطبيق التكنولوجي (وأرجو أن يكون لهذا الموضوع الشائق والمهم حديث آخر).

أما الشق الثاني؛ الذي أفاده العلماء الهنود من انتفاعهم بـ «المعرفة»، التي تركها «ويليام جونز» وأتباعه من بعده (من الغربيين ومن الهنود على حد سواء)، فهو الجانب الجزئي المتعلّق بمواصلة الكشف عن أصول ومكوّنات الديانات الهنديّة (سواء ما استقرّ منها في الهند، كالهندوسيّة والبراهمانية، أو طرد من الهند ليستقرّ في مجتمعاتٍ أخرى، كالبوذيّة وتفرعاتها الكثيرة)، وتأثيرها في ديانات الشعوب المجاورة، أو تأثرها بها.

وربّما يكون من الأمور ذات الأصالة، أنّ الهند كانت من أوائل الدول «حديثة الاستقلال»، التي أسّست «جمعيّة» علميّة خاصّة بها لدراسة «التراث الآسيوي والإفريقي والأوروبي»، فكانت بذلك الدولة الوحيدة في الشرق (حتى ظهرت إسرائيل)، التي عُنيت بدراسة التاريخ الثقافي-الحضاري العام، من خلال التراث الفعلي لهذا التاريخ، ليس فقط بتحقيق ونشر أعمال هذا التراث، وإنما بـ «دراستها» ومقارنتها، وفحصها في ضوء مناهج البحث والمعلومات الحديثة: فالدراسة العلمية لا تهدف إلى «تمجيد» الذات ولا تمجيد الماضي، وإنّما

تهدف إلى أن تعي الذات نفسها وعياً موضوعياً، حتّى تتمكّن من التعامل مع «الحاضر» تعاملاً ذكيّاً وفعّالاً، وحتّى تطهّر نفسها من أيّة «خرافات» عن نفسها، أو عن العالم، وحتّى تساعد العالم (الآخرين) على أن يعرفوها بموضوعية أيضاً.

وربما كان هذا هو الأسلوب الأنفع والأجدى في مقاومة «شرور» الاستشراق. فالعلماء الهنود، لم يتوقّفوا بالطبع، عند عبارات «جونز» التأسيسيّة العامّة؛ ثمّ لم يتوقفوا عند كشوف أتباعه أو من استخدموا تعميماته، وركّزوا على جوانبها الشكلية - ناهيك عمّن حاولوا أن يمدّوا «نظريته» في شكلها البدائي إلى لغات أخرى، سائرين في درب المقارنة الشكليّة بين «تحويرات» عدّة مئات من الألفاظ (كما فعل الدكتور «لويس عوض» في: **مقدّمة في فقه اللغة العربية**)، وإنّما مضوا يوسّعون الجانب العلمي الموضوعي الأساسي في عمل «جونز»، وكانوا مسؤولين إلى حدٍّ بعيدٍ عن فكرة «همبولت» حول الشكل أو البناء «الخارجي» outstructure (أي: بناء الكلمة ونطقها)، وحول الشكل أو البناء الداخلي inner Structre، وحول ديناميّة اللغة وعدم ستاتيكيّتها[1]، واعتبارها نشاطاً شاملاً في حدّ ذاتها وليست مجرّد نتاجٍ سلبيّ لنشاطٍ آخر. كانوا إلى حدٍّ بعيدٍ مسؤولين عن أفكار «همبولت» تلك، لأنّهم قرّروا أن يكونوا مسؤولين عن الكشف عن «حقائق» ثقافتهم، لكي يقدّموا مساهمةً علميّةً فعليّةً، أو حقيقية في هذا العلم الذي تأسّس بمناسبة دراسة مستشرقٍ أجنبيّ للغتهم ولتراثهم. لم ينشغلوا بنواياه، وإنّما انشغلوا بما قدّمه من «معرفة» وبما يستطيعون من مساهمة في تطوير - وتصحيح - هذه المعرفة، فأصبح لهم وجودٌ «مهمّ» خاصّ بهم، ولكنّ تأثيره يتجاوز حدودهم بكثير.

وقد يكون هذا هو ما يتعين علينا - أو بالأحرى - على علمائنا، أن يفعلوه.

---

(1) المحرّر: كان الأجدى بالكاتب أن يعتمد المصطلحات العربيّة بدلاً من عرض متنها الأعجمي في نصّه، إذ لا يصعب قول: «حركيّة» بدلاً من «ديناميّة» و«ركود» أو «ثبات» بدلاً من «ستاتيكيّة».



الخاتمة

تتألّف العلاقة بين الشرق والغرب من نسيجٍ متشابكٍ من الأفعال وردّات الأفعال في إطارٍ زماني ضاربة جذوره في القدم، بحيث لا يمكن فصل التواصل الحالي عن بعض تأثيرات أصوله التاريخيّة والتفاعلات السياسيّة والاجتماعية والاقتصادية والثقافيّة السالفة بين الطرفين. وقد أنتج الغربُ الاستشراقَ كتراثٍ علميٍّ يمثّل رؤية الغربِ للشرق، ويساهم بشكلٍ فاعلٍ في تشكيل الوعي الثقافي الغربي حول الشرق. وفي المقابل، أبدى الشرق ومفكروه رأيهم بهذا التراث القادم من الآخر: فمنهم من ردّه بالكليّة متّهماً أعلام الاستشراق بالتحامل والانحياز وسوء الطويّة، ومنهم من أخذ كلّ مخرجات الاستشراق من نظريّاتٍ فكريّة، ومنهم من توقّف فيه فقَبِلَ ما عدّه نافعاً وردّ ما دون ذلك وهم الأغلبيّة. لكنّ هذه التيّارات الثلاث - خاصّة الأخير منها - ذات توجّهات عديدةٍ تبعاً لتفاوت درجة رفض أو قبول كلّ كاتب ومفكّر للنظريّات الاستشراقيّة.

وقد عرضنا في عملنا هذا نماذج لأعمال مستقلّة لجمع من المفكرين العرب، متخصّصة بدراسة موضوع الاستشراق؛ بحيث أفردنا لكل مذهبٍ فصلاً مستقلاً، وألحقنا بالمواقف المغالية في الاستشراق فصلين لبيان أدلّة كلّ من المذهبين. وأردفنا ذلك بفصلٍ خُصّص لعرض بعض وجهات النظر لأنصار

المذهب الوسطي لبيان ضرورة الاستفادة من الاستشراق وكيفيّة التأثير فيه.

ويمكننا ملاحظة اتّفاق منتقدي الاستشراق على عددٍ من المثالب العلميّة، كغياب الموضوعيّة والتحكّم في اختيار النصوص التاريخيّة والدينيّة واستخدام البحث العلمي لبرهنة نتائج مسبقة شخصيّة، بالإضافة إلى ربط الاستشراق بجذوره التاريخيّة واتّهامه بالعمالة للتبشير بالنصرانيّة وتوطيد الاستعمار الغربي والإمبرياليّة. وفي المقابل، يُجْمِلُ أنصار الاستشراق محاسنه في تحقيق ونشر الكتب التراثيّة في كافّة العلوم اللغويّة والأدبيّة والعربيّة، وإصدار البحوث والكتب المرجعيّة، والتفاني في خدمة المشاريع العلميّة، ونقل الثقافة البحثيّة إلى الأمم المشرقيّة. كما يعتذر هؤلاء لما يصدر عن المستشرقين من الأخطاء، ويفرّقون بين الكتابة العلميّة والأهداف التبشيريّة والاستعماريّة. وتتكرّر هذه الأدلّة في كافّة المواقف المتوسّطة مع الميل إلى أحد الاتّجاهين وفق ما يترجّح لدى كلّ كاتب من أدلّة.

ونذكّر ههنا أنّ هذه النمذجة للمواقف الكليّة ما هي إلا محاولةٌ لجمع شتات المواقف العديدة، ومحاولة ترتيبها منهجيّاً وبيان مرتكزاتها؛ إذ تتعدّد الآراء عمليّاً بتعدّد الكُتّاب، فيبقى عملنا في هذا الباب مدخلاً موجّهاً إلى جمهور القرّاء، ولَبِنَةً في الجسر الواصل بين الشرق والغرب؛ إذ دوماً ما ندعو إلى ضرورة التواصل العلميّ بين المفكرين العرب والمستشرقين، فهو أهمّ بابٍ لتحفيز التواصل البنّاء بين الأمم الغربيّة والشرقيّة، وتجاوز الترسّبات التاريخيّة.

ثبت المراجع

«أرسلان، شكيب»: «المستشرقون في موقفهم الخطير إزاء الإسلام»، **المنار**، ج6، م33، ص435-440.

«اسطيف، عبد النبي»: «مقدّمات في الاستعراب الجديد -1- نحن والاستشراق»، **مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق**، العدد4، أكتوبر 1982، ص648-665؛ «نحن والاستشراق، ملاحظات نحو مواجهة إيجابيّة (القسم الثاني)»، **مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق**، العدد1، يناير 1984، ص116-137.

«الإسلامبولي، عبد العزيز»: «نحن والمستشرقون أيضاً، رد صاحب «المعرفة» على الدكتور الهراوي، حسين»، **المعرفة**، العدد 6، يونيو 1932، ص723-726.

«بوحديبة، عبد الوهاب»: «الحياة الاجتماعيّة الإسلامية كما صوّرها بعض المستشرقين»، فصل في كتاب **مناهج المستشرقين في الدراسات العربيّة والإسلاميّة**، تونس 1985، الجزء الثاني، ص158-160.

«جحا، ميشال»: «عمر فروخ والاستشراق»، **الاجتهاد**، العدد 25، السنة السادسة، ص131-151.

«حسين، أحمد»: «فضل المستشرقين على نهضة الفكر الإسلامي»، **الثقافة**، القاهرة، العدد 29، 1976، ص4-6.

«حسين، محمد توفيق»: «الإسلام في الكتابات الغربيّة»، **عالم الفكر**، الكويت، العدد 10، ج2، 1979، ص537-538.

«خراط، محمد يحيى»: «المستشرقون، ما لهم وما عليهم»، **المعرفة**، العدد 582، آذار 2012، ص119-128.

«خشبة، سامي»: «"شرور" الاستشراق كيف ننتفع بها؟»، **إبداع**، العدد8، أغسطس 1991، ص82-86.

«الديب، عبد العظيم محمود»: **المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي**، الدوحة: مركز البحوث والمعلومات، 1990.

«زقزوق، محمود حمدي»: **الاستشراق والخلفية الفكرية لصراع الحضاري**، الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، (سلسلة كتاب الأمة، رقم5)، 1404 هـ.

«السباعي، مصطفى»: **الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، 1998.

«سلطان، سلطان عبد الحميد»: **من صور الغزو الفكري للإسلام: التبشير، الاستشراق، العلمانيّة**، القاهرة: مطبعة الأمانة، 1990، (الفصل المستخلص: ص66-77).

«السمّان، محمّد»: « أحقاد المستشرقين»، **الرسالة**، العدد 1080، 1964، ص30-31.

«الشويرف، عبد اللطيف»: «أخطار الاستشراق وكيف نواجهها»، **جوهر الإسلام**، تونس، العدد 1/6، 1973، ص15-22.

«صغيرون، إبراهيم»: «الاستشراق والخلفيّة الفكريّة للصراع الحضاري لمحمود زقزوق»، **عالم الكتب**، المجلد الخامس، العدد الأول، 1984، ص184-193.

«عبيدو، محمد»: «الاستشراق الاستعماري وصورة العربي المشوّهة»، **المعرفة**، العدد 383، ص233-241.

«فروخ، عمر»: «المستشرقون ما لهم وما عليهم»، **الاستشراق**، العدد الأول، أعظمية بغداد، العراق، كانون الثاني 1987، ص54-62.

«قنديل، نزار»: «التاريخ وخطايا المستشرقين»، **الجمهورية**، مصر، 4 نيسان 1994.

«مبارك، زكي»: «فضل المستشرقين على اللغة العربية»، **المعرفة**، العدد 4، أبريل 1932، ص415-416.

«مظهر، جلال»: «مستشرقون تآمروا على الشرق»، **الآداب**، العدد 5، 1964، ص13-16.

«الهراوي، حسين»: «نحن والمستشرقون الأنانيّة القوميّة وتحرير الفكر»، **المعرفة**، العدد 2، فبراير 1932- ص177-180.

«الهراوي، حسين»: «نحن والمستشرقون رد على الدكتور مبارك»، **المعرفة**، العدد 3، مارس 1932.

«الهراوي، حسين»: «المستشرقون وضررهم على الإسلام والشرق» **المعرفة**، العدد 6، يونيو 1932، ص720.

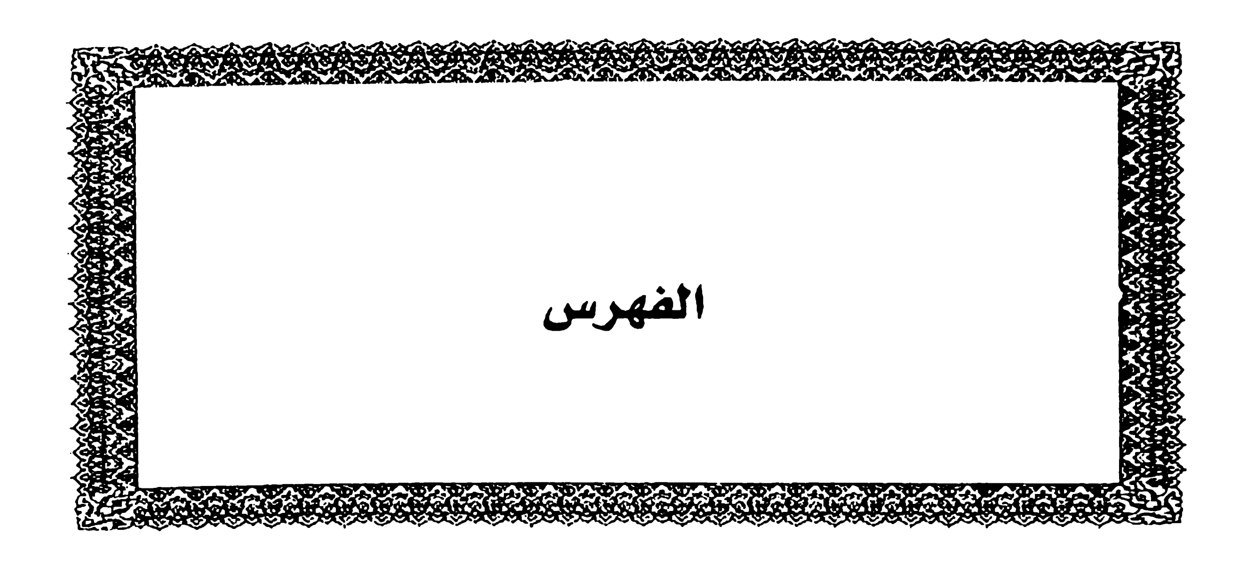
«الهراوي، حسين»: «المستشرقون وضررهم على الإسلام، بيني وبين مرغليوث»، **المعرفة**، عدد10، أكتوبر 1933، ص1223-1225.

«الهراوي، حسين» و«مبارك، زكي»: «هل ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم؟»، **الهلال**، العدد 42، 1934، ص562-579.

«الهراوي، حسين»: «المستشرقون والإسلام» **المنار**، 1936، العدد 4، ص249-323.

«الندوي، أبو الحسن علي»: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986.

M. Borrmans, A. Ferré, M.-Th. Hirsch, A. Lane, M. Lagarde, J. Mahfouz, H. Moussalli : *Al-Mustašriqūn, Textes arabe sur l'Orientalisme*, Roma : PISAI, 1992.



الفهرس